AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

قصة الباي

هدية من المؤلف الى المكتبة الشرقية
في بيروت نفعها الله

892.78
Ha2818EA
c.2

ثورة عواطف

رواية حب يعلم الادب

عواطف مصورة

فلسفة الحب الشعري والهوى العذري

بقلم

نقولا الحداد

(منسقة تنسيقاً تمثيلياً ايضاً)

48145

(حقوق اعادة الطبع والتمثيل والترجمة محفوظة للمؤلف)

(مصر سنة ١٩٢٨)

المقدمة

الحسب والنسب لا يصنعان شخصيات نبيلة. النبل وراثة اجتماعية أكثر مما هو وراثة بيولوجية. والتربية أولا والسلالة ثانياً منبت الشخصية

الحب الاثيري يجرد النفس من العالم المادي. وبسقوط المادة تسقط الامجاد العالمية ويبقى الجمال الروحاني.

بهذا الحب السماوي يرتفع الوضعاء الى ما فوق الامراء. وبالحب الحيواني يسقط الامراء الى ما دون الوضعاء

وهذا الحب الروحاني يرفع ميزان الديونة ليحكم بالعقاب العنيف على الحب الشهواني الذي يدنس الحياة الروحية

***

ذلك هو محور هذه الرواية الحبي. وأما محورها الاجتماعي الذي لا يقل شأناً عن ذاك فهو « الله الاثم من ربت لا من ولدت »

***

نسجنا هذه القصة على منوال احساسي طلي لاننا رأينا من رواج روايتنا « حواء الجديدة » ان هذا الاسلوب صادف مجالا واسعاً في نفوس القراء فبذلنا جهداً كبيراً في ان تكون هذه الرواية كتلة أثيرية

مصر — نوفمبر سنة ١٩٢٧ نقولا حداد

حاشية : نسقت هذه الرواية تنسيقاً تمثيلياً أيضاً. وفي آخرها بيان لهذا التنسيق

القسم الاول

شبوب الثورة في العالم الاثيري

الفصل الاول

المعركة الاولى بين الروح والمادة

كانت الساعة السابعة والنصف حين اقبلت الام اغناتيا على بوابة دارها في ضاحية من ضواحي المدينة، فراعها حادث لم تشاهد مثله في حياتها وهلع فؤادها الرخص واثار عواطفها من مكامنها وطبع في صفحة ضميرها صورة له لا تمحى . ولطالما تمثلت لها هذه الصورة في مخيلتها بعدئذ فكانت تنتفض منها تأثراً

وتحرير الخبر انها رأت فتى في أول ربيع الحياة كأنه الوردة التي شرعت تشقق كمها، او التفاحة التي بدأت تنضج وقد تخضب بياضها العاجي بحمرة الشفق — رأته بين يدي شرطيّ جبار كانه من العالقة وهو «يجرجره» على الارض والفتى يعربد ويحارل التخاص منه ، وكلما انتفض الفتى منه نفضة كافأه عليها بلطمة حامية تلهب وجنتيه كما بنار وتحوّل ورد خديه الى جلّنار . وكلما نهض نهضة ردها له ركلة تدحرجه على الارض دحرجة العصفور الذي اصابته رصاصة الصياد . وهو يصرخ به قائلا: هلم الى القسم (دائرة البوليس) يا مجرم . والفتى يقول متلعثما خسئت يا جبان . انا آخذك الى القسم، لا أنت تأخذني ، وهناك اعرفك قدر نفسك

رأت الام اغناتيا مصارعة كمصارعة الكلب والدجاجة: خشناً يتقاوى على رخص، او همجياً « يسحق » نبيلا نضير الشباب، فانهلع فؤادها في صدرها . واسرعت الى المعركة وانتهرت الشرطي وهو « يجرجر» الفتى وجنبه الواحد على الارض والآخر تحت الركل والرفس، وقالت : ويحك . لماذا هذا الجور ؟

فالتفت الشرطي فاذا به يرى في الراهبة تحت نور مصباح الشارع مقلتين تقدحان شرراً ، وجبهة قد تجعدت غضباً ، وصدراً عريضاً يصعد وينحط انفعالا كانه منفاخ

الحداد ركناً مرتفعة كانها تكاد تهوي على صفحة خده . فكبح جماح خلقه وقال منقحاً نغمته : انه سكران ياسيدتي

— اذاً ليس مجرماً

— كلا ولكنه يعربد وقد وسخ عتبة ديرك بقيئه

— اذا لم يكن مجرماً فلماذا تجرجره هكذا؟

— لانه لا يسير معي طوعاً فآخذه عنوة

ولكنك تضربه «وتبهدله» فباي حق؟

— لانه يشتمني اثناء تأدية وظيفتي

— تقول انه سكران والسكران لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول ، فما هو بالمسأول

— مسأول او غير مسأول يجب ان آخذهُ الى القرقول . هلم يافتى

وكان الفتى قد مال متكئاً على كتف الشرطي لشدة نشوته ، فلما التفت هذا ليكلمه وقع على الارض. فقالت الراهبة : ولماذا تأخذه الى القرقول

— لكي يبقى هناك الى ان يصحو من سكره فيطلق سراحه

— وماذا يفعلون بسكره هناك ؟

— لا شيء . يحبس في احدى الغرف فينام على البلاط حتى الصباح

ثم التفت الى الفتى وقال : هلم يا فتى

وأمسك الشرطي بيد الفتى يريد جره ثانية. فانتهرته الراهبة قائلة: بعيداً ياشرطي لا اسمح لك أن تمد اليه يدك . فهو يخصني وفي حمايتي الآن

وكان صوت الراهبة امراً جازماً هبط على نفس الشرطي هبوط صوت الحكمدار فارتد صاغراً . ثم تقدمت الراهبة الى الفتى وأمسكت بيده لتنهضه فاذا هو في مثل سبات. فقالت للشرطي: هلم الى الدير. ادخله

وقرعت باب الدير ففتح البواب البوابة وحمل الشرطي الفتى الى غرفة بواب الدير كما امرته الراهبة الرئيسة وخرج. ثم اوعزت الى البواب ان يطلب من الاخت انستاسيا كاساً من القهوة

ولما الفتى فكان ملقى على فراش البواب وهو نائم لا يعي . وحاولت الرئيسة الام اغناتيا أن توقظه فلم يستيقظ. ثم دست يدها في جيبه فاستخرجت منها بعض اوراق ومحفظة وفحصتها بسرعة وردتها ومنها فهمت انه يدعى فريد الرحابي موظف في شركة ..

ثم وافت الاخت انستاسيا بكاس القهوة فحاولت الام اغناتيا ان توقظه لكي تسقيه القهوة فلم يستفق . فقالت : كنت اود ان اعالج نشوة هذا الفتى الى ان يستفيق فارسله الى ذويه . ولكنه مستغرق في نشوته

فقالت الأخت انستاسيا : نضعه في مركبة . وخليل (البواب) يذهب معه الى بيت اهله

فقالت الأم اغناتيا متجهمة : وهل تعرفين عنوانه ؟

— كلا ياسيدتي الام . ولا اعرف من هو ولا رأيته في حياتي

— ولا انا اعرفه البتة . وقد ادخلته الى هنا لكي انقذه من شرطي جلف كان «يجرجره» ويركله ويضربه لكي يذهب معه الى القرقول

— لماذا ؟

— لانه سكران . الا ترين ان الخمرة خبلته . فلو اخذه الشرطي الى «القسم» لاقاسوه هناك على بلاط غرفة الى الصباح . فقد يقضي نحبه

فقالت انستاسيا : اللهم ارحم هؤلاء الفتيان الطائشين الذين لا يفهمون عاقبة طيشهم . الا تظنين ياامي الرئيسة انه بعد هذه السكرة يتوب ؟

فقالت الرئيسة باسمة مفكرة : بل بالعكس يخشى ان تتسلط عليه عادة الشرب فيصبح مدمناً وتكون السكرات التالية اشنع من هذه . ومن يدري كم سكرة سكر قبل هذه

فوجفت الأخت أنستاسيا وقالت : ويحه من فتى أحمق . أنه لا يزال في بدء الشباب . فمتى وقع في شرك هذه العادة الرديئة ؟ كم تظنين عمره يا أمي الرئيسة ؟

فنظرت فيها الرئيسة باسمة وقالت : أظنه بين العشرين والثانية والعشرين

— أظنه يناهز الخامسة والعشرين باسيدتي

— لا . وانما هو نام غض نضير فيتراءى لك اكبر عمراً

— اسفاً على هذه النضارة ان تنبت في أشواك الرذائل . الا تتأسف الواحدة يا سيدتي ان ترى هؤلاء الشبان وهم في ربيع الحياة يقعون في قبضة الشيطان ؟ ان قلبي ليتقطع حين أرى فتى نضير الرواء غض الأهاب مليح الملاح كهذا يقع في يد الشيطان

فابتسمت الأم اغناتيا وقالت : اذاً نصلي لأجله يا أنستاسيا لكي يغفر الله له ويقيه من خطيئة السكر المميتة

وركعت الراهبتان وتممتا باللاتينية الصلاة الربانية والسلام الملائكي . ثم استدعت الرئيسة البواب وقالت : هلم خذ من عندي فراشاً وغطاء للفتى ودعه نائماً في غرفتك الى الصباح . فلا تزعجه ولا توقظه . واذا استيقظ وطلب حاجة فأوعز الى الأخت انستاسيا أن تنبئني . لا تدعه يخرج قبل أن أراه .

ثم التفتت الى الأخت أنستاسيا وقالت : اني أود أن أعالج روح هذا الفتى لعلي بقوة سيدتنا مريم العذراء أشفيه من عادة الشرب

ثم خرجت الراهبتان تاركتي الفتى لعناية خليل البواب . وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء

وفيما هما داخلتان بناية الدير التي في وسط الحديقة قالت انستاسيا ، ماذا يكون حال اهل الفتى اذا لم يعد في آخر السهرة ؟ لا بد انهم يقلقون ويزعجون آخرين في

البحث عنه

فقالت الرئيسة : لقد دبرت الظروف من نفسها تدبيراً يخلاني هذا القلق . فأهله يسألون القرقول والقرقول يسأل الشرطة والشرطي الذي كان يبتغي اخذه الى القرقول يرشدهم اليه هنا

***

كان الفجر حين صحا الفتى وهو يحس يداً ناعمة تقبض على معصمه. ولا بدع ان يتنبه لنعومتها بعد خشونة يد الشرطي الجبار العالبتي التي كانت آخر اثر انطبع في صفحة مخيلته ، لانه بعد هذا الأثر لم يعد يعي لشيء. وفتح عينيه فاذا عينان سوداوان تبثان اليه اشعة مبهجة وثغر يتدفق عليه ابتساماً ووجه صبوح كأنه وجه ملاك سموي يرف نوقه. فنهض وجلس على فراشه وادار نظره فاذا هو في غرفة صغيرة ليس فيها ما يلفت النظر سوى صورة مريم العذراء و يسوع الطفل على يدها وشمعة مضاءة على خوان قديم صغير ، وسرير من خشب في الجنب الآخر من الغرفة، وذات الوجه الصبوح جالسة على كرسي الى جنب الخوان امامه — هي الأم اغناتيا رئيسة الدير. فقال: يا لله اين انا، أفي المستشفى. ماذا بي؟ وترقرق الدمع بين اجفانه

وكانت الأم لا تزال قابضة على معصمه فقهقرت كفها الى كفه وضغطت عليها قائلة : كلا لست في مستشفى بل انت في دير لراهبات خادمات الانسانية . فلماذا تبكي ؟

فنظر الفتى في الرئيسة نظرة رجاء وامل وابتسم ابتسامة بدت بين قطرات دمعه كما تبدو اشعة الشمس بهتاً من خلال الغمام ، و بدت تحتها كرتا وجنتيه المتوردتين كأنهما قوسا قزح في رذاذ ذلك الغمام . وقال : لست أبكي يا سيدتي من أسى أو كرب. وانما هي بقية دمعات من نوبة بكاء ماضية ما زالت في مدمعي، فطردتها الآن نبضة من نبضات الفرح والسرور

فوجمت الأم اغناتيا لجوابه المستغرب هذا. وبقيت هنيهة ساكتة تفكر فيه ، وقد نصب في مخيلتها سرادقاً من التخيلات وطنّب قباباً من الأفكار . وتطوحت في تأويله بما عسى أن يتناوله من المعاني . ثم استجمعت قوات منطقها من فرسان الحنكة ومشاة الدهاء كأنها تستعد لمنازلة جدلية في ساحة لعالم البياني الروحاني. ولسوف يتضح جيداً للقاريء لماذا شرعت الرئيسة من تلك الدقيقة تعبيء جيشها وتعد عدتها للحرب .

ولا يستهجن القاريء نسبة الحرب الى طائفة من الناس يعرفهم الناس، وهم يدعون، انهم رسل سلام لا شياطين خصام . بل فليذكر القاريء أن مهمة هذه الطائفة ، او الملة ، أو الجماعة ، أو الطغمة — سمها شئت — انما هي المقاومة الدائمة للدوا

الجحيم ، ومقاتلة زبانيتها وطعن ابالستها بالصليب المقدس

ثم نظرت فيه نظرة وضاحة القت عليه وشاحاً نورانياً من ظل روحانيتها الملائكية ، وكأنها أنعمت فؤاده بهجة طردت كل أثر للغم فيه ، وبهاء رجاء محق دجية كل يأس منه . وقالت : ظننت أنك تبكي ندماً على ما أنفى اليه تصرفك أمس من الهوان . فآسف الآن لخيبة ظني يا بني

فقال متهيباً : أني جاهل تمام الجهل ما حدث لي أمس يا مولاتي . فماذا حدث مما يستوجب الندم

— عجباً . ألا تتذكر «جرجرة» الشرطي لك واعتداءه عليك على قصد أن يأخذك الى القرقول .

— لا اتذكر شيئاً من هذا يا سيدتي

— لا بدع ان لا تتذكر . اذاً ألا يخطر لك أن تسائل نفسك لماذا انت الآن هنا ؟

— ما طال تساؤلي بنفسي عن سبب وجودي هنا ، لاني حالا تذكرت أين كنت مساء أمس وماذا فعلت مما أفضى بي الى هنا

— حسناً . أو ما أسفت على ما فعلت حالما عاد اليك صوابك الآن ؟

فأطرق الفتى هنيهة . ثم رفع رأسه وبقي مغضياً نظره وقال : أخاف أن اكون خادعك يا مولاتي اذا قلت لك اني اسفت على ما فعلت أمس

فاعتدلت الرئيسة في كرسيها مقطبة تقطيباً لم يوار كل ضياء بشاشتها ولم يغيهب على شمس ابتسامتها وقالت : رافعة يديها ونظرها الى السقف : ارحمني يا الله واغفر لي جلوسي لدى هذا الفتى الاثيم . والهمه يا يسوع ويا مريم أن يتوب ويستغفر ويلتمس الرحمة .

ثم نظرت فيه موجهة الخطاب اليه : اذاً لا تندم على سكرك امس !

فتردد الفتى في الجواب وقال مغمغماً قولا فهمته الراهبة جيداً :

كيف أندم على سكري وقد أفضى الى شيء من الغاية التي توخيتها . اني اكذب يا سيدتي اذا قلت لك اني ندمت او اندم على سكري أمس

فقالت الراهبة : ويلاً لي ! اني أشفق عليك يا بني من شر هذه العادة اللعينة عادة السكر ، هل تعلم يا بني ان السكر قبل ان يودي بك الى الجحيم يودي بحياتك الى الاسقام والآلام ؟ أما قال لك أبوك ومعلموك في مدرستك ان السكر يسبب السل والسرطان وضعف القلب واحتقان الكبد والكلى وضعف الأعصاب واعتلال الدماغ ، ويحدث الأمراض العصبية المختلفة وينتهي بالجنون . فضلا عن انه يقتل الارادة والأخلاق ويشل العزيمة . فيضيع السكير ماله ويعجز عن كسب غيره ويموت في ابان شبابه . ان لم يمت بالسل مات بالسرطان أو بالسكتة القلبية او بالتهاب الكبد والكلى او

بالنوراستينيا او بالهستيريا او بالجنون او بأي مرض آخر لأن السكر يفتح الطريق لكل الأمراض. أما قرأت هذا؟ أما سمعت هذا؟ أما أخبرك أحد ما هي نتائج السكر؟ أما علمت أن الشيطان مقيم في كأس بنت الحان يدخل الى مخادع النفس مع روح ابنة العنقود ويطغيها ويردها عن قداسة الله ويدهورها الى الجحيم. بنيّ. ان نفسك وجسدك تحت خطر الهلاك. أفلا تندم على سكرك وتتوب عنه؟

— قلت لك يا مولاتي اني لن أندم على سكرة أمس. ولكني أعدك اني تائب عن السكر. وتي بتو بتي.

فتهلل وجه الراهبة وقالت: اني اشكر الله اذ أجاب طلبتي وسمع صلاتي. وافرح يا عزيزي بتو بتك. وانما أخبرك أن الله لا يقبل توبتك ما لم تندم على خطيئتك. فيجب أن تندم على سكرة أمس.

— عذراً يا مولاتي وعفواً. انك تحسبين سكرة أمس خطيئة. وانا أحسبها فضيلة. ولذلك لا يمكن أن أندم عليها

فارتجفت الراهبة غضباً. وانما بقيت بهجة بشاشتها تشع من خلال غياهب غضبها وقالت: ويحي! ألا تزال تصرّ على خطيئتك المميتة؟ يجب يا بني أن تعترف لأبيك الروحي بسكراتك الماضية كلها وتعده وعداً صادقاً انك تتوب عن السكر توبة صادقة لكي يحلك من اثمك هذا والا بقي مثقلاً عنقك حتى يهوي بك الى الجحيم — رباه ارحمه اغفر له ألهمه أن يعترف ويتوب. هل تعدني أن تعترف للكاهن اليوم؟

فرفع الفتى نظره الى الراهبة باسماً وقال مولاتي ان سكرة الأمس كانت الأولى والأخيرة. فعسى أن يقيني الله من داع لسكرة اخرى كداعي سكرة امس، وانا اعدك أن لا أسكر بعد الآن

فازدادت الرئيسة استغراباً لقوله هذا وصار الاستغراب يسنز يدها رغبة في استكناه سره وقالت: أحقيق انك لم تسكر غير سكرة امس؟

قلت لك يا سيدتي ان سكرة امس هي الأولى والأخيرة. والبرهان على انها السكرة الوحيدة في حياتي انها اضاعت صوابي. فلو كنت مدمناً لما فعلت بي الخمرة هذا الفعل الذي تجاوز ما اردت وما تعمدت السكر لأجله

— عجباً هل فقدت حكمتك حتى تتعمد سكرة تجرك الى سكرات بحكم العادة؟

— كلا يا سيدتي لم افقد حكمتي. بل عن حكمتك سكرت

فتحمست الرئيسة وقالت بحدة: عجباً اين الحكمة في ارتكاب معصية؟

— لا بدع ان تستغربي يا سيدتي امري ولا بد من تفسير قليل له لكي يزول استغرابك. كنت في حالة يأس من امر فغامرت بسكرة على امل ان انجح او افشل. نعم كنت ابتغي ان اضع حداً ليأسي

فابتسمت الراهبة وقالت: وماذا ترى

الآن افشلت ام نجحت ؟

— الى الآن لا ادري . وانما اظنني في طريق النجاح او اني ارى بارقة امل

فتململت الراهبة وازدادت استغراباً ورغبة في اكتشاف سر الفتى وقالت : الى الآن لم افهم التفسير الذي وعدت به، فافصح ان شئت ان افهم

— اجل. اودان تفهمي ياسيدتي .....

ثم توقف عن الكلام كأن في فيه ماء. فقالت : افهمني اذاً .

فتلمظ لعابه متردداً في القول . ثم تشجع كأنه يخاف ان تفوته فرصة وقال: تريدين ان تعرفي يا سيدتي الداعي لسكرتي امس

— نعم اريد اذا كنت تود ان افهم تفسيرك لتعمد امرٍ فريّ كالسكر ، لاني لم استطيع ان ارى الحكمة في ارتكاب هذا الاثم

فتردد الفتى ايضاً ولكن لم يبق مناص من القول ، وهو يرغب في ان يقول . فقال : كنت ابتغي يامولاتي ان اتصدّى لشخص واكلمه . فخفت ان افشل في التصدي وفي الكلام. فشربت الخمرة لاني كنت اسمع انها تنطق الاخرس . وما دريت انها تخرس الناطق وتخبل العاقل الا بعدان شربت اربع كؤوس متوالية فكان فعلها كما علمتِ وكما علمت الآن بعد علمك

فأطرقت الراهبة مفكرة هنيهة ثم قالت: يظهر انك كنت تبتغي ان تقول ما لا يسوغ لمتأدب ان يقوله فاستعنت بالخمرة فخانتك

— كلا ياسيدتي ان ما رغبت ان اقوله لا يختلف عن الصلاة كثيراً وانما كنت اجبن عن قوله

— عجباً! انك تزيد اللغز غموضاً. اجل لا افهم كيف ان فتى اديباً جريئاً مثلك يجبن عن الكلام الطاهر

— الكلام يا سيدتي طرفان : متكلم وسامع . فاذا كان المتكلم يهاب السامع فلا جرم ان يجبن

— غريب ما تقول : لو كان السامع المقصود وزيراً خطير الشان.....

— ليته ملك فلا اهاب ان اخاطبه

— عجباً عجباً. اذاً من يكون ؟ لو كان الله جل وعلا لكنا ندنو اليه بالصلاة

— اني كل يوم اصلي الى الله يا سيدتي واراى الله في علو سمائه يصغي الى صلاتي. ان الله يامولاتي اقرب السامعين الينا

— عذراً يا بني . إما ان تفصح او انك تخاف ان تفسيرك لا يقنع. فأنت اثيم يجب ان تعترف باثمك وتستغفر

— اذا كانت الاعمال بالنيات فلم اكن آثماً فيما نويت وفعلت

— اذاً افصح . وقل من هو الشخص الذي تهاب ان تكلمه؟

— هو شخص لا يعرفني ولا اعرفه فخفت اني اذا تصديت له يخزيني قبل ان يستوعب كلامي

— لا ارى سبباً لهذا الخوف. فمن هو هذا الشخص ؟

— هو فتاة يا سيدتي شاهدتها فرأيت فيها الاقنوم الذي خفق له فؤادي حباً وفهمت انه هو الروح التي احيا بها او بلاها انا ميت

هو الالف الذي كانت تبحث عنه نفسي حائرة فلما وجدته صار قلبي يدفعني اليه ، فأقضّ مضجعي بخفقاته و بلبل بالي بحنانه وطارت نومي شعاعاً للحوم حوله. فأنا يا سيدتي في قلق دائم لا يهنأ لي عيش ولا يستقر الكرى في اجفاني

واغرورقت عينا الفتى بالدموع وطفق يبكي كالطفل الذي سلب امه. فتأثرت الراهبة من بكائه ورثت لحاله وكادت تغرورق بالدموع منله.

الفصل الثاني

جمال الفراسة في هيكل الطهر

و بعد سكوت هنيهة قالت الراهبة: تقول ان الفتاة لا تعرفك.

— نعم

— كيف عرفتها انت؟

— لما شاهدتها لاول مرة وقرع لها ناقوس قلبي تتبعتها حتى رأيتها تدخل هذا الدير . منذ ذلك الحين صرت ارتقبها حيث شاهدتها لاول مرة مصادفة وتتبعتها فاذا بها تدخل في منزل آخر فخم. فصرت اراقبها الى ان تخرج منه . فما خرجت . عدت في يوم آخر الى مراقبتها حيث شاهدتها فكان حظي سعيداً ان رأيتها. فاذا بها تمضي الى ذلك البيت الفخم نفسه ولا تخرج منه فعلمت انها بنت ذلك البيت فسألت عن ذلك البيت فاذا هو منزل رجل عريض الجاه . فكاد يخامرني اليأس . ولكن قلبي كان يزداد خفوقاً ونفسي حيرة فعدت الى المراقبة . فكنت تارة اراها تدخل الى ذلك البيت واخرى الى هذا الدير . واصبح شاغلي التردد في الطريق بين البيت والدير عسى ان تقر عيني برؤية ذلك الملاك . وكنت اعلل نفسي بالتفات نظرها الي لعلها ترى شبح الحب يلوح في عيني وترمقني بنظرة تجرئني على مخاطبتها

فابتسمت الراهبة ثم قالت : هل رمقتك بنظرة؟

— كلا

— هل التفتت نظرها؟

— لا ادري ان كانت قد انتبهت لي وعلمت بوجودي ورأت ملاك الحب يرفرف فوق صدري . وقد رأيتها في هذا المساء داخلة الى هذا الدير فعقدت النية على ان اتصدى لها حين خروجها منه واخاطبها كلمتين لتعلم من انا وما ذا بي من حب طاهر وغاية شريفة . ولكن ضميري — شيئاً لضميري — كان يزجرني مخافة ان انفر

الحمامة المقدسة فيعاقبني فؤادي عقاباً لا احتمله. ولذلك عقدت النية على ان اشرب كاسين من الراح لكي ينام ضميري و ينطلق لسان قلبي، لاني لم اجد وسيلة لبت الامر الا هذه المجازفة: إما نجاحاً، او فشلا يعقبه الهلاك

وعاد الفتى يسترسل في تحيبه فرقت له الراهبة وقالت: ولكن هذه الخطة يا عزيزي ليست محمودة ولا شريفة. لا ريب ان الفتاة تتذعر إذ تجد شخصاً تجهله يتصدى لها ولا سيما اذا لاحظت انه سكران

— لم اقصد السكر يا سيدتي وانما لجهلي عواقب الخمرة شربت اكثر مما يحتمله عصبي ودماغي

— على كل حال ليس لائقاً بفتى مهذب مثلك ان يتصدى في الطريق لفتاة تجهل هويته. فان كنت تنوي نية صالحة ....

— نعم. نعم يا سيدتي اني انوي حباً كحب الملائكة الاطهار خال من الدنس

— اذاً ما ذا يمنعك ان تخاطب اباها في الأمر او أن تكلف شخصاً محترماً ان يخاطبه اذا كنت انت لا تثق انك تحسن مخاطبته. هذا هو السبيل القويم في مثل هذه الحال

— نعم يا سيدتي. هذا هو السبيل القويم. ولكن هذك سبيلا الى النجاح اقوم. يجب ان تعرف الفتاة من هو الاليف الذي كان حائراً في البحث عن إلفه فوجده فيها. يجب ان اعرف ان كانت الفتاة تجد في إلفها ايضاً

— يمكن ذلك بعد مفاوضة اهلها في الأمر. تعرفك بعدئذ معرفة جهرية بلا حرج. فاسلك الطريق المطروق ولا تختط لنفسك طريقاً وعراً خطراً، قد ينعكس فيه اربك

— اخاف يا سيدتي ان مفاتحة ابيها في الامر تقطع كل طريق عليّ

— تعني انه يرفض؟

— نعم. الا يحتمل ان يرفض؟

— اذاً لا فائدة من مفاتحة الفتاة أولا، لانها وهي بنت وجيه نبيل ترجع الامر الى والديها على كل حال

لا يا سيدتي. اذا خفق فؤادها كخفق فؤادي لا يستطيع اهلوها ان يخنقوه ولا سيما في هذا العصر الذي يكون فيه للفتاة الارادة الاولى في مصيرها

ففكرت الراهبة هنيهة ثم قالت: سمعاً يا بني. لا تنتظر من الفتاة المتربية العاقلة الفاضلة ان تسلط قلبها على عقلها وتعصى ارادة ابويها او تدع للحب سلطاناً على نفسها وارادتها. فالافضل يا بنيّ ان تقلع عن غيك وتعود الى رشدك اذا كنت لا تجد نفسك كفؤاً للفتاة

فابتسم الفتى ابتسامة لطيفة من خلال عبراته كانت كوميض برق من خلال الرذاذ وقال: مولاتي انى لخير كفء لها. فاذا كانت فينوس آلهة الجمال قد تنازلت لها عن عرشها فروحي هي عرش كيوبد إله الحب، وقلبي هو كنانة كيوبد التي يأخذ منها سهامه ومن جوهر حياتي يصنع كيوبد هذه السهام

فابتسمت الراهبة الى حد الضحك وقالت : لا ياولدي لست اعني هذا ....

فقاطعها الفتى وقد استفاض لسانه وجرؤ جنانه وقال: اجل اني اراها يا اماه ملاكاً قد صاغه الله دون سائر ملائكته من جوهر قداسته ، وجمع فيه كل عناصر جماله ، وجعله بؤرة بهائه ومرآة جلاله . وانا قد اختارني الله دون سائر عباده العبد الذي يتعبّد لهذا الملاك . فجعل خاتي من طينة ناعمة ليّنة فينطبع فيها جوهر تلك القداسة ، وجعل فؤادي كتلة عشاقة تتشرب اشعة ذلك الجمال

فسطعت شمس بشاشة الام اغناتيا حتى انها بدّدت كل غياهب عبوستها وقالت :لا ريب عندي في صحة هذا القول يا عزيزي وانما .....

فما امهلها الفتى ريثما تم كلامها كأنه كان يعلم ماذا تريد أن تقول ، وانما لم يشأ ان يضيع الفرصة السانحة لبث غرامه ، وقد رآها تبش له ارتياحاً لبيانه ، فانتهزها بهذه التوطئة الشعرية للتوسل بها الى الصلة بالفتاة . أوكأنّ ابتسامات الام اغناتيا قد نزلت طلاً على روحه الظامئة ، فانعشت زهرات شاعريته فتمايلت ألوان جمالها الشعري تحت نسمات البشاشة النورانية المندفقة من كوة سواد الثوب الرهباني .

فقال : أجل اعلم ياسيدتي الموقرة انها الوردة النضيرة التي كوّنها الله من خلاصة الذرات الاثيرية ، وسقاها من رحيق روحانيته الالهية ، ونفخ فيها نسمات قدسيته السماوية . فثقي يامولاتي الفاضلة ان الله الذي جعلها أقنوماً منزهاً عن ادناس البشر قد صنع لهذا الاقنوم الممتاز بطهارته وجمال روحانيته ولطف جبلته الاثيرية ، هيكلا طاهراً يعتصم فيه ، وهو قلب خادمك المطيع . فهي فيه تمثال جمال الله الذي لا تشوهه نظرات الشهوات البشرية ، وهي فيه ملاك القداسة الالهية الذي لا تستطيع يد الارجاس الشيطانية ان تلمسه ، وهي فيه الوردة الخالدة النضارة التي لا تستطيع ان تلفحها ريح الفساد الانساني .

فازدادت ابتسامات الراهبة تدفقا كأنها كانت تستلذ هذا البيان السحري وتستزيد الفتى منه فقالت :انها لعواطف رقيقة جداً ياعزيزي ولكن هل أنت ..

فقاطعها ايضاً وقد اتسعت كوّة قريحته وقال : ثقي يامولاتي ان نهاري للتعبّد لهذا الملاك الذي أشاهد فيه قداسة الله العلي ، وليلي للتأمل في جمال ذلك الاقنوم الذي يتجلى فيه جمال الله البديع . نعم ثقي ياسيدتي ان قلبي راكع على الدوام في هيكل صدري يضرع الى الله ان يجود عليه بعطف ملاكه الجميل القدوس . ومخيلتي تقفل أبواب حواسي لكي تصدّ شعوري العالمي عنها وتتفرغ لاستجلاء طيف ذلك الملاك وتعكس شعاع بهائه الى فؤادي فيعلم ان الله استجاب تضرعاته وصلواته فيصفق طرباً ويخفق فرحاً ويرقص مرحاً . واذا غاب ذلك الطيف المعبود عن دار مخيلتي أو غشيته أشباح الشعورات المادية فأخفته ، تزلزلت

جدران المخيلة وتقلقلت أوتاد الفؤاد حتى يكاد هذا القلب المضطرب يثب الى الفضاء ليبحث عن طيف ذلك الملاك الذي كان يسكب عليه زيت نعمته، أجل ياسيدتي اني في دير حي الطاهر دائم التعبد نهاراً وليلا، أشكر الله واحمده لانه اختص هذا الملاك بكونه ممثلا قداسته وجماله، واختص قلبي بكونه العرش الذي يتبوأه طيف هذا الملاك. ثم أشكر الله اذ ألهمني ان افهم قدر النعمة التي اختصني بها.

فقهقهت الراهبة أغناتيا قهقهة لطيفة خلواً من الاستهتار بل هي مقرونة بالاعتبار وحسن الشعور وقالت: اذاً أنت سعيد بنعمة الله هذه. فماذا تبتغي بعد؟

ـ لست أبغي ياسيدتي الا ان يعلم هذا الملاك أين هيكله الذي يجب ان يقيم فيه هو، لا طيفه فقط

ففكرت الام اغناتيا هنيهة ثم قالت: ولكن هل تدري انك قد دنست هذا الهيكل الذي تزعم انه مقدس، ولم يعد يليق منزلا لملاكك الطاهر؟. نعم قد دنسته بالسكرة التي سكرتها أمس..

ـ نعم دريت ياسيدتي. ولكن السكرة زالت ولم ينتج عنها شر لاحد، وها أنا تائب عن السكر. ومع ذلك اكفر عن هذا الاثم بأي تضحية تفرضينها وأخرج شيطانه بالصوم والصلاة. أصوم وأصلي الى ان يطهر فؤادي و يعود هيكلا صالحاً لاقامة ملاكي

ـ يجب ان تعترف لكاهنك وتطلب المغفرة

ـ اعترف ياسيدتي

ـ ويجب ايضاً ان تتوب عن التصدي للفتاة أو مراقبتها وملاحقتها من مكان الى مكان، لان هذه الطريقة شريرة، ولا تليق بشاب طاهر النفس مثلك، فضلا عن انها تذعر الفتاة وتنفرها منك اذ توهمها انك كسائر الفتيان الاشرار الذين يتحككون بالفتيات

ـ اتوب يامولاتي اذا كنت تعرفيني بالفتاة وتخبرينها بأمري وتفهيمنها اني الفتى الذي يتعبد لروحها الطاهرة الخالدة، لا لجسدها الفاني فتطمئن نفسها. وثم يتسنى لي ان اداري بها قلبي هيكلا طاهراً لاقنومها النقي. ولا بد انها تثق بك لانها على ما يلوح لي ذات صلة بك لترددها الى دبرك، ولعلها كانت تلميذة مدرستك

ـ لا أدري ان كانت كما تقول لاني لم أعرف من هي أو من هو ابوها الوجيه الذي أشرت اليه في اول الحديث

ـ هو الباشا د. س.

(وقد رأينا نحن أن نكتم اسمه ولا سيما لان ليس له شأن في روايتنا)

فقالت: نعم ان بنته تلميذتنا وأحيانا تتردد الينا لأشغال منزلية

ـ اذاً لا اندم على سكرتي ياسيدتي لانها أفضت بي الى ما بين يديك لكي أتوسل بك الى التعارف بالفتاة. وهل من وسيلة افضل من ان تعرفني بها أمها الروحية التي هي تثق بها كل الثقة. و بذلك تغنيني عن مراقبتها في ذهابها وايابها

فضحكت الراهبة وقالت: انك يا ابني توظفني وظيفة تحرجني الى الخروج من

دائرة وظيفتي الروحية ، يجب ان اخلع عني هذا الثوب الاسود قبل ان اعمل هذا العمل

— بل هو من وظيفتك ياسيدتي. الست خادمة الله ؟ والله يأمرك ان تضعي تمثال قداسته في هيكله الطاهر الذي أعد له . انك ياسيدتي واسطة خير . فنخدمين ارادة الله وحق الانسانية

فقهقهت الراهبة قهقهة لطيفة وقالت : هذا نظرك انت ، ولكن ليس نظر الفتاة ، ولا نظر أهلها ، ولا نظر الناس. لا يقول الناس انني اخدم ارادة الله واقيم تمثال قداسته في هيكله الطاهر ، بل يقولون ان الام اغناتيا قد اصبحت خادمة الحب . اللهم انقذني من شر الحب ومن خدمة هذا الخناس الموسوس في صدور الناس

— حاشا يامولاتي ان يكون الحب خناساً . اليس « الله محبة » وهو يأمرنا ان يحب بعضنا بعضاً ؟

— استغفرالله . ان الله يأمرنا بمحبة كمحبة الاخوة لا بعشق عالمي كعشقك هذا. قم يابني صلّ الى الله ان يشفيك من هذا الحب الخبيث وتب عن نيتك فانها فاسدة مهما تراءت لك صالحة

— عفوك ياسيدتي. ان هذا الحب هو النعمة العظمى التي منحها الله للبشر . وانا اتمتع بهذه النعمة الالهية . فكيف تنصحين لي ان اتوب عنها؟

— نعم اوصيك ان تتوب عن هذا الحب ، ويجب ان تتوب عنه لاني ارى غير ماتراه انت

— انت ترى انه منحة الله ، وأنا ارى ان الشيطان بز بنه لك. ولطالما زين الشيطان الشر للانسان خيراً لكي يغويه . فاقلع يابني عن افكارك الفاسدة هذه يجب ان تضرع اليه تعالى عسى ان يطرد هذا الشيطان من قلبك وان يشفيك من داء الحب العقام

— آه ياسيدتي لا تدرين عقبى ما تنصحين لي به . لا اشفى ياسيدتي من هذا الحب الذي تسمينه داءً قبل ان تذيب ناره فؤادي ، وتطيره بخاراً في الفضاء. ولا يبرح هذا الحب من صدري قبل ان يسل روحي منه ، وتسبح هائمة في هذا الفضاء تبحث عن نعمة الله فلا تجدها . ثقي ياسيدتي انه متى انطفأت جذوة الحب من فؤادي خلوت من نعمة الله ، وتطرق الشيطان الى نفسي واختلسها ومضى بها الى الجحيم . فبربك يا سيدتي الام النقية ياخادمة الله انقذي نفسي من يد الشيطان وحياتي من يد ملاك الموت. لا استطيع ان اعيش لحظة بغير هذا الحب. اني وحيد لامي. فاذا سلبت روح الحب من نفسي تميتين اثنين : امي وانا . فاشفقي ياسيدتي وارحمي

وطفق الفتى يبكي بكاء مراً انفطر له قلب الراهبة وترقرق الدمع في عينيها . ثم قالت : اركع يابني فنصلي الى الله لكي يلهمك الى الصواب

وركعت الراهبة فركع الفتى . وتمت الصلاة الربانية والسلام الملائكي باللاتينية الى ان قالت : آمين . ثم نهضت وقالت : قم يا بني الى أمك المسكينة فلا بد ان تكون

فى قلق شديد بسبب غيابك فى الليل عن البيت. مسكينة! ماذا يكون حالها الآن؟ لابد ان تكون طائفة كالمجنونة فى الشوارع تبحث عنك نائحة

— كلا ياسيدتي . لاتخافي على أمي . ان لي أمين ، كل منهما تظنني كنت بائتاً عند الاخرى

— عجباً . كيف ذلك ؟

— نعم لي أم ولدتني وأخرى أرضعتني وربتني. ولهذه فضل عظيم علي لانها مرأة فاضلة تقية، وقد ربت فيّ كل الفضائل كما تربي ابن حشاشتها .

— في كل حال يحسن بك أن تذهب الى بيتك الآن . والله يباركك ويلهمك الى الصلاح

فتضرع اليها مستغيثاً وقال : مولاتي لا أستطيع ان أنتقل من هنا وقد اصبح باب سعادتي بين يديك

— ويحي ! أتريد ان تبقى هنا ، وهنا دير راهبات ومدرسة بنات ؟

— كلا ياسيدتي . أمضي الآن على وعد منك ان تشرحي أمري للفتاة وتأخذي منها موعداً للقائنا بحضورك لكي أتعرف بها فقط، حتى اذا صادفتني بعدئذ تكون على علم بشأني فلا تنفر مني

— انك يا هذا تطلب المستحيل. هذا أسلوب شائن بي وبالفتاة . ليس لك الا ان تسمى لدى ابويها بواسطة غيرواسطتي. هذا اذا كنت تعرف انك كفء لها . اعني انك من مقام كمقام أبيها ، فلا أظنه يأباها عليك .

— اني ياسيدتي من أسرة أمراء وكان أجدادي حكاماً

— من هم أجدادك ؟

— هم الامراء الرحابيون وكان أبي يلقب بالامير خليل الرحابي واسمي فريد الرحابي

— حسن جداً . وهل لكم ثروة تقوم بعبء الامارة

— نعم ترك ابي ثروة حسنة ولكنه أوصى بأن تكون فى يد عمي وهو ينفق علينا من ريعها . وعمي الامير نعيم الرحابي ذو ثروة حسنة أيضاً . والغالب انها تؤول اليّ لاني وريثه الوحيد . وانا في وظيفة استعين بها على نفقاتي الخصوصية . فأحوالي حسنة من نعم الله

— حسن جداً جداً . اذاً أرجح ان الباشا د. س. لا يضن عليك بنته اذا طلبتها منه . فاتكل على الله واسلك هذا الطريق الشريف . وحاذر ان تسلك سواه لئلا ينعكس عليك مقصدك

— أريد ان استوثق من قلب الفتاة أولا يا سيدتي وبعد ذلك أضمن النجاح

— لقد نصحتك يابني فأنت وشأنك بعد الآن

— اذن لاترحميني

— الله يرحمك يا بني

— بحق يسوع ومريم ومار يوسف ارجو ان تشرحي للفتاة أمري والله يدبرني بعد ذلك . هل تعديني

— لا . لا .

— اذاً الله وحده ملاذي وداعا ياسيدتي

— وداعاً والله خير ملاذ

ومضى الفتى يمشي الهوينا كأنه الشيخ المسن يحمل على عاتقه هموم الزمان. وتوارى والام اغناتيا ترمقه بعين الحنان، وقد تمثل لها مستقبل مملوء من الحوادث الجسام وسيرى القاري، صورة ذلك المستقبل كما تمثل فى مخيلتها .

وعادت الى غرفتها وهي تفكر بما جرى في ذلك الصباح . ولابد ان يتذكر القاري، انها عرفت من هو الفتى منذ أدخلته الى حجرة البواب واطلعت على بطاقته. ولكنها رأت من الحكمة ان تتجاهل ذلك

الفصل الثالث

تنظيم الخطط الحربية

وفيما هي غارقة في بحر بحرانها دخلت عليها الاخت انستاسيا وقالت : ياسيدتى . هنا مرأة تلتمس مقابلة خاصة

— أما علمت ماذا تريد ؟

— لم تشأ أن تقول

— قولي لها ان تنتظرني فى حجرة المقابلة

بعد قليل مضت الرئيسة الى غرفة المقابلة فرأت امرأة فى ثوب حداد جثت لديها تقبل يديها وقدميها وتقول : ياسيدتى ان رجائي ليس عسيراً لديك اذا أردت

— نعم يابنتي ماذا تريدين ؟ لا ابخل على احد بخدمة أستطيعها . فقد وقفت نفسي علي خدمة الانسانية. فما هو رجاؤك

— ترملت ياسيدتي ولم يترك لي زوجي سوى بنت صغيرة السن وعلي ان اشتغل لكي أعولها وأعول نفسي . ولا استطيع ان اشتغل وهي معي . فأرجو ان تقبليها عندك خادمة وتلميذة لكي أستطيع ان اشتغل

— ماذا تشتغلين ؟

— لاحرفة لي لاني لم أحسب حساب الترمل لكي أتعلم حرفة . وانما أستطيع ان أطبخ . فاذا اشتغلت طباخة في بيت فلا يقبل أهل البيت بنتي معي

— كم عمر بنتك ؟

— ٦ سنين . هي هنا . فهل تريدين ان تريها ؟

ثم نادت المرأة بنتها فدخلت فاذا هي فتاة نضيرة الاهاب جميلة الطلعة سمحة المحيا فقالت المرأة : ألا ترين ياسيدتى انه حرام ان تعيش هذه الطفلة عيشة شقاء معرضة للاخطار . بربك تقبليها عندك وان شئت فادفع عنها نصف راتبي

فتفكرت الرئيسة برهة ثم تنهدت وقالت: حسناً . بنتك تكون هنا في أمن وأعنى بها . وانا اصلي الى الله ان يحفظك من الاخطار التي تتعرض لها مرأة في مثل حالك. لا اطلب منك راتبا على بنتك

فارتمت المرأة علي يدي الرئيسة تقبلهما

وتشكر لها كرم أخلاقها ووعدها الصادق وهي لم تزل تذرف الدموع، دموع الفرح. ثم، قبلت ابنتها بلهفة وشوق وتعملت الابتسام والبشاشة لها. وقالت: الملاك الحارس يحرسك يا ابنتي. أن امنا الرئيسة أمك، وستحبك اكثر مني، وستعطيك الصور والايقونات وتعلمك الصلاة. ستسرين يا ابنتي جداً. وكل أسبوع آتي لاراك اذا أذنت سيدتي الرئيسة

وكانت الام اغناتيا قد أخذت يد الفتاة وجعلت تربتها وتلاطفها وتجذبها ببشاشتها وهشاشتها. ثم سألتها. ما اسمك فقالت. اسمي حنة كرامة

— وما اسم أمك

— اسمها ساره كرامة

ثم التفتت الام اغناتيا الى أم الفتاة وقالت: لي عليك شرط واحد يا ساره

— اني طوع أمرك يا سيدتي

— هذا هو شرطي. أن تكوني طوع أمري حينما أطلب منك أمراً. لا أدري متى أطلبه وانما أود أن تابي طلبي حالا اذا انتدبتك لخدمة. لا أطلب أمراً منكراً ولا ما هو فوق طاقتك

— انني يا مولاتي اطيعك الطاعة العمياء

— نعم الطاعة العمياء اريد

— شكراً

وودعت ساره كرامة الراهبة وبنتها ومضت. وعادت الام اغناتيا الى غرفتها تسبح في بحر بحرانها

* * *

لا يحسن أن نسترسل في رواية هذا التاريخ الخاص من غير أن نعرف القارىء بشخصية الام اغناتيا وهي شخصية ممتازة تستحق أن تكون مثلا أو نموذجاً للشخصيات القوية الراقية

كان ذلك الدير الذي بدأت الام اغناتيا حياتها الرهبانية فيه حقيراً يشتمل على بضع اخوات لا شغل لهن الا العبادة والخدمة في مستوصف طبي خيري صباح كل يوم. وكانت رئيسته شيخة مسنة فكانت تعتمد على اغناتيا في كثير من اشغال الدير الادارية لان هذه كانت نشيطة وقوية القلب وطيبة جداً. ثم انشأت اغناتيا مدرسة للاطفال فما لبثت المدرسة ان نجحت وجعلت تتسع فأيد نجاحها الثقة العظمى بالاخت اغناتيا. ولما ماتت تلك الرئيسة قضت طبيعة الحال أن تخلفها هذه الراهبة النشيطة لانها كانت متفوقة تفوقاً عظيماً على سائر الاخوات بذكائها ونشاطها وتقواها ومقدرتها.

ولما استقلت بادارة الدير رقت المدرسة الى مثل كلية. وبذلك اشتهرت عند العائلات المختلفة بشخصيتها البارزة. وهذه الشخصية اكسبتها شيئاً من الحرية التي لا تناله راهبة اخرى. فكانت تزور بعض الاحيان بعض أهالي التلميذات فيحلونها محل الاعتبار العظيم. الى أن صارت تستخدم هذا الاعتبار لاستدرار الاحسان للاعمال الخيرية. فاتسعت دائرة اعمالها باتساع دائرة نفوذها واتسع نطاق الدير والمدرسة واشتهرت اعمالها الخيرية العديدة.

كانت مضرب المثل في اعمالها الجليلة كما كانت كذلك في تقواها وطهارة سيرتها، لذلك كانت كأن لا سلطة فوق سلطتها وكيفما سلكت فلا مأخذ عليها.

فوق كل ذلك كانت لها هيبة كهيبة الحكام فما جالسها جليس مهما كان عظيما الا شعر انه لدى وقار جليل يجب أن يجله

***

قضت الام اغناتيا كل ذلك النهار يتصادم في ضميرها شبحان تصادماً عنيفاً. شبح الوقار وشبح الصغارة فكانا يتجاولان في قبة دماغها تجاول تياري الكهرباء. اجل قضت ذلك النهار وهي تأسف كيف تسامحت مع ذلك الفتى فريد الرحابي وتركته يطلق لنفسه اعنة التغزل والتشبيب بفتاة، كأن وقارها كان قتام دخان متكاثف بددته عصفة ريح من رياح احاديث الحب فاضمحل، وتارة كان طيف ذلك الفتى يتمثل في مخيلتها كروح ملاك يتعشق قدسية الله، فتخشى ان تكون قد جدفت على تلك الروح الملائكية. تارة كانت تندم على سماحها للفتى ان يسترسل في حديث غرامه، واخرى تندم لانها زجرته وهو يتغزل بقداسة الالوهية الممثلة في نفوس البشر الاتقياء

أليس « ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله » ؟ فاذا كان الانسان نقي الضمير طاهر القلب متنزها عن الشهوات الانسانية فانما قلبه هيكل للقداسة الالوهية حقيقة. واذا كان يحب لجمال قداسة الله موضوع حبه. أليس ان « الله محبة » وهو الذي خلق الحب. فلماذا نفر من الحب ؟ ولماذا نجحد الحب؟ أليس الحب نعمة الله ؟ فلماذا نكفر به ؟. لم يدنس الفتى هذه النعمة بلفظة لسان فلماذا يلام ويوبخ ويزجر ؟ لقد ظلمته الام اغناتيا

هذا ما كان يجول في ضميرها تارة. ثم ينعكس تيار الافكار في وجدانها فتقول لنفسها : عجباً. أنا الام اغناتيا التي يهابها

الناس على اختلاف طبقاتهم ويزنون الكلام قبل ان تنطق به ألسنتهم . أفيخدر هذا الفتى العاشق تلك الهيبة ويخضع هذا الوقار؟ـ ماذا جرى لي ؟

ثم ينطلق فكرها في عالم الماضي فتستعرض تاريخا يثير ثورة الغضب ثم تستعرض حدثان المستقبل فتبسم اذ ترى المستقبل قد انتصر على الماضي .

ثم تطلق لذكائها أعنته في تقرير الخطط الحربية استعداداً لحرب الماضي والمستقبل المنتظرة — حرب الرجاسة والقداسة ـ حرب الشياطين والملائكة

لا حق للقارىء ان يطالب المؤرخ في وصف الخطط الحربية لانها تكون دائماً سرية ، وتبقى سرية الى ان تحدث المعركة فتنكشف الوقائع عن الاسرار. فمهلا أيها القارىء . سترى الملاك والشيطان في صراع

يمكنك ان تقول ان الام أغناتيا لم تنم في تلك الليلة لشدة ما أثرت في نفسها حالة ذلك الفتى وهي محتارة في الحكم على الطبيعة البشرية

أحقيق ان حب هذا الفتى حب ملائكي سماوي روحاني شعري عذري كما يقولون ؟ أم هو افك حب شيطاني خبيث ؟ واذا كان قلب هذا الفتى لم يزل من الطينة المقدسة التي نفخ الله فيها نسمة الحياة الطاهرة وحبه مشتقاً من حب الله، أفلا يمكن ان تسعى الى قلبه أفعى الشهوات البهمية فتسمه وتتطرق اليه ابالسة الاهواء الدنيوية فتدنسه وتحول ذلك الحب المقدس الى حمأة رجاسة ودنس ؟

أما حدث أن فتى عشق فتاة كما يعشق القديس روح الله . فبث لها هذا الحب الطاهر المقدس حتى اشركها فيه . وما دريا ان ابليس الرجيم يزيا بزي ملاك الحب المقدس وهو يزين لهما لذة الحب ويغويهما ان يقطفا من ثمرته ويأكلا فتنفتح أعينهما ويعرفا الخير والشر ويصبحا الهين كالله ، حتى اذا أكلا الثمرة انفضحا ووجدا نفسيهما عريانين فيخزيهما الله

بل حدث مثل هذا كثير فكان الفتى يستهوي الفتاة بحبه الروحاني. فهو حسن النية صادق الحب . ولكنها متى انجذبت اليه طغت الشهوات البهمية فافسدت الحب

أجل مثل هذا حدث كثير ويحدث كل يوم . والام اغناتيا تعرف حادثاً كهذا . اذاً لا يؤمن لهذا الحب الروحاني أو الهوى العذري . فهو عصفور جميل محلق في الجو ، ولكنه لا بد ان ينزل الى الارض . اذاً يجب ان ينزل الى أرض أمينة لا الى البحر المستغرق ولا الى حظيرة أفاع . اذا حلق الحب في فضاء الروحانيات يجب ان يكون فوق حظيرة الشريعة

المقدسة حتى متى انقض نزل فيها — يجب ان ينتهي الحب الروحاني بالزواج القانوني

هذا ما جال في ذهن الام اغناتيا أيضاً في تلك الليلة . وهذا ما كان يبرر لضميرها الرفق بالفتى وربط روحه المحلقة في سماء الحب بخيط من الرعاية لكي تنزل الروح في حظيرة الشريعة الالهية التي جعلت الحب قاعدة للزواج

بهذا التعليل كانت الام اغناتيا تعذر الفتى في حبه بل تبرر له حبه وتتمنى له رعاية تقيه من الوقوع في أحبولة الافاعي وتقوده الى خطيرة الشريعة شريعة الزواج المقدس

انقضى الليل وهذه الافكار تحوم في مخيلة الام أغناتيا بين يقظة وحلم الى ان قرعت باب غرفتها الاخت انستاسيا. فذعرت لهذا القرع غير المعتاد في فجر الليل فنهضت من سريرها وفتحت الباب —

— ما الخبر يا انستاسيا ؟

— لا أدري يا سيدتي . هنا امرأة في حالة مريعة لا تفسر . تقول انها تبتغي مقابلتك في الحال لامر عاجل يتردد بين داعي موت وحياة . وهي تستغيث بي وتتواقع علي قدمي ان التمس منك السماح بمقابلتها الآن

— لا بأس ان تأتي الى هنا

ما ان تدثرت الام اغناتيا بدرثاها حتى دخلت مرأة كهلة ربعة القوام مملوءة العضل مستديرة الوجه عريضة الجبهة والصدر والمنكبين ناعمة الاهاب متوسطة بين السمرة والبياض سوداء العينين نجلاؤهما قليلا ، جثلة الشعر وقد وخطه قليل من الشيب ، وفي مقلتيها ومضات من ذكاء العقل والفؤاد ونبضات من القوة .

وقد ارتدت ثوباً بسيطاً وعلى عاتقيها وشاح من الصوف يصد لفحات برد الفجر السامة

هذا ما بدا للام أغناتيا من ملامحها التي كانت تتموج بتموج اضطرابها، وكان صدرها يعلو ويسفل تبعاً لخفقان فؤادها، وجوارحها تختلج وفقاً لخلجات نفسها القلقة في هيكلها

وقفت وهي ترمي رئيسة الدير بنظرات الاستغاثة والضراعة كان لسانها يسبح في نظراتها

فبدر من الرئيسة سؤال كأنه حلقة من سلسلة حديث جرى بعضه بينهما : ماذا جرى له ؟

— انه بين الحياة والموت يا سيدتي

فامسكت الرئيسة عنان عواطفها كأنها شعرت بتسرعها وسألت بمثل نزق : من هو ؟

فقالت المرأة واجفة مترنحة حتى كادت تتداعى : هو يا سيدتي من سألت عما ذا جرى له

فمزقت الرئيسة ثانية : من هو ؟ افصحي

— هو من كان في صباح أمس يستغيث بك فخزته يا سيدتي بلا رحمة ولا شفقة

— هل أنت امه ؟

أمه الثانية يا سيدتي . وقد تقطع عليه قلبي ومزقت احشائي وطار لبي شعاعاً وذهبت نفسي مع انفاسي ووهت كل قواي .

وهنا شرقت المرأة بدموعها واسترسلت في النحيب . فقالت لها الرئيسة . أقصدي يا أختي وأخبريني . ماذا حدث ؟

— بربك يا سيدتي . لا وقت للقعود . هلمي معي الآن . الان والا فقدناه . ان حياته أصبحت بين شفتيك

— ويلي . كيف امضى معك الآن ولم ينبلج الصباح بعد .

— المركبة لدى البوابة يا مولاتي . وكل دقيقة تتأخر فيها هي حكم على فريد بالموت

ـ لا تخافي يا أختي ، ان الله ساهر على حياته . سأمضي معك متى اخبرتني ماذا حدث . املكي روعك وقصي علي ما جرى

— روى لي أمس بالتفصيل كل ما جهلته من أمره وما كان من حديثه معك . وهو يعتقد ان مفتاح باب السعادة في يدك وانت مقفلة الباب . فتوسل الي ان استغيث بك وأستعطفك لكي تشفقي على روحه الحزينة وقلبه المكلوم

— ويلي . ماذا أستطيع ان افعل

— تستطيعين ان تعرفيه بالفتاة متى جاءت اليك . فحاولت ان اقنعه ان يتريث ريثما نرى في الأمر ونرسم له خطة غير منتقدة . ولكنه لا يستطيع صبراً . وبعد مناقشة طويلة مضى الى شغله وأنا أظن أنه اقتنع بنصحي . ولكنه عاد بعد الظهر ووجهه كالشفيق احمراراً وعيناه جاحظتان . فراعني منظره وقبضت على كفه فاذا هي جمرة نار . ثم استلقى على السرير وجعل يهذرم فلا أدري هل أصابه مس من الجنون أم هي هذرمة الحمى . فجعلت أبرد حرارة حماه بالكمدات الباردة على قدميه ورأسه . ولكني خفت ان أكون مخطئة فيما أفعل . فأوعزت الى أمه ان تأتي بالطبيب . فأسرعت أمه المسكينة وهي كالمجنونة وما لبث ان جاء الطبيب وفحصه وتجهم وقال : لا أدري الآن ما هي هذه الحمى ان نبضه سريع والحرارة فوق الاربعين . يجب ان ننتظر الى الغد . ثم أمرنا ان نستمر بالمكمدات ووصف له دواء لانزال درجة الحرارة . ولكن فريداً لم يشأ ان يأخذ الدواء

— عجباً. لماذا ؟

— يقول ان طبيبه الوحيد انت فاذا لفظت كلمة زالت الحمى . لا يريد طبيباً غيرك ولا دواء سوى كلمتك — فبربك . أنت وكلمتك

— كيف هو الآن .

— لا تزال الحمى كما هي وقد زادت هذرمته حتى غاب عن صوابه

— ماذا يقول

— يقول . « آه يامريم العذراء. نظرة منك قبل الموت تنتقل روحي الى الابدية سعيدة . ها مريم قادمة . انظروا مريم تبسم. انظروا مريم تبكي . من اساء الى مريم . من جرح خاطرها . تعالي يامريم لا تحزني لا تبكي. في فؤادي عرشك المصون. » وهكذا لا اقدر ان اعيد لك كل ما قاله . ومنذ ساعة سكت واصبح كأنه في سبات . ويلي ان حاله الان تشابه النزع. دعونا الطبيب ثانية فطمأنا. ولكننا لم نطمئن بل ازددنا قلقاً. وقبل ان اجيء صرخ صرخة مرعبة وهو يقول: « الرحمة الرحمة يا أيتها الام اغناتيا . لا تحجبيها عني دعيني أمتع نفسي بنظرة أخيرة منها . آه أغناتيا . أتعاقبيني على سكرة واحدة في حياتي . بربكم استعطفوا أغناتيا . كلمة منها تشفيني » . فقررنا ان آتي اليك وأرجو منك رحمة بالفتى والا فقدناه .

واسترسلت المرأة بالبكاء. فقالت الام أغناتيا : اني ماضية معك الآن .

وفي بضع دقائق ارتدت الرئيسة ثوبها الرهباني وخرجت . وكان الصبح ينبلج

الفصل الرابع

تسكين العاصفة

في بضع عشرة دقيقة وصلت المركبة بهما الى المنزل . وكان أول ما سمعته الرئيسة منه حين دخلت : « أيتها العذراء تسلمي روحي » . ورأت امه تلطم صدرها وتقول يا ربي انقذه يا ربي ارحمني

فاسرعت اليه الرئيسة وجلست على كرسي لدى سريره وأمسكت يده فشعرت باضطرام حماه . وقالت : فريد فريد يا بني

فنظر فيها متأملا وهي تقول له : ما هذا الجنون يافريد . أهكذا تتصرف بالهيكل المقدس مسكن الملاك الطاهر ؟

فبسم لها ابتسامة ملائكية وقال :

اذاً في قلبك رحمة ياخادمة الله. اني امتن لشفقتك ورحمتك وحنانك

فقالت . ماذا حدث لك ؟ هل تعلم ماذا كنت تقول وتفعل ؟ لقد فضحت نفسك وجرحت عواطفي وذعرت امك ومربيتك. وأنت بخير والحمد لله . مابك سوى حمى عارضة تزول بعد قليل

فقال وقد بدت عليه دلائل الاتعاش:

قولي لهما اني بخير وما بي من علة سوى حمى لا تفهمان من أمرها شيئاً . وقد أزعجتاني بعيادات الطبيب وأنا أقول لهما ان حماي هذه ليست كحمى البشر . فلا يفهمها طبيب ولا ينجح فيها دواء . ان حماي روحانية لا طبيب لها الا خادمة الله ولا دواء لها الا كلمة عطف منها

وكانت الام أغناتيا تكلمه بصوت خافت كالهمس فقالت له . ويحك ! هل عدت الى هذيان صباح أمس . أما فهمت منذ أمس انه لا شأن لي في الامور العالمية؟ اني راهبة متزهدة ووظيفتي روحية بحتة

وكان فريد قد انتعش تماماً وخمدت ثورة عواطفه وسكنت عواصفها وانقضت نوبة هذيانه وهذمته . فقال : هذا ما أعلمه جيداً يا سيدتي . فأود ان تعلمي أنت أيضاً ان قضيتي ليست عالمية البتة بل هي قضية روحانية بحتة . فهي من اختصاصك وفي دائرة وظيفتك وأنت مسأولة عنها أمام الاله الواحد الذي تخدمينه

فتململت الرئيسة لهذه الحجة الشعرية ثم قالت : لك ان تزعم بشأن قضيتك ماتشاء ولكن زعمك هذا لا يتقيد به سواك. فالفتاة وأهلوها يجرون على العادات والتقاليد العامة . ولذلك لا يحلون بغيتك محل الاعتبار اذا لم تسلك اليها المسلك الذي مهدته العادات والتقاليد. يمكن أمك أن تسعى بسهولة الى مكاشفة أهل الفتاة بالامر . وفي وسعها أن تقنعهم بكفاءتك وتعقد خطبتكما

فقالت ام فريد بحسرة وألم : قلت له هكذا وتعهدت له بالنجاح . . .

فاستشاط فريد وقال . اذا تصدت أمي أو غير أمي لأهل الفتاة أو دعتهم يعلمون شيئا من الامر فثقي يا سيدتي اني أسافر الى الابدية مختاراً . اعلمن ياهؤلاء أن من يسلك هذا السبيل يكون حاكما علي بالموت والتنفيذ المعجل

فعبست فيه الرئيسة وأرسلت الى ناظريه نظرة زجر وانتهار وقالت . لاريب أنك أهوج مقلقل العقل مجنون أحمق لا تفهم الصواب . ولا تعلم أن عنادك هذا يجعل الهيكل المقدس الذي تقدمه مسكناً للملاك الطاهر مقلقلا خطراً مخيفا . فارعو ودع هذا الجنون واقلع عن سخفك

وكانت أمه ومرضعته تغمزان الرئيسة أن لا تشدد الوطأة في تأنيبه لئلا تعود اليه نوبة ثورته . ولكنها لم تدركا أن في نظرات اغناتيا قوة لاسكات العواصف ولذلك استغربتا اذ قابل هذا التقريع العنيف بالابتسام اللطيف وقال . حلمك ياطيبة الارواح والنفوس . يلوح لي أنك الى الآن لم تفهمي روحانية حبي ولهذا تشطين في علاجه . فاطيلي أناتك واستوعبي كلامي لكي تفهمي أعراض غرامي ومنها تتوصلين الى جرثومة حبي

فسخطت به الأم اغناتيا وقالت . عذراً . لاأريد أن أسمع قصائد الهوى الشعري التي أنشدت منها أمس كثيرا . كفى . كفى . لست أنا من عامة الناس الذين يتغنون بالشعر الغزلي . وانما أنا راهبة للصلاة والعبادة وخدمة الانسانية . فاقصر

فرفع فريد يده باسما وقال ضارعا . عفواً ياأمي الروحية لاتكوني أضيق صدراً وأقل صبراً من هذا المجنون الاحمق الأهوج ولا تدعيه يتفوق عليك بالحلم وطول الأناة . بربك تعطفي وتفضلي ببضع دقائق من حلمك وسمعك وبعد ذلك لك أن تقتنعي أو تجحدي

فما وسع الراهبة الا أن تعود الى حلمها وصبرها فقالت . ماذا تريد أن تقول مما لم أعلمه أمس حين أفرغت وطاب صدرك

فابتسم وقال . وطاب صدري لايفرغ بل هو دائم التدفق دائما كحرارة الراديوم . اعلمي ياسيدتي أن غرامي الذي تشاهدين أعراضه ليس كغرام البشر بتاتاً بل هو حب سماوي ينزل الى الارض دخيلا في أوقات قليلة أو نادرة كنموذج للحب الالهي . ولذلك لا يتمشى على قواعد العادات والتقاليد البشرية بتاتاً بل هي تدنسه وتفسده . وقد قرأت في ملامح مريم . . . ؟

فقاطعته الرئيسة مختاجة وقالت . من قال لك أن اسمها مريم ؟

— لاأعرف اسمها وانما أنا اسميها مريم سمية مريم العذراء ام يسوع لانها تعادلها طهارة وقداسة

فقاطعته الرئيسة نازقة : لاتجدف على سيدتنا مريم العذراء

فاستغرب فريد سخطها وقال . عجباً ياسيدتي . بماذا جدفت

— تقول أنها تعادل سيدتنا مريم العذراء طهارة وقداسة . .

لست أنا الذي يقول ياسيدتي . وانما الله قال أنه خلق الانسان على صورته ومثاله . فهل سيدتنا مريم أقدس وأطهر من الله ؟ ومع ذلك اذا صعب عليك أن أسمي ملاكي باسم مريم العذراء فسميها ماتشائين اذ لاشأن للاسم عندي ولا للجسم

وانما الشأن عندي للروح وقد رأت روحي في ملامح الفتاة المجهولة الاسم صورة واضحة لروحانيتها فاذا هي مجبولة بالحب الروحاني الذي هو كحبي تماما . ولذلك لا شأن في أمر روحها لوالديها ولا لأي انسان بتاتاً . ولا شأن للتقاليد والعادات البشرية في تمهيد السبيل لاتصال روحينا. وانما الشأن وكل الشأن لوظيفتك الروحية فهي وحدها تصلح وسيطة بيننا ريثما تتفاهم روحانا . فحاذري ياسيدتي أنت وغيرك أن تفاوضي أهلها في الامر قبل أن يحدث التفاهم التام بين روحينا لئلا تقوم من الماديات عقبات في سبيل الروحيات أو تعترض عوارض تدنس الجو الروحاني . بربك دعي أهلها شأنهم ثانوي يأتي بعد شأننا الروحاني

فابتسمت الرئيسة وقالت : لله من روحك الفيلسوفة التي رأت صورة واضحة لروح الفتاة ورأتها مجبولة بالحب الروحاني

— أجل يا سيدتي أن للعالم الروحاني لغة وكتابة وصوراً لا يفهمها الا العشاق الروحانيون

— أما أنا ياعزيزي فلا أفهم هذه اللغة والكتابة والصور لان وظيفتي محصورة في الصلة بين أرواح الناس وروح الخالق لا في الصلة بين أرواح العشاق . فاعذرني فاكتمد فريد وقال بصوت ذليل خافت لقد اوجزت لك ياسيدتي الحقيقة الروحانية معتمدا على ذكائك ولا أريد أن أسهب لئلا يضيق صدرك من الاسهاب ولاني أعتقد انك فهمت قصدي جيداً . فاذا قمت بالوساطة وايجاد هذه الصلة كنت قائمة بواجب وظيفتك والا فلا أتمهل في الرحيل الى رب الأرواح لاشكو اليه اعراضك عن الواجب . أنت حرة ياسيدتي فيما تفعلين وفيما تفعلين . لست ديانك العادل وانما أنا خصمك لديه

واضجع في سريره وأغمض عينيه والدموع تقطر منهما . ففمزتها المرأة المريبة ان تنفرد بها . فقامت الأم اغناتيا وهي في ارتباك وجنحت الى المرأة في باب الغرفة الاخرى . فهمست هذه في أذنها : بربك بالهك بسمائك بمريمك عديه والا عادالى ثورته الجنونية . ولا غرو أن تنتهي نوبته ويحي . لاأطيق صبراً على فراقه

— لاتجزعي يابنتي . ان ثورته هذه هستيرية تظهر عنيفة هائلة قتالة ولكنها تنقضي بسلام

وكانت أمه قد دنت اليها أيضا فقالت ياويلتاه وهل الهستيريا امر بسيط؟ ستتالى عليه وتنتهي أخيراً بجنونه اذا لم تقض الحمى عليه اليوم . فهي فوق الاربعين درجة الآن

فقالت الأم اغناتيا: لاتخافي من الحمى فالأرجح أنها نتيجة عفونة في الامعاء من

جراء سكرة أول أمس وماصحبها من مأكولات فاسدة. فالحمى تنقضي بمسهل. والهستيريا تنقضي بتغيير المناخ والهواء

فقالت أمه. والحب ياسيدتي لا تنقضي ثورته العنيفة الا بوعد منك. فبربك عديه أن تعرفيه بالفتاة

— لا أستطيع أن أخلف وعداً ياسيدتي فكيف أعد وقد لا أستطيع أن أنجز

— عديه بذل الجهد في السعي فان لم تنجحي فلا تكوني قد أخلفت وعدك بعد أن بذلت جهدك. بربك أنظري اليه وهو يتشنج. ويلي. أغيثاه

وأسرعت أمه والمرأة اليه. فما وسع الرئيسة الا أن تتقدم اليه فأمسكت يده وانتهرته: فريد. فريد حقاً أنك جبان. أهكذا تقابل ملاكك اذا اجتمعت به. وبماذا أعتذر له عن وساطتي بينكما اذا بدر منك مثل هذا التصرف. اخجل من نفسك أولاً لكي تستطيع أن تخجل من ملاكك

وكان فريد قد فتح عينيه ونظر فيها مصغياً لكلامها وبسمته تضح كاتضاح الفجر الى أن يصير صباحا. ثم قال: أشكرك ياسيدتي. وثقي اني متى كنت لدى ملاكي تكون كل قوتي في. أما الآن فاعذروني لأن قوتي مضت مع روحي الهائمة في الفضاء وراء طيف ملاكي. أشكر وعدك ياسيدتي. لقد اشتريت حياتي ولا قبل لي على مكافأتك

— انهض واجلس ولا تكن ضعيفاً هكذا. خذ الآن مسهلا. واليوم تزول الحمى. أظنها تزال الان

وجست يده وقالت: نعم زالت كثيراً

فقال فريد ضاحكا: قلت لهاتين السيدتين أن الأم اغناتيا وحدها هي طبيبتي. وكلمتها وحدها هي دوائي

— أحمد الله انك بخير. أقلقتني هذه المرأة عليك. فعدني أن تكون بعد الان متعقلا صبوراً

— الى متى الصبر يامولاتي؟

الى أن تسنح الفرصة اللائقة. فلا أدري متى تسنح. فان كنت ملحاحا فلا أستطيع أن أخدمك

— اني صابر ياسيدتي وأتمتع بتأملاتي وصلواتي

— لي عليك شرط أيضاً لابد منه وهو أن تكف بتاتاً عن مراقبة الفتاة وملاحقتها

— سمعاً وطاعة

وكانت الأم اغناتيا حينئذ تحيل نظرها في الغرفة فقالت. أجل ويجب أن تضيء شمعتين أمام ايقونة يسوع هذه المعلقة في الحائط وتصلي لها كل يوم

فقالت المربية . هذه من تصوير ريشته يا أمي اغناتيا

فاشرق محيا الراهبة وقالت . أحقيق؟ أنه لفنان بارع . عندي صورة لسيدتنا قد أحرقت الشمعة زاويتها فهل في امكانك يا فريد أن ترد الرسم لأصله ؟

فتهلل فريد وجهاً وقال : بلا شك ياسيدتي . اليوم ....

— لا . ليس اليوم . سأعين لك موعداً آخر

— شكراً يا سيدتي اني رهين أمرك

وكانت المربية قد دخلت الى غرفة أخرى ثم عادت بصورة للطبيعة كبيرة فلما وقع نظر الرئيسة عليها دهشت لجمالها وقالت المربية : وهذه من ريشته ايضاً وستعرض في المعرض الزراعي الذي يهيأ الان

وقالت ام فريد : وعنده صور اخرى في بيتنا ستكون من جملة المعروضات في الغرفة التي سيعرض فيها استاذه ن . م صوره ورسومه

— لي الأمل ان تكسب الجائزة يا فريد

فابتسم فريد وقال : ولي الأمل ان تكسبي الجائزة الروحانية ياسيدتي

فقهقهت وقالت ، وداعا الان . قم وانشط لنفسك

— اني نشيط جداً ياسيدتي .

ونهض فريد كأنه غير مريض ، ومضت الأم وفي رأسها دولة ورجال

الفصل الخامس

الكتلة الاثيرية

خرجت الام أغناتيا وهي تفكر في حلم المستقبل المرسوم في ذهنها وتطبقه على هذه المقدمات الطارئة . وكلما أوغلت في هذا الحلم ومضت من بين شفتيها ابتسامة الأمل الراجح

لا جرم ان يستغرب القارىء وجود ذلك الفتى فريد الرحابي في منزل مربيته لا في منزله وهو مريض . ولا بد ان يخطر للقارىء أيضاً ان الام أغناتيا كانت ولا شك تستغرب هذا الأمر أيضاً . على ان مرأة كالام أغناتيا التي عرف القارىء مقدرتها ونفوذها وتغلغلها بين بعض العائلات لا يتعذر عليها ان تعرف دخائل أناس كبيت الرحابي . ولا بد ان تكون قد عرفت من قبل أشياء وبقيت تجهل أشياء . فاوعزت لبعض صنائعها من النساء ان يتحققن أموراً فجئنها بعد يومين بمختلف الاخبار فقارنتها بعضها ببعض وبما تعلمه واستخرجت هذه المعلومات الرئيسية

الفتى فريد الرحابي يناهز الرابعة

والعشرين وهو ابن الامير خليل الرحابي وأمه تدعى وطفا من أسرة «كذا» ولم يرزق ولداً غير فريد . وقد أرضعته المرأة نجلاء مزهر التي ترملت حين كان لها بنت في الشهر السادس من العمر ولا ملاذ لها فوجدت في بيت الامير خليل الرحابي ملاذها . وبعد أشهر ماتت بنتها فحل الطفل فريد محلها في قلب أمها كما حل محلها على صدرها. وكانت كلما مرت الايام تزداد نجلاء تعلقاً بالغلام فريد حتى صار لها بمنزلة الابن تماما

وقد مهد لهذه الامومة المستعارة شكل حياة أمه وطفاء . فقد كانت تحب اللهو والترف والبذخ. ففي حياة زوجها قضت معظم أيامها بين مراقص مصر وملاهي أوربا . فكانت تترك ابنها فريداً في عهدة مربيته نجلاء ولا سيما لان نجلاء برهنت بحسن أخلاقها وصدق خدمتها على انها اهل لحضانة الطفل وادارة البيت . ومنذ بضع سنين توفي الامير خليل تاركا ثروة قليلة وهي ما بقي مما أنفقته وطفاء على بذخها بعد أن ضيعت بائنتها أيضاً في هذا السبيل. وكان قد أوصى بان تكون هذه البقية في ادارة اخيه الامير نعيم ينفق من ريعها على الأم والابن، وأوصى ان يكون الابن في طاعة عمه على أمل ان هذا العم يترك ثروته التي لا يستهان بها له ايضاً لأنه ترمل منذ بضع عشرة سنة ولم يكن له ولد

اما وطفاء فلما رأت أن القيمة التي يؤذن بها الأمير نعيم نفقة على بيت أخيه قليلة لا تكفي الا بالاقتصاد الكلي انفصلت عن البيت وأقامت في منزل وحدها تتعيش من حرفة الخياطة البسيطة. وكان الامير نعيم يعطيها راتباً شهرياً زهيداً تستعين به . وفريد نفسه الذي كان يحبها حب الابن للأم لم يدعها في حاجة فكان يساعدها في بعض الاحيان بقليل المال. وربما كان مراس وطفاء الصعب بعد انحطاط درجة معيشتها من جملة أسباب انفصال نجلاء عنها ، وانما بقيت نجلاء صديقة صادقة لذلك البيت

هذا هو سبب أن فريد كان ذا أمين وذا بيتين يتردد بينهما حسبما تطيب له نفسه. فكان أحياناً يبيت عند وطفاء تطييباً لخاطرها ، وهي كانت تحسب نفسها سعيدة بان لها ابناً كسائر الامهات

أما هذه الاسرة الشريفة فكانت قد أخذت تتراخى في التمسك بلقب الامارة الذي توارثته من الاجداد ، لان ذلك المجد القديم قد تضعضع بين امجاد العصر الديمقراطي الحاضر الذي لا يعرف مجداً غير مجد المال . وما كان آل الرحابي من ذوي الثروة الضخمة التي تستطيع حمل تاج الامارة . ولذلك لم يكن لقب

الامارة يذكر الا في بيت الاميرين خليل ونعيم . واما سائر المعارف فما كانوا يذكرونه ولا كان الامراء يطالبون بذكره

***

مضت أيام وثورة العواطف في هدنة والظاهر ان فريداً كان مرتاح القلب يعلل نفسه بالامال ويشغل عواطفه بالتأملات الروحية والتصورات السارة. وفي ذلك الحين كانت الجمعية الزراعية تهم بانشاء معرض فخم يمتاز على سائر معارضها السالفة . وكان المعرض في الاصل زراعياً ولكنه كان يشتمل على معروضات صناعية وفنية . ولهذا كان أهل المرافق والمتاجر والفنون يتسابقون الى عرض تحفهم وسلعهم الممتازة فيه

وفي ذات يوم فيما كان الاستعداد في اقسام المعرض قائما على قدم وساق وكان أصحاب المعروضات منهمكين في اعداد غرفهم وتهيئة معروضاتهم اذ دوى في دائرة المعرض ضجيج وصياح: النار . النار . النار . فخرج العارضون من أماكنهم يتدفعون هنا وهناك ويتساءلون . وفهم حينئذ ان سلكا كهربائياً قدح شرراً فأشعل غرفة خشبية ، وكانت الريح تذكي النار. وفي بضع دقائق كان اللهيب يندلع في ناحية من نواحي المعرض . فاندفع بعض الناس الي جهة الحريق . وسمع بعضهم صراخاً في حجرة مقفلة والنار تلتهم زاوية منها ، ورأوا شخصاً يعالج ذلك الباب ليفتحه فلم ينفتح . واتفق ان كان في يده أزميل كبير — خرج به من غرفته ، وقد سها عن ان يتركه فيها كعادة كل من ينذعر فلا يفطن لما في يده — فاعمله في جنب الباب بقوة نادرة وفي دقيقتين خلع الباب فاندفق من الحجرة دخان كثيف . ولكن الشاب لم يعبأ بالدخان فدخل الى الغرفة وفي لحظة خرج منها وعلى يديه مرأة مغمى عليها من الهلع ومن كثافة الدخان واسرع بها الى غرفته . ومن حسن الحظ لم يتبعه الا بعض غلمان لان سائر الناس التهوا في صيانة حجراتهم من الحريق. وبعضهم اشتغلوا في اطفاء النار ريثما يأتي جنود الاطفاء بمطخاتهم .

أما هذا الشاب فكان فريد الرحاني . وأما المرأة فكانت فتاته المنشودة . وقبل ان نسترسل في الحادث الآتي نخبر القارىء ما الذي أوجدهما هناك وهما لا يدريان الواحد بوجود الآخر

أما فريد فكان في غرفة أستاذه المصور ن.م . حيث يرتب الصور والرسوم المعدة للعرض ومن جملتها صوره نفسه . وأما الفتاة فكانت في تلك الغرفة المحترقة تشتغل في ترتيب الاشغال اليدوية من

تطريز ووشي ونحوهما مما يشغل فى دير الام أغناتيا . فكانت تساعد أستاذتها الراهبة في ترتيب المعروضات ولا سيما لان بعضها من شغل أناملها . واتفق في تلك الساعة ان الام أغناتيا لم تكن في المعرض لانشغالها في الدير بأمور أخرى . فكانت الفتاة وحدها في الحجرة

وقد أقفلت بابها ليخلو لها المكان للترتيب والتدبير مستضيئة بالنور الكهربائي . والظاهر انها لم تشأ ان تخرج من الغرفة المحترقة قبل ان تجمع التحف أو معظمها لكي تخرج بها. ولكن النور الكهربائي انطفأ والدخان المندفع من الزاوية التي التهمتها النار أعمى بصرها وبصيرتها فلم تعد تدري كيف تفتح الباب. فاستصرخت الناس ثم وقعت مغمى عليها. وقد اتاح لها الله فريداً ان ينقذها

انها لمصادفة غريبة ، او ان الله قد هيأها لقصد في عمله الالهي لا ندركه .

كانت غرفة فريد بعيدة عن مشتعل النار وهو واثق أنها في مأمن . وأن النار ستطفأ قبل أن تصل اليها . ولذلك كان يعدو بالفتاة الى غرفته وهي على ذراعيه كأنها ريشة، لان قوى الشباب كلها تجمعت في عضلات عضديه في تلك اللحظة . وكان ينظر الى وجه الفتاة أكثر مما ينظر في طريقه وهو مدهوش يغالط نفسه فيما يرى . ودخل الى الغرفة وأقفل بابها وهي مضاءة بالكهرباء

وقعد على مقعد عليه سجادة والفتاة على ذراعيه وقد القاها على ركبتيه وجعل ينظر في الملاك الذي لدى باب قلبه وهو لا يدري ماذا يفعل . كان ينظر فيها وجلا ولولا تصعد صدرها وهبوطه الضعيفين لظنها ميتة لان إغماءها كان عميقاً

مضت دقيقة وهو في بحران لا يدري ماذا يجول في باله أو كان بلا بال

أهذه هي الملاك التي يسميها مريم ؟ المحيا محياها . الحاجبان حاجباها . وأما العينان فكانتا مطبقتين ، وأما الخدان فقد غشي الاكفهرار توردهما . واما الفم فكان مطبقاً وقد التحم فيه عند الشفتين. وأما الأنف فهو المثلث العاجي الذي كان يتصوره . تأمل ذلك الثوب الازرق السماوي فهو بعينه الثوب الذي رآها به غير مرة. ثم رفع نظره الى صورة زيتية من ريشته كانت معلقة في الحائط . فاذا هي نفس صورتها التي كان يتخيلها حين صورها ماعدا شحوبا قليلا فى الاصل لم يخف الملامح التي تشابه ملامح الصورة . اذا لم تكن هي إياها . فما أغرب التشابه

كانت ذراعها اليسرى على صدره وقد تعرى بعضها . فانحنى رأسه قليلا حتى كادت شفتاه تبلغان الى تلك الساعد العاجية

ولكن مالبث أن هتف هاتف في صدره يقول . ابعد عني أيها الشيطان لا تجربني في تدنيس مثال القداسة الالهية

كان فريد كأنه الصنم الذي لم يتحرك فيه سوى صدره بقدر ما تستلزمه انفاسه من الحركة اللطيفة. كانت عيناه قلما ترتفعان عن ذلك المحيا الذي كانت تومض منه الانوار الروحانية. فكان يجزع اذ يخطر له ان تلك العينان المغمضتان ستنفتحان فترتاعان من نظراته فيحول نظره . كان يخاف ان يخونه صبره فتتحرك ذراعاه تحت ذلك الهيكل الجسماني الذي تتصون فيه تلك الروح العفيفة الطاهرة فيثب ذلك الاقنوم مذعورا

كان فريد يشعر ان حياته ترتوي من سلسبيل هذا الجمال ، وأن صدره يمتلىء من نسمات هذا الطيف الاثيري . لذلك كان يخاف أن تنقضي هذه اللحظة السعيدة في نعيم الحب قبل أن يرتوي . ولكنه لم يكن يدري لهذا الارتواء حداً . فالى متى يبقى هذا الاقنوم الاثيري بين ذراعيه وصدره

هل يلقي هذا الهيكل الجسماني عن يديه على المقعد قبل ان تنفتح ابوابه وتطل منه تلك الروح الطاهرة لئلا تتذعر من الشبح المادي المخيم فوقها . ولكن اين القوة اللازمة لهذا الالقاء؟ شعر فريد أن تلك القوة العتية التي اختطفت الفتاة من جحيم الحريق قد اختبأت في مكامنها فكان كلما همّ ان يطرح الفتاة على المقعد خفق قلبه هاتفا : ويحك ! هل تطمع بنعمة أعظم من هذه النعمة ياغبي ؟ هل كنت تحلم أن تكون هذه الروح اقرب الى فؤادك منها الان . هي سانحة هيهات ان تعود . فاغتنمها

فيهتف ضميره من فوق قلبه قائلا . حتى متى تدنس هذه الروح ياشيطان ؟

فيهم فريد ان يلقيها من بين يديه على المقعد فيصيح فؤاده . أمجنون انت؟ ان الله الذي قدس هذه الروح وقدس هيكلها فيك يضعها الان عند باب هيكلها فهل تمنعها عن هيكلها جاحداً نعمة الله ؟

فترتخي مفاصل فريد وتطمئن يداه على ركبتيه فيصيح ضميره من فوق : ماالذي يسوغ لك يا شيطان ان تقنص هذه الروح الحرّة وتقيدها بذراعيك

فيعزم فريد على تحريك يديه فيصيح فؤاده : لله منك جباناً ، النعمة بين يديك فتنبذها . فيصيح ضميره ويحك اتترك الفتاة تسلم الروح بين يديك ولا تنعش حياتها بقطرة ماء

فذعر فريد لصوت ضميره . فحركه الذعر قليلا ، ففتحت الفتاة عينيها، فوقع نظرها على نظره ثم اطبقتهما في الحال كأنها تتوارى من امام هذا الشبح المفاجيء

وما كاد فريد يطمئن لسكونها حتى راعته خلجة منها ، فاخرى،فاخرى . فأسرع لالقائها على المقعد ولكنه قبل ان يبسطها عليه اقشعرت ونهضت بغتة جالسة وقالت: ويلي . اين انا ؟ ماذا بي؟

فقال فريد وهو لايزال جاثياً لدى المقعد كما اقتضى ان يفعل حين كان يضعها عليه . لقد سلمت ياسيدتي والحمد لله فاطمئني

فصرخت أين انا ؟

— انت في مكان ليست السماء أأمن منه . فلا تجزعي ياسيدتي

— الحريقة ! الحريقة

— أنت بعيدة عنها جدا ياسيدتي لاتخافي . ان الله ضن بحياتك فأنقذها

فنظرت فيه جيدا كأنها تتبينه ثم قالت مرتعشة: ماهذا المكان ياسيدي؟ اني خائفة

ـ أنت في احدى غرف المعرض البعيدة عن الحريقة . والحريقة تنطفىء الان فلم تجزعين؟

وكانت لا تزال تنتفض وقد طفق الدمع يترقرق في عينيها فقالت بجهشة: ماالذي جاء بي الى هذا المكان ؟

ـ عناية الله ياسيدتي فاملكي روعك واطمئني . انت في أمن روحي ومادي تام

ـ إذاً لماذا الباب مقفل ؟

ـ لم يقفل الا لرد المتفرجين عنه. أظنهم مضوا فنفتحه الآن

ونهض فريد وفتحه في الحال وعاد وجثا لديها

ـ إذاً تسمح لي أن أمضي

ـ لست أسيرة هنا ياسيدتي. بل انت الوحيدة ذات الحرية المطلقة وصاحبة الأمر والنهي . فافعلي ما تشائين بلا قيد ولا شرط

فتنهدت وقالت شكراً ياسيدي شكراً

وبقي فريد صامتاً كأنه ينتظر امرها. فنهضت واقفة ووقف فريد امامها ايضاً ثم قالت . هل تتكرم ياسيدي ان تقول كم من الزمان كنت في هذا المكان الى الان ؟

يتراءى لي ياسيدتي ان الزمان لم يمر مدة وجودك هنا . فقد كان الكون ساكناً سكونا مطلقاً كما لو كنت في السماء حيث لاقياس للزمان

— وهل تتفضل بان تقول لي ماذا جرى لي هنا ياسيدي ؟

ـ لك يا مولاتي ان تعلمي من نفسك ماذا جرى لك اذا كنت تتقين انك كنت في السماء لدى عرش الله تعالى

فتلفتت الفتاة هنا وهنا واجالت طرفيها في المكان كأنها متحيرة مما ترى وتسمع بعد ان سكن روعها قليلا ثم قالت : ويلي: أيمكن ان أكون في حلم ؟

ـ بل انت في حقيقة لم تكوني في مثلها كل حياتك ياسيدتي

— هل احترق كل شيء ؟

— لا تكترثي بما احترق ياسيدتي فكل ما هو مادي يضمحل احتراقاً أو بلىً . وأما الروحاني فيبقى خالداً على الارض ثم في السماء . فالحمد لله ان كل جوهرك مصون من الاحتراق والبلى

فنظرت فيه نظرة استعطاف وقالت : عفواً سيدي . رأيت كما في حلم اني كنت في حالة مريبة .

— اخزي الشيطان يا سيدتي فهو الذي يدخل الريب الى نفسك . فاذا كان الشيطان قد حاول ان يجرب المسيح أفلا يحاول ان يغالطك في نفسك . ولا يخفى عليك ان ابليس لا يهاجم الا الهياكل المقدسة . فاخزيه

فازداد اضطرابها وقالت : سيدي كيف تطمئن نفسي وقد لاح في نظري اني كنت منذ دقيقتين كالعصفور بين يديك

— ثقي يا سيدتي ان هاتين اليدين لم تكونا يدي حينئذ بل كانتا مستعارتين من أجنحة الملائكة باذن العناية الالهية لكي تصونا طهارتك من غواية ابليس الرجيم .

وقد بدأت الفتاة تطمئن وروعها يسكن فقالت : اذاً تسمح لي ان امضي الآن يا سيدي

— الكون كله لك يا سيدتي . وتمضين الى حيث تريدين . وتكونين حيث تشائين

— اذاً لست أنا أسيرة هنا

فابتسم فريد وقال : لست أنت أسيرة يا سيدتي الا في الكون غير المتناهي لانك لا تستطيعين ان تخرجي منه

ففكرت هنيهة وقد خف اضطرابها ولم تبق الا أواخره ثم قالت : ما أعظم امتناني . . . .

فقاطعها في الحال قائلا . كلانا يا مولاتي عظيما الامتنان اليوم للعناية الالهية

فوجمت الفتاة قليلا ثم قالت : أتؤذن ان أتجاسر عليك بسؤال يا سيدي ؟

فبسط فريد لديها سجفاً من استبشاره ورماها بنظرة من استعطافه وقال : مولاتي اني لاجل أوامرك امتثل لديك الآن . أرجو منك ان تتراحي على المقعد ريثما أتلقى سؤالك . انك واهية القوى فلا تستنفدي قوتك بالوقوف

وبسط فريد يديه ضارعاً لكي تقعد لان ساقيها كانتا تتداعيان تحت هيكلها

الفصل السادس

درس في اللاهوت

فقعدت بعد ان زلزل ذلك الحادث المريع المفاجيء جهازها العصبي وقالت : اني وجلة يا سيدي وأخاف من طول بقائي هنا .

— لا ارجو منك طول البقاء هنا يا مولاتي وانما رجوت منك ان تقعدي ريثما اسمع سؤالك لكيلا يستنفد الوقوف من قوتك ما انت في حاجة اليه الآن . وليس ما يمنعك ان تتركي هذا المكان حين تشائين .

فتململت الفتاة قليلا ثم قالت بتألم : مولاي . لماذا وجدت انا هنا ؟

— اتأسف يا سيدتي ان جواب سؤالك هذا في ضمير القدر الذي افضى بك الى هنا . آه لو يمكن ان يسأل القدر عما يفعل وعما فعل . فان عندي له اسألة كثيرة . ولي عليه مسأوليات جمة

— اعذرني يا مولاي اذا كررت قولي اني مضطربة بسبب وجودي هنا . أود أن أمضي من هنا .

— لا اقدر يا ذات الطهر ان اطمئن نفسك واسكن اضطرابك الا بان اجعلك تتيقن ان المكان الذي اكون فيه ، ايا كان ، يكون معبداً أتعبد فيه لقداسة الله . فاذا حللت فيه اصبح قسما من السماء تتمثل فيه قداسته تعالى . ولكني لا أدري كيف احملك على منحي هذه الثقة . هذا الأمر من المسأوليات الملقاة على عاتق الاقدار يا سيدتي . آه لو تشكى الاقدار وتعاقب

ثم عادت الفتاة تضطرب وتجزع مما يدور في خلدها ونهضت قائلة : ويحي لا استطيع البقاء هنا . اني خائفة

فاضطرب فريد ايضاً وقال : فديتك يا سيدتي . لا تبقي هنا اذا كان في المكان ما يخيفك وانا اجهله وانت لا تنوهين به . ان فؤادي ينهلع اذ احس بخوفك . تفضلي اخرجي الى اطمئنانك

فانتفضت الفتاة ارتياعاً لما كان يتمثل في مخيلتها من الاشباح وترقرق الدمع بين اجفانها وقالت : ويلي ! اخاف من الخروج ايضاً

فارتبك فريد واختلجت جوارحه اذ التبس عليه ما يريبها ويخيفها وظن انها منيت بسرسام على اثر ذعرها من الحريق

وقال : ماذا يخيفك يا مولاتي ؟ المكان امين وفناء المعرض امين ايضاً . وفيك من الطهارة والعفاف وقداسة باريك ، ما يهزم جيشاً عرماً من زبانية الجحيم . هل تأمرين ان اجوس الطريق امامك

فقالت نازفة قليلا : لا . لا . وانما لماذا كان الباب مقفلا ؟

ـ قلت لك يا مولاتي اقفلته لكي يكف تجمهر الناس امامه وتدفقهم الى هذا المكان . وانت لا تجهلين فضول الجمهور وتقحم الغوغاء لاستطلاع الحوادث مهما كانت بسيطة واعتيادية

فاجابت على الفور : ولعلك لا تجهل يا سيدي انهم اذا لم يستطيعوا ان يستطلعوا الحوادث جنحوا الى تفسيرها وتأويلها بحسب الهام شياطينهم . آه ! ليتك لم تقفل الباب بل ليتك تركتهم يرون حقيقة الواقع إن كان الواقع مألوفاً

فانقض هذا الكلام على نفس فريد انقضاض الصاعقة وأغلق على ذكائه . وارتبك لا يدري كيف يعتذر عن هذا الخطأ الذي لم يفطن له ، ولا خطر في باله ان تستعظمه فتاته هكذا استعظام . واطرق كأنه يمهل عاصفة نفسها ريثما تسكن . ثم نظر اليها نظرة استرحام وقال مستلهماً فلسفة الحب : مولاتي أن مثل هذا الخطاء لا يحسب له الغوغاء حساباً . ومع ذلك فقد ابى الله جل وعلا الا ان يتدارك وصمة طهرك بالهام بعض الذين شاهدوا حادث نقلك من حجرتك المحترقة الى هنا ان يقولوا : « هذا اخوها . هذا اخوها ». فثقي يا سيدتي ان الريبة التي لاحت في ضميرك يدسها الشيطان . فاخزيه. انت في نظر من شاهدنا احملك الى هنا ، اختي من لحمي ودمي . وكلهم غرباء . فمضوا ومضى الحادث في غيابات ذكرياتهم من جملة الحوادث التي لا تستحق شأناً في حياتهم .

فظهر الاطمئنان قليلا على الفتاة وقالت : كيف وجدت في تلك اللحظة الحرجة معي ؟ . اين كنت ؟ ان هذا يشغل بالي ايضاً .

فما استوعب فريد هذا السؤال حتى تلاطمت امواج افكاره وذكرياته ونظرياته وقال : ان العناية الالهية اوجدت في تلك اللحظة شخصاً بين الاشخاص الذين تجمعوا عند مشب النار وسمعوا صراخاً داخل حجرة مقفلة . ونفخ الله في قلبه روح النخوة ودفعه الى خلع الباب واقتحام الغرفة التي تلبد فيها الدخان وساعده على خطفك من امام لسان اللهيب قبل ان يندلع . فهل يشغل بالك أن هذا الشخص كان اياي ؟ وهل لو كان سواي لما اشغل بالك ؟

ـ عذراً يا سيدي مهما كان مرمى

سؤالي فلا يغمط شيئاً من فضلك ولا ينقص من قيمة مروءتك . اني اقدر مروءتك قدراً اعظم جداً من ان يبذل لحقيرة مثلي، وانما ارجو ان تصدقني الجواب على سؤالي! هل كانت مروءتك تدفعك لاقتحام الخطر لاجل الانسانية ام لانقاذ شخص معين ؟

فابتسم فريد ابتسامة المستبشر باسترسال الحديث الى حيث ما يرجو ان ينتهي به وقال : ثقي يا سيدتي ان نخوتي كانت تدفعني لكي أخدم الانسانية وأنال من يدها وسام استحقاق اعترافاً بحسن عملي.

فلما رأيت ان القدر العجيب المتلاعب بحظوظ الناس يدهشني بنعمة ما كانت مخيلتي تتجاسر ان تتخيلها ، سقط حقي بذلك الوسام ، بل أصبحت مديناً للانسانية لاستخدامها القدر في اسداء تلك النعمة لي .

فاطرقت الفتاة حياء وكادت تبتسم لولا ان أمواج الروع لم تزل تلاطم فؤادها ثم قالت : اذاً ، لم تكن تعلم من كان في الحجرة المحترقة

ـ في هذه الغرفة فقط علمت ياسيدتي وعلمت كثيراً

فاختلجت الفتاة وقالت : ربي . الهي : ماذا علمت يا سيدي ؟

ـ علمت يا سيدتي ما لا يستطيع ان يعلمه الراسخون بالعلم .

فانتفضت الفتاة جازعة لهذا الجواب . وقالت : بربك ماذا علمت ؟

ـ لا تخافي يا سيدتي مما علمت . ان ما علمته يتمنى ان يعلمه كل أهل الصلاح . تتغنى به الملائكة . يباركه الله

فازدادت الفتاة خجلا واضطراباً وقالت بصوت خافت : بربك طمئن نفسي . ماذا علمت ؟ كلمني بصراحة . ماذا عرفت من أمر الفتاة التي بذلت مروءتك لانقاذها

ـ أجل علمت يا سيدتي ان الانسان اذا وثق بالله وطلب منه استجابه . وعلمت ان النعمة التي كنت أتوسل الى الله ان يمنحها قد منحها مضاعفة .

ـ مولاي . لست في درجة من الذكاء بحيث أفهم الرموز . فتكلم بصراحة القول ماذا فهمت عني ؟

ـ مولاتي . لم أفهم عنك اكثر مما فهمته من قبل . ولا يهمني ان افهم عنك غير ما فهمت، فهو كاف لان يملأ وجداني. وانما في هذه الغرفة علمت اني كنت أحمل على ذراعي تمثال قداسة الله . أقليل ان أفاجأ بهذا العلم . وعلمت أيضاً اني كنت أحتضن الكون كله . وعلمت كيف يتكتل الاثير . وفهمت كيف تكون الروح بلا

وزن ولا ثقل . وفهمت كيف يكون القلب دليلا في بيداء الحب . أقليل هذا الذي فهمته ؟ انما هو كتاب فلسفة اللاهوت؟

فاطرقت الفتاة وهي تختلج كمن أصيب « بالبردية » ثم قالت مغمغمة ، ويلتاه رباه اني أثيمة . انما كان الاحق باختطافي ذراعي اللهيب ، والاولى باحتضاني صدر الدخان ، والاجدر بحملي الريح مذكية الوطيس ؟

فارتعد فريد لهذا التأنيب الاليم ، وشعر كان كل حرف منه كان نصلا يغمد في فؤاده وقال ضارعاً : سيدتي : انك تفتئتين على العناية الالهية وتنكرين عليها صواب تدبيرها في وقاية الطهارة وصيانة القداسة . هل تظنين يا مولاتي ان هذه العناية العجيبة انقذتك من نار الانسان لكي تلقيك في نار الشيطان .

فرفعت نظرها فيه وقالت : لم يكن اقفال الباب يا سيدي ليحجب عن عيون الظانين نكراً يرونه بظنون عيونهم كما يرونه بعيون ظنونهم . فسيان اقفلت أو فتحت ، لقد وقع النكر

فانتفض فريد انتفاضة الطير المذبوح وقال مسترحماً : مولاتي ! أتعدين جعل هاتين الذراعين صقالة وقتية لهذ الهيكل نكراً ؟ هذا كل ما وقع . ولو بقي الباب مفتوحاً لما رأى الظانون أمراً آخر . وباقفال الباب قطعت دابر ظنونهم كما قطعت حبال أبصارهم . فما شاهد هذا الذي تحسبينه نكراً الا العناية الالهية

— وعين اخرى يا سيدي

— اجل ان عيني شاهدان عدلان ياسيدتي وهما تشهدان ، والله لا يغفر شهادة الزور ، ان ذراعي كانت تدب فيهما قوة الله القدوسة ، وان صدري كانت ترفرف فيه ارواح الملائكة

— ولماذا لم القى على هذا المقعد الانيق يا سيدي ؟ انه لافضل ما يليق متكأ ريثما يعود لي صوابي من منفى غيبوبتي

فتململ فريد وقال : لقد اسرفت يا مولاتي في الحذر من مقتضيات القدر ، وفي الشك من تدابير العناية ، وفي تجاهل اللائقات السماوية والنواميس الروحانية . ان مقعداً مادياً كهذا لا يحتمل وقار الجلالة ، ولا يستوعب فيضان البهاء ، ولا بضبط حدود الذاتية الروحية . فكيف يمكن ان اجعله مرتكز الكون ، ومقام وقاره ، واناء انواره ، وبماذا اعتذر يوم الحساب للديان الذي خلق لحمل هذه الذاتية الروحانية هذين الجناحين الملائكيين اللذين يحيطان بدائرة الوجود ، وهذا الصدر الذي يسع اثير الفضاء ، وجعل هذا الفؤاد عرشاً لها يسبح في هذا الاثير

وكانت الفتاة تترنح وهناً ووني وهي

تسمع هذا التسبيح فعقب فريد تسبيحه بالرجاء قائلا : اتضرع اليك ياسيدتي ان تقعدي ليرتاح جسمك فما هو أقوى من المقعد لحمل وقار الجلالة

وبالغ في الضراعة باسطاً ذراعيه فقعدت وهي تقول : يلوح لي ياسيدي انك تعرفني من قبل . وانا لا ادري اتا تعارفنا

فهش فريد اذ انقشعت عن صدره ظلمات نفارها وقال متمادياً في الابتسام : اجل مولاتي اني اياك اعرف جيداً . فكل ذرة من كيانك محصاة في سجل حياتي

— عجبا يامولاي . لا اعرف اتا اجتمعنا قبل الآن أو تكلمنا أو حدث بيننا أي اتصال لامباشرة ولا بالواسطة

فضحك فريد ملء ثغره ضحكة الابتهاج وقال : لاشأن لوسائط الاتصال في العالم الروحاني ياسيدتي . في ذلك العالم لاداعي للقاء ولالزوم لاسلاك الكهرباء ولا حاجة الى ومضاته اللاسلكية حتى ولا للاتصال الاثيري فان للارواح بحراً اللطف من بحر الاثير ، تسبح فيه متصاحبة متعانقة . فاذا تجردت في تصوفي من هذا العالم المادي اصبحت في ذلك البحر الاعم الالطف . وهناك تستطيع روحي ان ترسم على شبكية عيني كل خط او قوس من هندسة قوامك وكل نقطة من نقط ملامحك وكل ومضة من ومضات بهائك . وتستطيع ان تقرع عصب اذني بكل نغمة من نبرات صوتك ، وان تستدني الى اغشية انفي كل نسمة عاطرة من انفاسك . بل تستطيع اعظم من ذلك — تستطيع ان توقع في بهو مخيلتي كل خطرة من خطرات افكارك وترسم على جدرانه رسوم تصوراتك .

فكل موجة اثيرية من أمواج حركاتك ترسم على سجوف مخيلتي . فلو شئت ان تستعيدي تاريخ ماضيك وحاضرك ومستقبلك جلياً فما عليك الا ان تفتحي نافذة نفسي وتطلي على ذلك البهو المحجوب فترى صور ذلك التاريخ ممر لدى بصرك . فكيف لا اعرفك ؟ وكيف لم تجتمع وانت جوهراً وعرضاً قائمة في خزانة ضميري وفي كل لحظة اسمع وقع قدميك وهبات انفاسك واحس حركاتك وخطراتك ونبضات قلبك وحرارة تيار دمك واشهد ابتساماتك وتأملاتك وعبادتك . وكيف لا اتصال بيننا وروحي حائمة على الدوام في ذلك العالم العقلي الذي يطوف طيفك فيه وهي في كل يوم تناجيك وتستمتع بعذب حديثك

وكانت الفتاة لاتزال مطرقة وهي بين متنازعين : حياء النفس وجرأة القلب . وبعد سكوت هنيهة قالت : انك يامولاي تشرح اتصالك بمثلك الاعلى . فمثلك الاعلى تناجي وحركات مثلك الاعلى وخطراته ووقع أقدامه تسمع ، وانفاس مثلك الاعلى تستنشق . فهنيئاً لمثلك الأعلى ، وطوبى لروحه السماوية ونعما لجمال طيفه . كفى ياسيدي ان تستعير من

سذاجتي الآن تمثالا مجسداً لذلك الطيف لئلا تنقاص عظمة مثلك الاعلى ، ويصدمك الفشل حين لاترى هذا التمثال كذاك الخيال وتملك الخيبة حين تتحقق خداع المخيلة . اني اشفق ياسيدي ان تتسرع في الاهتداء الى مثلك الاعلى . فصبراً الى ان تصادف الحقيقة التي هي قالب الخيال . وحاشا ان اجحد جميلك الذي اسديته اليوم بغرور صوتي الذي يثيره تمجيدك لمثلك الاعلى الآن

فتهلل محيا فريد اذ وقع هذا الجواب عنده موقع فاتحة الخطاب الصريح وقال . سيدتي : نظرة الى هذه الصورة المعلقة في الحائط عن يمينك وثم تتحققين بلاريب ان مخيلتي لم تخدعني ، وان هذه الحقيقة التي أسعد الآن بلقائها هي القالب الحقيقي لخيالي . وان مثلي الاعلى قد تعاظم جدا اليوم حتى لم تعد مخيلتي على اتساعها تستطيع ان تشتمله .

بربك . تاملي هذه الصورة التي رسمتها يد الحب وقد اخذت الريشة لصنعها من جانح الملاك والوانها من ازاهر الفردوس . انما هي نسخة من ملايين نسخ الصور المطبوعة على لوحات مخيلتي . ما انا ياسيدتي بالفنان البارع ، وما التصوير حرفتي ، وانما طيفك حببني بهذا الفن الجميل والهمني البراعة فيه . ثقي ان لا اصل لهذه الصورة الا نظرات معدودة في حقيقتك جادت بها الاقدار الكريمة في هذا الربيع

وكانت الفتاة تنظر في الصورة تارة ثم تغضي نظرها اخرى . وبعد سكوت هنيهة قالت : انه ليدهشني ياسيدي ان يكون شخصي قد شغل حيزاً من فكرك في حين اعتقادي اني لست الا ذرة موهومة في الوجود . لذلك اثق ان هذه الصورة لاتمثل الا غلافاً لمثلك الاعلى تمثيلا مصادفة . . .

فناظرها فريد قائلا : لك باسيدتي ان تعتقدي ماتشائين فان اعتقادك لاقيد له في سجل نفسي ولاسبيل لتطرقه اليه . وبالتالي لايقلقل حجراً من إيماني

فقالت متجرئة : حقاً اني لا استطيع ان امد اصبعاً ليقينك . وانما لي رجاء فعسى الا تخيبه

ـ منذ فاتحة الحديث اعلنت لك ياسيدتي انك قبلي صاحبة الامر والنهي

— شكراً . لارجاء لي الا ان تحرق هذه الصورة . واظنك تخولني حقاً بهذا الرجاء .

فبهت فريد . ولكنه مالبث ان شعر باحقية هذا الرجاء فقال : لك ان تفعلي بهذه الصورة ماتشائين منذ الآن

— كلا . لست افعل بها شيئاً لانها ليست ملكي وانما اذا كنت تتكرم باجابة رجائي تحرقها انت

— احرقها

— ولا تصنع غيرها مثلها

فانصدم قلب فؤاد صدمة كاد قلب الفتاة نفسها يرتج بها أيضاً . واجاب: سمعاً وطاعة ياسيدتي : وهل يشمل ايضاً امرك احراق النسخ التي في المخيلة ايضاً .

— كلا . معاذ الله ان يمتد رجائي الى ماوراء المادة حيث لاحول لي ولاقوة

— اجل ولا لعبدك حول هناك اوقوة وانما اود ان اعلم هل يغضبك ان تطبع هذه الصورة في صفحات مخيلتي نسخاً لاعداد لها ؟

— لا

فتنهد فريد الصعداء كأنّ كابوس الشك قد انزاح عن صدره وقال : شكراً لك ياسيدتي .وهل تحرمين علي النجوى والتأمل في مثلي الاعلى

فومضت ومضة ابتسامة خفيفة لمعت في نفس فريد كانها الشهاب الثاقب .وقالت : عذراً ياسيدي لا اظنك تستحل ان تحماني من مسأوليات الاجوبة اكثر مما استطيع

— عفواً : عفواً . ياسيدتي . فهمت فهمت . وقد جرت عليك بالسؤال . فتوبة واستغفاراً . لن اسأل وانما لا اظنك تحرمين عليّ القول الصريح انه يسوغ لي ان استمر في تصوفي وتعبدي لمثلي الاعلى الى ان يحين تنفيذ القضاء الالهي الازلي .

عند ذلك نهضت الفتاة كانها تخاف الاسترسال بالصراحة وقالت : ويلي . لقد نسيت ان للزمان ماضياً وحاضراً ومستقبلا . ويحي كم امضيت من الوقت هنا ؟ يجب ان امضي . فاسمح لي بالمضي

فبسط فريد ذراعيه كانه يقول لها الامر امرك . ولكن فؤاده كان «يفرفر» في صدره كالعصفور الذي في قفصه يبحث عن منفذ يخرج منه .

ويحه ! اتخرج الفتاة من غير موعد بلقاء آخر يصدر فيه الوعد ويعقد العهد . لايثق فريد بمصادفات الاقدار اكثر مما يثق المغامر « بالنصيب » يختته . اذا افترقا على غير موعد كان «وعد ابليس بالجنة» اصدق من وعد الامل باللقاء. كاد قلبه يطير شعاعاً حين قالت « وداعاً »من غير ان تمد له يد الوداع فقال : هل تامرين ان اخفرك الى . . .

— شكراً . كلا . بل ارجو منك ان لاتخرج من هذه الحجرة قبل ان اتوارى عن هذه الناحية

— سمعاً وطاعة .هذا حكم قاس ياسيدتي ولكن قساوتك حق .

— وارجو ايضاً الا يعرف احد غير الله بلقائنا هذا

— سمعاً وطاعة وهذا حكم عادل ياسيدتي وعدالتك رحمة

— وارجو ايضاً الا تراقب ذهابي وايابي

فصرخ فريد : وهذا حكم بالاعدام . بيد ان الحكم بالموت من بين شفتيك حياة أبدية . سمعاً وطاعة

ووقع جاثياً لدي المقعد ورأسه بين كفيه وهما عليه كأنه يقبله ويغسله بدموعه. ولم يعد يلتفت الى الفتاة ولكن خامره الظن أنها بقيت بعض الدقيقة تنظر الى حالته التعسة راثية لها

فاشتد فؤاده خفقاناً كأنه يستفيت فصاح به ضميره : لقد صدرت الاحكام المقدسة فعليك بالخضوع

ثم رفع نظره فاذا الغرفة خالية من البهاء الذي كان يملاها فصاح فؤاده : « ويك . قم اتبعها وتزود ما استطعت من مشاهدة ذلك الجلال ». فصاح به ضميره : « خزياً . لقد وعدت بالطاعة ». فصرخ الفؤاد: « اتبعها من بعيد فلا تدرى بعصيانك » . فصاح الضمير « أما أنا فأدري . حاذر أن تخرج من الحجرة والا وصمتك بوصمة الخيانة »

ثم طاف فريد بنظره في الحجرة كأنه يتبين طيفها ماثلاً فوقع نظره على الصورة فقال : أمرت مريم باحراقها فلتحرق

وتناول الصورة من الحائط وحطمها ثم أشعلها وهو ينظر الى اللهيب يلتهمها الى ان أصبحت رماداً فقال : لقد تنفذت كل احكامك يامريم من غير ان تحضري تنفيذها

هكذا يعلم الحب الانسان الصدق والامانة والوفاء . فالفضيلة ربيبة الحب . والذين يحبون الله خالقهم يحفظون وصاياه ويعملون باوامره ونواهيه في السر كما في العلانية

وعاد فريد في ذلك المساء الى منزله كأنه عائد من زيارة الفردوس وهو يؤمل ان الله ينعم عليه بزيارة اخرى جزاء أمانته ووفائه. وكان يستعيد في خلوته سنا حوادث ذلك النهار وأحاديثه كمن يراجع حسابه فيجد نفسه رابحاً. وكان يفسر كلام فتاته مستفيداً منه رضاها وعطفها فتبتهج نفسه

تغيرت أخلاق فريد في البيت حتى استغربت أمه ومرضعته سكون ثورة نفسه وظنتا انه أخذ يشفى من داء حبه . وما علمتا ان العاصفة يعقبها النسيم العليل

الفصل السابع

فلسفة فؤاد

ما انقضى نحو أسبوع حتى جاءت الراهبة أنستاسيا الى بيت المرحوم خليل الرحابي وأبلغت فريد ان الام أغناتيا تدعوه لمقابلتها في الدير لاجل اصلاح صورة السيدة. وعينت موعداً لاستقباله الساعة الخامسة بعد ظهر غد. فقال لها : انه يعد الامتثال لديها غداً أسعد ساعة في حياته

ولكنه ساءل نفسه : هل تعني هذه

الراهبة انها تبر بوعدها وتقرر موعداً وترتيباً للاجتماع بالفتاة ؟ لقد أصبحت في غنى عن برها. لا يمكنها ان تتيح لي لقاء كلقاء الامس. أني اعفيها من تكلف أمر تحسبه متعذراً. لي أمل بالمقادير اكثر منها. ان الاقدار تفعل مالا تستطيعه الانام

في الساعة الخامسة من اليوم التالي كان فريد يقرع جرس بوابة الدير فاذا أنستاسيا تفتحها. ثم مشت أمامه الى غرفة مقابلة الزوار. فلما دخل بغت اذ رأى لدى الام أغناتيا فتاته وفتاة أخرى. فابتسمت له الام أغناتيا وقالت معرفة له بالفتاتين « حضرته الامير فريد الرحابي » ثم أشارت الى الفتاة الاخرى وقالت : « حضرتها الآنسة وداد كريمة د . س . باشا » وأشارت الى فتاة فريد وقالت : « حضرتها الآنسة مريم نعمة الله . » وكانت كل من الفتاتين تمديدها للمصافحة حين التعريف حسب قواعد الآداب. وفريد يصافحهما مختاجاً. ولم يخف ذهوله على الام أغناتيا ولا على فتاته مريم نعمة الله التي كان يظنها بنت د . س . باشا ولكنه خفي على وداد بنت الباشا لانها خالية الذهن مما كان يجول في ضمائر الثلاثة الآخرين

وما قعد فريد على المقعد حتى تداركت الام أغناتيا ذهوله بقولها : ان الامير فريداً من هواة التصوير ....

فقاطعها فريد قائلا : قل من يعرف لنا لقب الامارة ياسيدتي الام المحترمة لانه لقب قديم للاسرة يوم كان أجدادنا حكاماً في غير هذا القطر. أما الآن فقد اغفلنا هذا اللقب لان زمن الامارات انقضى. فارجو من سيادتك ان تغفليه

فعادت الام أغناتيا الى حديثها قائلة. ان فريد أفندي من هواة التصوير. وقد شاهدت بعض صوره فاذا هي كصورة كبار الفنانين واستدعيته لكي يصلح هذه الصورة التي شوهها لهيب الشمعة.

وتناولت صورة صغيرة من عن يمينها وقدمتها اليه قائلة : هل يمكنك ان تعيدها الى أصلها يا فريد أفندي ؟

فتأملها فريد قليلا وقال : أظنني أستطيع ذلك فان لم يعجبك اصلاحها فاصور غيرها — شكراً لك

فقالت وداد بنت الباشا : اذا جاءت الصورة متقنة فاكلف فريد أفندي أن يصورني. يا ترى كم تساوي صورة متوسطة الحجم

فقال فريد: ليس التصوير حرفتي ياسيدتي فحسبي ثمناً للصورة ان تعجبك. فمتى شئت فاني تحت أمرك

فابتسمت وداد ملء فمها وقالت : ميل مارسي (الف شكر)

ثم جرى حديث الصور والتصوير بين وداد والام اغناتيا. فكانت وداد تصف جمال الصور التي في بيتها. وأما فريد فلم يتكلم

الا بضع كلمات وأما مريم نعمة الله فكانت كل الوقت صامتة وما تلاقت عينا فريد وعيناها الا مرتين . من يدري ماذا جال بينهما ؟

وكان فريد يشعر أن مقعده قلق به لان الكروبيم والشاروبيم يحرسان الفردوس فاستأذن وأخذ الصورة وانصرف

***

بعد بضعة أيام جاء فريد الى الام أغناتيا في ديرها بالصورة مصلحة وبصورة أخرى فلما رأتهما دهشت من اتقانهما وسألته : أيتهما هي الصورة القديمة والصورة الجديدة؟ لا أرى بينهما فرقاً البتة

فابتسم فريد وقال : إسلوب التقريظ هذا لأجل من التصوير . أشكر رضاءك ياسيدتي .

ثم قالت مهامسة : لقد برّت بوعدي فارجو الا تطلب مني وعداً آخر . ها قد عرفت الفتاة . فما بقي الا ان توسط شخصاً أهلا لمقابلة أبيها الباشا . ولي الامل ان الوسيط ينجح في استرضائه . وانصح لك الاّ تتعرض بعد الآن للفتاة في الطريق فانها ليست ممن يرضون عن هذا الاسلوب بتاتاً

وكان فريد مستغرقاً في التفكير كأن تلك المفاجأة المعكوسة في اللقاء الماضي تمر في مخيلته ببطء . وبعد صمت هنيهة سأل : هل عرفت الآنسة وداد شيئاً من أمري ؟

— لم أقل لها شيئاً البتة

— ولا سألتها في شيء ؟

— كلا البتة

— حمداً لله

— له الحمد على كل حال . لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— لاني لاأريد ان اخاطب أباها بهذا الشأن بتاتاً

— عجباً . هل تغير فكرك ؟

فبقي فريد صامتاً . وبعد هنيهة سألته ثانية . أما أعجبك حديثها ؟

فبقي فريد صامتاً . فعادت وسألت : بماذا تفكر ؟

— أفكر في ماذا يكون الامر لو اتبعت نصيحتك وخاطبت الباشا قبل ان أتعرف الفتاة . لاريب انني أقع في مازق أسوأ من الفضيحة

— عجباً يظهر ان مقابلتك للفتاة غيرت أفكارك

وبقي فريد صامتاً كأنه يخشى مغبة الاسترسال بالحديث . ولكنه لايستطيع ان يطوي حديثاً لابد من الخوض فيه . فسألها : لم تعرفيني بالفتاة الاخرى كما عرفتني بنت الباشا

— كيف ذلك ؟

— لم تقولي لي بنت من هي ؟

فتجهمت الام أغناتيا وقالت : اعتقدت ان الفتاة الاخرى لاتهمك . وما كان تعريفي لك بها الا من واجب اللياقة وتحاميا للظنان

— ليس الآن من داع لتحامي الظنون فهل يمكنك ان تقولي لي بنت من هي ؟

فتململت أغناتيا ثم سألت : هل يهمك أمرها :

— نعم . فان كان لا يضيرك ان تخبريني من هم أهلها فأرجو ان تخبريني

— ليس في الاخبار ضير . هي بنت هذا الدير وربيبة هذا الدير

فرفع فريد نظره في الراهبة وقال : تعنين ؟

— أعني انها يتيمة الابوين منذ الطفولة. وقد احتضنتها وعنيت بتربيتها الى اليوم . فهي بنتي الروحية

ـ اذا هي تقيم في هذا الدير ؟

ـ طبعاً . لا بيت لها غيره

ـ هل تعدينها للرهبنة ؟

ـ لست أنا بل الله يا عزيزي يعد الناس المختارين للرهبنة

ـ اذاً أيمكن ان لا تترهب ؟

ـ هذا في علم الله وفي ضميرها

وبقي فريد صامتاً فعادت تخاطبه : يلوح لي ان مريم حلت محلا ثانياً من نفسك يا بني

فرفع فريد نظره في الراهبة وقال : بل حلت المحل الاول والآخر ياسيدتي .

فاظهرت الراهبة دهشة وقالت : عجباً . ووداد ؟

— لم أرها غير تلك المرة هنا

فابتسمت الام أغناتيا وقالت : ويك أتنكر الآن انك كنت ترقبها في ذهابها وايابها.

ـ لست أنكر يا سيدتي بل أقول لك الحقيقة ان مريم كنت أراقب ومريم أحببت أولا وأحب آخراً . فاذا كانت تنوي الرهبنة فبربك ابلغيها ان قلبي ديرها . فان لم تقبل به ديراً فاني انتظم في سلك الرهبنة أنا أيضاً لكي تقترن عبادتي بعبادتها . وحسبي هذا قرانا بها .

فاغرقت الام أغناتيا في اظهار البهتة وبقيت هنيهة ساكتة ثم قالت : اذا لا تبتغي بنت د. س باشا :

— كلا كلا يا مولاتي . لست بنت باشا أو بنت وزير أو بنت ملك ابتغي بل ابتغي بنت عالم الغيب التي قضى الله منذ الازل ان تكون شغاف قلبي . لست ابتغي وجيهة بل حبيبة .

فبقيت تبدي البهتة والاستغراب الى ان قالت : هل تؤكد يا عزيزي انك لم تحب وداداً قبل ان احببت مريم ؟

فقال فريد متمرمراً : يلوح لي ياسيدتي انك لم تستوعبي كلامي جيداً او انك لا تصدقينه . فمني اني لم ابصر وداداً الا في اجتماع امس عندك فليست هي الفتاة التي كنت اراها في الطريق بين هذا الدير وبين بيت د . س . باشا وهذا ما حملني على الظن ان مريم هي بنت الباشا . والآن استغرب

كيف انها كانت تدخل الى ذلك البيت ولا تخرج منه .

فقالت الام اغناتيا . كانت في تلك الاثناء تذهب الى بيت الباشا لانهم كانوا يحتاجون الى اشغال وشي وتطريز فنية لا تحسنها الانسة وداد . مع انها تعلمتها عندنا وقد أولعت بفن الوشي والتطريز ولها فيه تحف . ولذلك كانت مريم تقضي معظم النهار في بيت الباشا وأحياناً كانت تبيت هناك لان أسرة الباشا نبيلة والبيت شريف مصون وبين وداد ومريم مودة منذ أيام المدرسة

فقال فريد : اذاً لقد فسرت لنفسك يا سيدتي سبب خطاء المقادير في حملي على الظن ان مريم بنت د . س . باشا

— أو لا تريد ان تصلح هذا الخطاء الآن ؟

— كيف أستطيع اصلاحه . ليس في وسعي يا سيدتي ان اجعل مريم بنت الباشا د . س

فابتسمت الرئيسة وقالت : طبعاً . لا . ولكن في وسعك ان تجعل وداد بنت الباشا مريمك

فضحك فريد ملء فمه وقال : يلوح لي يا سيدتي انك الى الان لم تفهمي جيداً فلسفة فؤادي . ثقي ان جعل مريم بنتاً للباشا د . س . اسهل جداً من جعل وداد مريمي . لا يمكن ان تكون مريمي غير مريم نعمة الله ربيبة الام أغناتيا لان هذا ما كتب في سفر القضاء الازلي الالهي . ولا يمكن ان تكون بنت باشا أو بنت وزير أو بنت أمير مريماً لي . فهل فهمت يا سيدتي جيداً

فتبسمت الام أغناتيا واذبلت طرفيها ثم قالت أرجو منك يا عزيزي ان تتمهل في اصدار قرارك بعد ان بدا من الحوادث ما غير ظنونك مما قد يعدل افكارك

— فاعتدل فريد في مقعده وقال : لا لا لم يغير اجتماع امس في هذه الحجرة شيئاً من أفكاري . فقد كنت اعتقد ان مريم هي الشطرة النقية من روحي . واجتماع امس أيد لي هذا الاعتقاد فقد رأيت فيه مريم نفسها التي كنت أراها في الطريق، ومريم التي كانت روحي تناجيها حين كنت أتصوف في خلواتي، ومريم التي كنت أتوسل اليك ان تعرفيني بها . فما تغير عندي شيء

فابتسمت الام أغناتيا وقالت : ولكنك كنت تظنها بنت باشا ، وقد خاب ظنك

— اني أحمد الله انها ليست بنت باشا يا سيدتي، بل هي روح لطيفة مجردة عن اثقال المادة الدنيوية

— صدقت . نحن في عصر ديموقراطي لا قيمة كبيرة فيه للمظاهر والفخفخات الفارغة

— لا يا سيدتي لم أنظر الى المسألة من هذه الوجهة العالمية بل انظر اليها من الوجهة الروحية التي تقوم على قواعد الاريستوقراطية

ولا دخل للسنن الديموقراطية فيها . فروح مريم في عالم الارواح من الطبقة النبيلة التي تسمو جداً على روح وداد بنت الباشا . وثقي ان حصولي على يد وداد أسهل ألف مرة من حصولي على يد مريم باستحقاق . لكي أستحق مريم يجب ان اتصوف كل حياتي لكي تطهر نفسي من ادران هذا العالم وتصلح هيكلا لاحتلال روح مريم فيه.

ففكرت اغناتيا هنيهة ثم قالت بجد : دعنا الان من هذه التصورات الشعرية ....

فقاطعها فريد قائلا : ماهي بتصورات شعرية ياسيدتي انما هي لغة روحانية

— حسناً دع اللغة الروحانية الآن جانباً ولنعد الى لغة البشر اذ لا نستطيع ونحن على الارض ان نتجرد من تقاليد البشر وعاداتهم . فانت من أسرة نبيلة وفي بيئة نبيلة . والانسان متغير دائماً تبعاً لعوامل الزمان والمكان . فقد يأتيك دور تجد فيه هذه المحبة متلاشية كتلاشي اللهيب في آخر الحريق . لذلك انصحك ان تتريث في اصدار قرارك بشأن مريم

فتململ فريد وتمرمر ونشط كانه يقدم على معركة وقال : ان الحب يسحق التقاليد والعادات بنعليه ياسيدتي . الحب شيء خالد لا شأن فيه للماضي والحاضر والمستقبل ولا يقع تحت تأثيرات العوامل الزمانية والمكانية

فقاطعته قائلة : لا افهم هذه الفلسفة التي ينحصر عملها في شأنك وحدك . ولكنك لست مستقلا حتى بحبك . انت مقيد بغيرك .

— لا لا ياسيدتي لست مقيداً الا بارادة شخص واحد فقط ...

— من

— مريم ... وارادتك أيضاً ياسيدتي اذا كان لابد من التقيد بشيء من العاليات. اما انا فلا شأن لي بتاتاً . الفتاة في سن الرشد ولها وحدها حق التصرف بشؤونها الخاصة ولاسيما في أمر حيوي كهذا . وجل مالها علي حق النصح والمشورة فقط .

فتنهد فريد الصعداء وقال في نفسه: الحمد لله . لقد بان سهلا ما ظننته الآن عقبة كؤود. ثم وجه الخطاب لها : وهل فاوضت مريم في الامر ياسيدتي ؟

فاجابت بصيغة النفي الجازم : لا لا . ابداً ولا أفاوضها بموضوع كهذا .

فتلمظ فريد الخطاب قائلا: اذاً لا تستكرين ان اسعى الى مفاوضتها

كلا كلا ياعزيزي . لا سمح لك بمفاوضتها بموضوع دقيق خطر كهذا . فما تربت على ان تسمع احاديث غرام دنسة .

— اني انزه لساني وفكري عن أي حديث دنس مع مريم ومع غيرها لئلا يتدنس الهيكل الذي اعددته لاقامتها .

— لا لا . ياعزيزي . لا أرضى قط عن ان تتصل بها بحديث البتة . لها ان تخرج من تحت طاعتي وتفعل بعد ذلك ماتشاء

مع كل هذا النفور وهذه المخاشنة كان فؤاد فريد يرتص طرباً لانه يرى الطريق أمامه ممهداً سهلا واسعاً . فقال باسما : لاتخرج من تحت طاعتك . وأنا أيضاً اندمج مع اتباعك تحت لواء سلطانك . فلا اظنك تستنكرين ان أتوسط شخصاً لديها

فاستمرت الام اغناتيا في نزقها وقالت : بلى استنكر جداً أن تتعرض للفتاة بواسطة أو بنظرة قبل ان تأخذ المواثيق والعهود على أهلك وكل من له أقل سلطة أو دالة عليك انهم راضون كل الرضى عن زواجك الشرعي العلني بفتاة لاتعرف ابوبها

فتجهم فريد وقال : ليس لي أهل ولا لاحد سلطة أو دالة علي البتة . فانا وحدي المسيطر على نفسي وأنا وحدي أبرم وانقض في شؤوني

— أمك عمك

— امي ليس لها في سوى فلذة لحم . وعمي ليس له في سوى قطرة دم وقد رددتهما لها من الطاعة والوفاء أضعافاً . أما روحي فهي من الله ولله وحده حق الامر والنهى فيها . وقد أمر بتكريسها هيكلا لاقنوم مريم . فاذا كنت حضرتك تقومين عقبة في السبيل فكانك تقاومين أمر الله

فقالت الراهبة : اذا كنت تريد ان تقترن بمريم روحياً فقط فلا حاجة لاستشاره أحد حتى ولا مريم نفسها . يكفي ان تستمر بتصوفك وتقرن روحك بطيف روح مريم . وأما اذا كنت تبتغي زواجاً عالمياً شرعياً فيجب ان تأخذ عهداً برضى امك وعمك والا فاني أحول دونك ودون الفتاة بكل مالي من قوة ونفوذ ودالة عليها .

شعر فريد ان التمادي في المناقشة على هذا النحو مع الام اغناتيا قد يفضي الى تماديها في العناد فيصعب المسألة في حين انها أصبحت سهلة . ولذلك رأى ان يوسع صدره ويستدرك عناد الرئيسة بشيء من الحلم فابتسم وقال : كل هذا سهل ياسيدتي . يكفيني نجاحاً ان تكوني انت راضية ولا أود ان أخرج من هنا الا حاصلا على نعمة رضاك

ونهض وبسط يده الى يدها فمدت يدها لمصافحته فقبض عليها وقال : اظنك لاتبخلين بقبلة احترام لهذه اليد الطاهرة الكريمة

فخطفت كفها من كفه وقالت : لا — لا فماجرت لي هذه العادة

— بصفة استثنائية

— لا استثناء عندي لقاعدة ياعزيزي

— وداعاً الى ملتقى آخر

— أجل . كم قيمة الصور

— ماعنيت بالملتقى الآخر شيئاً من

هذا . ان رضاءك أعظم أجر . وداعاً
— وداعاً

* * *

ومضى وهو يطفر فرحاً وبقيت وهي تتخيل المعارك القادمة التي كانت تعبىء لها جيوش دهائها

راح فريد وهو يرسم في ذهنه خططاً مختلفة ويزن بينها ولكنه لا يدري أيها أصوب وأقرب الى النجاح ، كان من أرجح الخطط عنده ان ينشيء علاقة أشغال بين مرضعته نجلاء مزهر والام أغناتيا. لان نجلاء كانت تتداخل مع بعض العائلات بسبب أشغال خياطة فلا يندر ان يكون لبعض العائلات حاجة لوشي وتطريز . فذهب الى نجلاء وأخبرها بموجز ما حدث وما اكتشف من أمر الفتاة ومن انها يتيمة ربيبة الدير لا تعرف أبويها والخ .

فاعترضت نجلاء وأبدت له اعتقادها فيما سيصادفه من العقبات من قبل امه وعمه . فرد عليها قائلا ان هذه العقبات تضمحل حالما يملك رضى الفتاة . فهمه الوحيد الاتصال بالفتاة والتفاهم معها . وبسط لنجلاء رأيه في ان تمهد السبيل لذلك بعلاقة شغل مع الرئيسة ولم يفكر بتفاصيل الوسائل حسب مقتضي الحال . فلبت نجلا اقتراحه ووعدت ان تبذل كل ما لها من جهد وحيلة ووسيلة . وكان هو على أمل بنجاح نجلاء لما يعهده من ذكائها ودهائها وخفة روحها

وطفقت نجلاء تتداخل مع العائلات التي تبتغي أشغالا منزلية فنية وتتعهد بتقديم الشغل وتأخذه من أشغال مدرسة الام اغناتيا . فما مضت أسابيع معدودة حتى صارت العلاقة بينها وبين الرئيسة كعلاقة صداقة صميمة . وقد وجد فريد ان هذه الخطة انجح مئة ضعف مما كان يتصور . ورأى ان الصعوبات التي كان يتخيلها لم تكن الاظلال عقبات انبسطت غرباً حينما كانت الشمس تطلع من الشرق . فكانت ترى طويلة ولكن كلما تكبدت الشمس قبة السماء تقلصت تلك الظلال .

ما انقضت بعض الاسابيع حتى صارت مريم تزور نجلاء لكي تكون صلة بينها وبين أسرات عالية تحتاج الى أشغال نفيسة . وأحياناً كان يعمل الشغل في منزل نجلاء نفسها . فتقضي مريم معظم نهارها عند نجلاء ، وفريد لا يفارق الدار متى كان الحبيب ديارا

كان فريد يندهش لهذه النتيجة السريعة لخطته ولمساعي نجلاء ويستغرب تساهل الام أغناتيا في السماح لمريم ان تتردد على نجلاء وهي تعلم ان منزل نجلاء انما هو منزل فريد الثاني أيضاً

حقاً هذا أمر يحير القارىء كما حير فريد ونجلاء ولا يمكن ان يعهد بتفسيره لاحد سوى الحوادث . فلطالما كانت الحوادث مفسرة بعضها بعضاً . ولا يمكن ان يعرف القارىء الآن سوى ان مريم كانت تجتمع كثيراً بفريد

في بيت نجلاء مرضعته . وكان بيت نجلاء معترك الاحداق والمهج ساعات في الاسبوع. وكان ذلك الحب الذي نشأ روحانياً لا يزال يحلق في سماء الارواح . ولو كان المقام فسيحاً لكنا نبسط للقارىء نماذج من المحاورات الغرامية التي كانت تدور بين فريد ومريم فيجد فيها من فلسفة اللاهوت الروحاني ما تحتقر عنده فلسفة الطبيعة المادية. وكانت مريم تُعرف حينئذٍ في العائلات التي تزورها لاشغال فنية باسم «ماري الراهبة» حتى تغلب هذا الاسم على اسمها الاصلي « مريم نعمة الله »

وما لبث ان بلغ خبر علاقة فريد بماري الراهبة الى عمه الامير نعيم الرحابي فثار ثائره وحمي غضبه وحتم انه يحول بكل قوته دون هذا الزواج الذي يعده شيناً لاسرة الرحابي ولا سيما اذ بلغ اليه ان الفتاة لقيطة بنت الاثم

وكانت أم فريد مع استنكارها هذا الزواج ملزمة أيضاً ان تؤيد « سلفها » الامير نعيم استرضاء له وتسهيلا لاستمداد المال الذي كان لا مورد لنفقتها سواه

وهكذا وقع المحظور الذي كانت الأم اغناتيا تحذر فريداً منه . وانما وقع بعد ان توثقت العلاقة بين فريد ومريم و بلغ حب الفتاة له الى درجة حبه لها ، الدرجة التي عرفها القارىء وصار الخطر من فصلهما على حياتهما أشد من خطر اتصالهما .

ما انقضت بضعة أشهر الا ابتدأت الحرب في ساحة أخرى غير هذه الساحة وصار محتوماً ان ننتقل بالقارىء الى الساحة الاخرى ونصعد به الى اكمة التاريخ المشرفة على الساحة ونسلمه المنظار الروائي لكي يرى مقدمات المعارك ووقائعها فالى الفصل التالي اذاً

L'amour

القسم الثاني

اضطرام الثورة في العالم المادي

الفصل الثامن

الخيال النذير

في ضاحية من ضواحي القاهرة منزل فخم . ولك أن تقول انه صرح أو قصر صغير شرقي الطراز تحيط به حديقة جميلة ذات غراس شهية الثمار وذات انجم وزهور . وقد تسوّرت بسور من بناء على علو بعض القامة ويعلوه سور آخر من قُضُب حديدية وقد تعرّشت اليها بعض النباتات الحلزونية والزهرية . وتتخلل الغراس بعض المسالك مفروشة بالحصى . وفي جانب منها بركة صغيرة ذات نافورة يشب منها الماء في بعض الاويقات وحول البركة بعض مقاعد خشبية . وحول هذه الصرح منازل متفرقة يتبع بعضها جنان ايضاً وتتخللها شوارع بسيطة

هذا هو مقام الامير نعيم الرحابي ، وهو البقية الباقية من هذه الأسرة النبيلة التي كان لها في الماضي تاريخ عز وجاه ونفوذ في سوريا . وقد رحل هذا الامير وأخوه الامير خليل مع أبيهما منذ حداثتهما حين تضعضع نفوذ الاسرة هناك وكسفت شمس مجدها . وكان أبوهما الامير مجيد قد باع املاكه واشترى املاكا في مصر وعكف على ادارة املاكه بنفسه مستزيداً ثروته . ولما قضى الى رحمة ربه ترك لولديه ثروة كافية الريع لنفقاتهما بحيث يعيشان عيشة الوجهاء

أما مجد الامارة فكاد يأفل في مصر لافول نجم النفوذ القديم . وانما الامير نعيم بقي مستمسكا بلقب الامارة ولو في دائرة بيته ولا سيما لانه كان قليل الاختلاط بالناس . أما اخوه الامير خليل فكان كثير الاختلاط بالناس فتجاوز عن اللقب لانه قلّ من عرفه به . ومات الامير خليل في نحو الاربعين من عمره تاركا الفتى فريداً وريثه الوحيد مع زوجته وطفاء وترك بقية ثروته وابنه تحت

وصاية أخيه الامير نعيم

وكان الامير نعيم ارملا بلا نسل فكان يحسب فريداً كابنه . وكانت له اخت ترملت في سوريا ومعها بنتها فاستقدمهما اليه . ثم ماتت الاخت و بقيت البنت زكية معه يعاملها بكل عطف واعزاز كانها بنته ولا سيما لان أباها كان من الاسرة الرحابية . وقد ربى زكية تربية حسنة صالحة على نية ان يزوجها لابن عمها فريد

هذا مجمل تاريخ الامير نعيم وسيتضح هذا التاريخ اكثر في سياق الرواية

***

في تلك الاثناء التي جرت فيها الحوادث التي عرفها القارىء في الفصول الماضية مرض الامير نعيم الرحابي مرضاً خطراً شخصه طبيبه الدكتور يوسف المعني بداء الطيفوئيد . وقد اشتد المرض على الامير حتى غاب عنه رشده عدة أيام . ولكن عناية الله وعناية الدكتور يوسف و بنية الامير القوية الموروثة من سلالته الشديدة أنقذته من المرض . وتعافى رويداً الى ان صار يخرج من مخدعه الى الحديقة ويجلس في العصارى متمتعاً بنور الشمس وحرارتها ورياحين الازهر ومناظرها . فكان يقعد على كرسي أنيق هزاز ذي منكبين يلقي عليهما ذراعيه و يطالع الجريدة أو الكتاب و يشرب القهوة و يدخن النارجيلة حسب عادته

ففي ذات عصر وهو كذلك اذ روّع صراخه الخدم في البيت وهو ينادي : يا حبيب يا ساره يا علي . الحقوها ادركوها . وراءها في الشارع . انعطفت خلف المنزل . هلموا . اسرعوا . ادركوها قبل ان تتوارى

فاسرع الخدم اليه مذعورين وهم يقولون : ماذا جرى يا سيدي الامير .

وكان الامير قد خفت صوته من شدة الانفعال و بدا على وجهه اكفهرار يدل على الوجل وقال : اسرعوا وراءها . وراءها هناك

وأشار الى ما حول الحديقة . فسألوه : « من هي ؟ » فما كان جوابه الا اسرعوا وراءها . اسرعوا وراءها . تباً لكم ! لقد ركضت . لقد توارت . اختفت . عادت الى عالم الارواح

ولكن الخدم لم يفهموا من يعني فاندفعوا الى خارج الحديقة وطافوا هنا وهنالك . فلم يروا أحداً ولا خيال أحد سوى احداث يلعبون في تلك الناحية . فسألهم الخادم حبيب ان كانوا قد رأوا مرأة. فقالوا انهم لم يروا .

وكانت سارة الطباخة أول من عاد فرأت الامير في كرسيه وهو يلهث مضطرباً شديد الانفعال . فقالت : هلمّ يا سيدي الى سريرك .

وأسعفته ممسكة بيديه فنهض وقدماه تتداعيان تحت بدنه واتكأ على كتفيها . ثم جاء حبيب وعليّ البربري وأدخلوه جميعاً الى غرفته وألقوه في سريره وهم يقولون : لم نشاهد أحداً يا سيدي الامير . من هي التي عنيتها . وماذا فعلت ؟

ولكن الامير تململ وتأوه وقال بصوت خافت : اليّ بالدكتور يوسف المعني حالا

فأسرع حبيب الى التليفون في رحبة المنزل وسأل عنه في عيادته فما وجده فيها فعظم قلقه . وكانت الشمس قد غربت فسأل عنه في النادي فليس هو هناك . فرد السماعة وهو حائر ماذا يفعل وكيف يعود الى الامير بلا خبر من الدكتور لانه كان يخاف مراسه ويوجس من غضبه .

عند ذلك جاءت سارة تصيح : هل دعوت الدكتور ؟ اسرع حالا . انه هائج النفس مضطرب الجسد . اظنه جن

فقال حبيب : هذه عواقب الحمى التي نقه منها . كذا كان يفعل المرحوم أخوه بعد شفائه من التيفوس .

— ماذا قال الدكتور هل هو آتٍ ؟

— ليس الدكتور في العيادة ولا في النادي

— يجب ان تبحث عنه حيثما هو . ان الامير في حالة مرعبة

— ويحي ! لو كنت جناً لكنت أطير الى الدكتور واحمله على منكبي . اني اضحي بحياتي لاجل حياة الامير . ولكن ماذا أفعل

عند ذلك سمع جرس الدار . واذا عليّ يفتح البوابة . واذا بساره ترى الدكتور من الشباك داخلا . فقالت . تبارك اسم الله . لقد جاء الدكتور .

فاستقبله حبيب قائلا : لقد أرسلك الله نعمة من السماء يا دكتور . لقد كنت حائراً لا أدري أين أجدك . كان بيني وبين الخطر من تهمة سيدي الامير لحظة عين

فقال الدكتور مبغوتاً : ما الخبر يا عم حبيب

فقال حبيب وهو في ارتباك شديد : ان سيدي الامير في اضطراب مخيف . بربك اسرع اليه . انه يطلبك بالحاح شديد . ادخل حالا . ان سارة دخلت لتنبئه بقدومك .

فانتهره الدكتور : ويحك . ماذا جرى له ؟

فقال حبيب : ادخل أولا وثمّ تعلم . أخاف ان يكون الامير قد جنّ

— تباً لك من احمق : كيف يجن ؟ الجنون لا يتطرق الى الدماغ الصلب . فاخبرني ماذا جرى له ! لا ادخل ما لم اعلم ماذا جرى

فروى له حبيب متلعثماً ما علمه وما شاهده من أمره وهو لا يزال مرتبكا مضطرباً الى ان قال : الحمد لله انه ساقك الينا في اخرج الاوقات يا سيدي . أخاف ان يكون سيدي الامير ولي نعمتي قد جنّ يا دكتور .

عند ذلك دخل الدكتور وحبيب وراءه فرأى الامير في مكتبه مضطجعاً على شزلون ، وفي يده صورة مقلوبة على صدره وهو يتنهد وسارة الطباخة واقفة عند طرف الشزلون وعلي البربري يحمل كأساً وكوبة في صينية

فقدمت سارة كرسياً للدكتور فقعد لدى الامير نعيم باسماً وهو يقول : ماذا بك يا سيدي الامير ؟ خير ان شاء الله

وكان الامير جزعاً يرتجف جاحظ العينين قلق المضجع سريع التنهد . فقال بصوت خافت : آه يا عزيزي الدكتور . بي بركان يزلزل الجبل . آه : بي ثورة النفس التي روعتها ذكريات صروف الزمان ونوائب الحدثان ... آه . بي سيناتوغراف حياتي يكر سراعاً في مخيلتي . بي ضمير كان هاجعاً في سرير الاطمئنان فايقظه حادث مروع ، فاستيقظ يحمل الميزان — ميزان الديونة

وكان الدكتور يسمع كلامه مبهوتاً ويبتسم كاظماً ما يجول في نفسه من حيرة وارتباك . وأمسك معصمه متظاهراً بطمأنه وقاصداً ان يكتشف ان كانت الحمى قد عاودته . ثم قال : الحمد لله ان الدلائل تدل على تحسن صحتك . وأرى في وجهك بشائر العافية . فما الذي طرأ فاقلقك

فقال الامير : لست اشكو اليك ألم جسدي يا عزيزي الدكتور ، بل ألم نفسي أشكو . فعسى أن تحسن طب النفس كما تحسن طب الجسد

ثم أشار الامير الى الواقفين قائلا : دعوني والدكتور وحدنا

فخرجوا وقال الدكتور : لا أرى فيك ما يوجب هذا القلق يا سيدي الامير

— قلت لك اني اشكو من مرارة نفسي . اشكو من وجد قديم في فؤادي أخذ يتلهب الآن بعد ان خمد زمناً طويلا . وأصبحت في حمى تقسي أشد من حرارة حمى الجسد . تكاد هذه الحمى تقتلني بعذاب لا يطاق . واشعر اني في حاجة اليك عسى ان تخفف عذابي قبل ان ينقضي أجلي . بل اني في حاجة الى صديق حصيف حسن الرأي اكثر مني الى طبيب جسدي . وفي إبان هذه الثورة النفسانية لم يخطر لي الا طبيبي الصديق الوفي الدكتور يوسف المعني . فأود أن أشكو اليك آلام نفسي

— اشكر لك يا سيدي الامير عظم ثقتك بولائي واخلاصي . وسأبرهن لك ان هذه الثقة غير خائبة

— شكراً يا عزيزي . لست في حاجة الى برهان على ولائك وقد رأيته في عنايتك بي في مرضي وفي عطفك العظيم . اكاد أغالط نفسي واكذب حواسي فيما شاهدته لانه يخبل العقول لمخالفته للمعقول . اكاد أجن يا عزيزي الدكتور

فبش له الدكتور وقال : سكن روعك

يا امير اني أراك في تمام عقلك والحمد لله وأرى دلائل العافية بادية في محياك . فماذا جرى ؟

— اسمع حكايتي. كنت في هذا المساء كعادتي في زاوية الحديقة جالساً على كرسيّ اقرا بعض الجرائد. ومنذ مرضي الاخير صارت تنتاب لبي الهواجس وتتعاقب في مخيلتي تذكارات حوادث قديمة . وقد تشرّدت أفكاري في هذا المساء وراء تذكارات الماضي وتضعضعت حواسي . فكنت اقرأ هنيهة ثم اسبح في فضاء الخيال برهة الى ان نبهت وجداني قرقعة على مقربة مني فالتفت الى سور الحديقة حيث سمعت القرقعة فاذا بي أرى أمراً غريباً مروّعاً ...

وهنا اضطرب الامير في مضجه ورفع كفه الى عينيه كأنه يحجب منظراً عنهما ثم استمر في الحديث بعد هنيهة : رأيت من وراء السور الحديدي الذي تعرّشت عليه العرائش الخضراء رأس انسان أو انسانة وقد التفت عليه لفافة بيضاء ولم يظهر منه الا جبهة عاجية وعينان وبعض الانف والى جنب الوجه صورة ممسكة بكف بيضاء . والعينان تحدقان بي تحديقاً رهيباً . وكانت الشمس قد أفلت أو على وشك الافول ولم يزل النور كافياً لتبين ذلك الوجه وأنا على قيد باعين منه . كان ذلك المنظر مروّعاً لي لاني اشتبهت بالصورة اذ رأيت فيها ملاح فتاة كانت في عهد شبابي أقرب الناس الى قلبي الى ان قطع حسام الردى عنق صلتنا . فارتعدت فرائصي لظهور هذه الصورة بغتة على هذا النحو وانتفضت جزعاً اذ ظننتني أرى روحاً جاءت من عالم الارواح بشكل جسماني . فاستجمعت قوتي بالرغم من انحلالها حينئذٍ ووقفت والعينان لا تزالان تحملقان بي . ولم أعد احتمل وقع السهام النورانية من تينك العينين البراقتين. فحولت نظري الى هنا وهناك والعينان لا تزالان تريشانني بسهام من نار ولم يبق لي عزم على ان اخطو . فقلت في ابان ارتياعي متلجلجاً متلعثماً : ما هذا ؟ من هذا ؟ فارتجفت الصورة ونزل الرأس قليلاً . فاستقويت وتطاللت لارى ما هذا . فانسل ذلك الرأس والصورة وراء السور . فتقدمت وأشرفت على ما وراء السور فاذا شبح في شكل مرأة بثوب أبيض كأنه كفن فيه جثة تمشي وراء السور والصورة وراء الرأس متجهة اليّ . فعزمت ان اخرج من الحديقة والحق بذلك الشبح لكي اتحققه . ولكن قواي وهت فاستصرخت الخدم وأمرتهم أن يسرعوا وراءه ويمسكوا به لكي اعلم من هو وماذا يريد من هذا الفعل . فاسرعوا وطافوا هناك وهنالك . ولكنه كان قد توارى وعادوا حيارى . وعدت وقد ثارت في

نفسي مكامن شجوني القديمة

فقال الدكتور باسماً : لعل هذه الصورة التي في يدك هي نفس تلك الصورة ياسيدي الامير

فتململ الامير وقال : عجباً يا عزيزي الدكتور ان تظن ذلك وقد قلت لك ان الشبح مضى بالصورة . وما هذه الصورة التي في يدي الآن الا نسخة من تلك

فقال الدكتور مجاولا التفسير : هذا ما غنيته بسؤالي . وعلى كل حال الحادث غريب وليس له عندي الا تعليل واحد ...

فقاطعه الامير قائلا : لا تقل لي يا عزيزي انه وهم . . . لا . لا استطيع ان اكذب عينيَّ . ان ما رأيته بهما حقيقة كما أراك الآن . ولا يمكن ان يكون وهماً . هو الحقيقة المحسوسة

— ان ما نراه في الحلم نراه باعصاب العينين أيضاً يا سيدي . . .

فقاطعه الامير قائلا : ولكنني لم اكن نائماً بل كنت مستيقظاً . كنت اقرأ

— كثيراً ما يحلم الانسان في يقظته يا سيدي . بهيم فكره في كل واد . أما قلت انك كنت متشرّد الفكر مضّعضع الحواس في هذه الايام الاخيرة ؟

فتنهّد الامير ونفخ وقال : اذاً لا تزال تصرّ على رأيك ان ما رأيته كان وهماً من اختراع المخيلة . انك تستجنني يا دكتور وما انا بمجنون . اني في تمام عقلي وسلامة حواسي . ارى الآن كل شيء كما هو واسمع كل صوت . فما رأيته كان حقيقة راهنة . ان ذلك الشبح روّعني وتلك الصورة جمعت في رأسي كل سني حياتي القديمة . ان كان ذلك الشبح انساناً حقيقياً فمن هو ؟ وان كان روحاً فما وراء ظهور هذه الروح

فقال الدكتور متحيراً في اقناعه مرتبكا في الرد على سؤاله : لعل هذا الشبح يعيد الكرة ثانية يا سيدي الامير فنراقبه في المساء التالي ونستعد للظفر به . وأما الآن فارجو منك ان تطرد من يقينك هذه الخيالات وتطمئن . فلعل الحادث أبسط جداً مما توهمت . ألا يبعد ان يكون ذلك دعابة من بعض الاحداث ؟

فحاول الامير ان ينهض في مضجعه متهيجاً وقال محتداً : والصورة ؟ الصورة ؟ هي نسخة أخرى من هذه . فكيف حصل عليها الاحداث ؟ ان كان الحادث دعابة فهي دعابة مروّعة يا دكتور . ان من يداعبني بتلك الصورة يعني أمراً هائلا . فاريد ان اعلم قصده وكيف حصل على هذه الصورة ، ولا اعرف شخصاً آخر عنده نسخة اخرى منها

فارتبك الدكتور شديد الارتباك وهو حائر كيف يقنع الامير بوهمه وكيف يداري عواطفه . ثم قال : مولاي لا ريب انك اعرف من اي انسان بأمر ذلك الطيف . وسواء كان الحادث وهماً أو حقيقة فتعليله

يتوقف على العلم بذلك التاريخ الماضي الذي بُعثت ذكرياته من رمسها . ومن سواك يعلم ذلك التاريخ ؟

فأجاب الامير وقد سكن روعه قليلا : صدقت يجب ان تعرف المقدمات لكي تستطيع الوصول الى النتائج ولكي تحسن المشورة والنصح . فعليّ ان ابسط لك تاريخاً ماضياً وانت آمن مستودع لاسراري. فسمعاً :

وتنهد الامير وسكت هنيهة كأنه يستجمع أفكاره ولا يدري من أي جهة يطرق الموضوع . ثم قال لقد اصبحت تجاه ضميري كالكرة المقذوفة التي صدمت الحائط فعادت الى قاذفها . هكذا ضميري يرد الى مخيلتي جميع تذكاراتي الماضية وهي رهيبة مروعة يا دكتور

ثم سكت الامير هنيهة وقال : لعلك تعلم اني لم اتوفق في زواجي فقد ماتت زوجتي من ثماني سنين بعد اثنتي عشرة سنة لزواجنا ولم نكن على وفاق تام ولم نرزق ولداً . وبعد وفاتها صرت اتخوف من زواج آخر لئلا يكون اتعس من الزواج الاول لاني طفقت اعتقد ان عدم توفقي كان عقاباً لذنب ارتكبته في شبابي . وكلما تقادم العهد عظم ذلك الذنب في نظري وثقل على كاهل نفسي . انظر هذه الصورة

ودفع الامير الصورة الى يد الدكتور فأخذها هذا وجعل يتأملها . ثم قال : أهي نسخة من نفس الصورة التي رأيت نسخة مثلها مع ذلك الشبح . هل أنت واثق انها مثلها تماماً ؟

— نعم هي بعينها فقد شاهدتها جلياً . هذه النسخة عندي منذ اكثر من عشرين سنة . وصاحبتها كانت فتاة لا عيب فيها الا انها استسلمت لي وأنا العاشق المعشوق . وربما كانت معذورة في استسلامها لي لانها ليست المرأة الوحيدة التي كانت لبساطتها وسلامة نيتها وطهارة قلبها تظن ان آخر رذيلة تبقى في الرجل الذي يجتهد ان يتنزه عن الرذائل هي الخيانة في الحب . كانت هذه الفتاة على غاية من الدعة والرقة واللطف والذكاء والاخلاص . وكنت صادقاً في حبي لها . ولا أدري كيف سكت ضميري عن زلة استئثاري بعفافها لقاء وعد شفهي لها بتزوجي اياها . وأما هي فلا لومها بتصديق وعدي والا كتفاء به بلا ضمانة لانها كانت تعلم اني احسب شكها بوعدي اهانة لي لا تغتفر . فلم تجسر ان تبدي أقل شك به . الحب اعمى . فهي احبت كل الحب وسلمت نفسها . وأنا احببت كل الحب واخذت اثمن ما عندها بالوعد فقط كثمن. واجر يمتاه ! ما نكثت في حياتي بوعد الا هذا الوعد المقدس . لو كنت خائناً وناكثاً كل الوعود والعهود لكان الله يغتفرها لي . اما هذا العهد فلا يغتفره الله ....

وهنا توقف الامير عن الكلام كأن وقر الجرم على ضميره ضعضع أفكاره فقال الدكتور : وهل كان لذويها علم بعلاقتك معها ؟ وهل : . . .

فقاطعه الامير قائلا : كانت الفتاة بنت أسرة متوسطة الحال . ولكنها كانت على غاية من شرف النفس وحسن السمعة . فلما علم أبواي والمرحوم أخي الامير خليل اني أريدها زوجة ثاروا ثورتهم ضدي اذ كبر عليهم ان فتى من كبرى الاسرات الشرقية التي كان رجالها يتداولون الحكم في بعض الأزمنة الماضية حلو الشمائل مستوفي العلم وفر المال كما كانوا يقولون — كبر عليهم أن يتزوج فتاة متوسطة الحال أو دون المتوسطة كما يزعمون لاحسب لها ولا نسب ولا نشب. وقد جسموا صنم هذا التقليد في نظري حتى صرت أراني مغبوناً في علاقتي مع تلك الفتاة غبناً حقيقياً

فقال الدكتور مبتسما : ربما كانوا مخطئين. ولا بد أن تكون قد ناقشتهم في الامر

— ناقشتهم ولكنهم جسموا الخطل في ضميري وعظموا أمر الحسب والنسب وكادوا ينكرونني لو أصررت على عزمي . وكانت وطفاء امرأة أخي تزين لي أن أتزوج أختها وهما من أسرة معتبرة كما تعلم . وما زالوا يضربون على هذا الوتر حتى أعرضت عن الفتاة التي استوهبتها أثمن ما عندها مما لا أستطيع رده اليها ولم اكافئها بدله الا ثمرة حب مرّة تبقى طول حياتها شاهداً عدلا يشهد بخزيها وعارها وحدها ولا يشير الى جريمتي لاني بحكم التقاليد والعرف والشريعة أيضاً متنصل من المسؤولية . آه . يا دكتور . ما كان اكبر جرمي. عاتبتني الفتاة في اعراضي فتملصت من عتابها تملص السمكة من القبضة . وأفهمتها انها لا تكون عزيزة عندي الا وهي خليلة لي لا حليلة

وهنا انتفض الامير لشدة تأثره ووضع كفه على عينيه كأنه يحجب خيالات مروعة تمر في مخيلته . وقال : آه يا عزيزي الدكتور ما كان أقساني وما كان أفظع جرمي . وما أظلمني . لا يرى الانسان ظلمه كما يرى ظلم غيره . لقد أخطأت خطيئة عظيمة في التمادي بحب تلك الفتاة وأنا أعلم ان بيني و بينها هاوية . كان يجب أن التفت عنها الى مقامي فربما ارتدعت

فقال الدكتور : لا تعظم الامر كثيراً ياسيدي الامير فان للشباب عقيدة بالحب غير عقيدة الكهولة . والحب لا يعرف نسباً ولا ضعة . فللشاب بالحب عذر

فقال الامير : بعد مضي اكثر من عشرين سنة على هذا الحادث صرت أرى اني كنت في عهد شبيبتي شخصاً آخر أستطيع الان الحكم عليه . أي نعم ان الامير نعيم الرحابي الشيخ يحكم الآن على الامير نعيم الفتى بأنه كان فتى أحمق طائش لا يدرك العواقب ثم كان فتى مستبداً خائناً ظالماً يستحق أقسى عقاب

وكان صوت الامير يتهدّج وانتهى بالبكاء . فقال الدكتور متململا : لكل اثم كفارة ياسيدي الامير . ففضائل الشيخوخة وحلمها وتسامحها تكفر عن اثم الشبيبة

فقال الامير متلجلجاً متضجراً : لات حين تفكير ياعزيزي الدكتور . فقد حان وقت الدينونة . وما ظهر هذا الشبح المخيف في هذا المساء الا ليحمل ميزان القضاء . أجل لقد مضت فرصة التكفير وانقضى زمن التوبة لانه ما مضى اسبوع بعد مصارحتي بالجفاء لتلك المظلومة حتى قيل ان جثتها وجدت طافية على ماء النيل . وتهامس عارفوها والعالمون بأمرها انها انتحرت غرقاً لتدفن عارها معها . نعم لقد سترت عارها وطهرت نفسها من اثمها . ولا ريب ان الله قبل توبتها ومحا اثمها وتقبلها قديسة . ولكنه تعالى عادل لم يصفح عن اثمي لاني لم أتب اليه . وقد نكد عيشي في زواجي كبده عقاب لي . ولا ريب انه وجه هذا الشبح اليّ في هذا المساء لكي ينصب لي ميزان الدينونة في دنياي وينفذ حكم القضاء الالهي فيّ هنا قبل الآخرة . نعم يادكتور ان يوم الدينونة جاء وهو يوم رهيب . ويلي من هذه الدينونة

وهنا وقف الامير متأثراً متهيجا كأنه يحاول الهرب من وجه الديان فحاول الدكتور أن يقعده ويلطف ثورة نفسه قائلا : هدوءاً ياسيدي الامير ورفقاً بنفسك . لم يزل لديك زمن للتوبة والتكفير من اثم ندر ان تنجو الشبيبة من الوقوع فيه . والله يغفر للتائبين . فسكن روعك يامولاي

فقال الامير في إبان تهيجه : لا استطيع الاطمئنان ياعزيزي الدكتور الا اذا ظفرت بذلك الشبح الذي جاءني ينصب الميزان فلعلي أستطيع أن أعلم منه الكفارة التي يمكن أن تكفر عن جريمتي . آه يادكتور يوسف . ان ذلك الشبح الذي تراءى لي بشكل غريب كانه جثة بعثت من قبرها روّع نفسي وزلزل فؤادي . آه أود أن أظفر بذلك الشبح ولو كان عزرائيل قابض الأرواح . أريد أن أتفاهم مع ذلك الشبح . لاتقل لي يادكتور ان الرؤيا كانت وهماً . لا أقدر أن اكذب حواسي وهي سليمة . ولا تقل لي ان الشخص الذي بدا لي بذلك الشكل كان مداعباً لأن ظهور الصورة التي بقيت مخفية عشرين سنة كما كانت عندي ضائعة في زوايا النسيان يدل على انه يجد لا يهزل في مداعبته

فقال الدكتور مجاهداً في تسكين روعه وتهدئة باله : مهما كان قصد ذلك الشبح فلا بد أن يظهر ثانية وربما ظهر ثالثة ورابعة أيضاً . فلنترب ص له في الامساء التالية حين تجلس في زاوية الحديقة تقرأ كالعادة حتى اذا ظهر فاجأناه وقبضنا عليه . لابد ان نقبض عليه وحينئذ يكون لنا معه أمر ونعلم منه ما غرضه

— لقد خطر لي هـذا الرأي ياعزيزي ولـكني لا أريد أن أنفر ذلك الشبح لئلا أهيج غضبه فأخسر رفقه وأتعرض لنقمته. لاأريد السطو عليه واغتصابه بل أود تتبعه الى حيث يلجأ واستكشاف حقيقة أمره ومكاشفته في سره

— ليس ذلك بالامر العسير ياسيدي الامير. ففي امكاننا ان ننظم خطتنا تنظيما يضمن النجاح . دع الامر لتدبيري وانا كفيل بالنجاح ان شاء الله

عنـد ذلك هدأت ثورة الامير بعض الهدوء وتنفس الصعداء وقال : بارك الله بك ياعزيزي الدكتور يوسف وشكراً

وعاد الدكتور يوسف يتأمل الصورة وهو لا يزال يعتقد ان الامير تحت سـلطة السرسام وان مارآه لم يكن الاوهماً لولا وجود هذه الصورة . فقال : قلت يامولاي ان هذه الصورة كانت ضـائعة فى زاوية النسيان فكيف عادت من زاويته ؟

— يظهر ان سارة طباختنا وجدتها عرضاً في الاسبوع الماضي في خزانة الـكتب اذ استخرجت الـكتب لـكي تنظفها وتنظف المـكتبة من العثير . فوضعتها على المـكتب فلما رأيتها سررت اذ وجدت ضائعاً . ولكن تطلعي اليها كل يوم كان يستعرض في مخيلتي ذكرياتي الماضية فتهيج أشجاني

فهز الدكتور رأسـه باسما وقال : ليت هذه الصورة لم توجد ياسيدي الامير فكنت باقياً في راحة نفسك

فجحظت عيناي الامير وقال : أظنك لم تزل تعتقد بأن الحـادث وهم اثارته هذه الصورة

— لا بد أن يتكرر الحادث ياسيدي الامير ونكتشف الحقيقة. ثق أني سأكشف الستار عن هـذا الامر . فأطمئن .

— أظنك لا ترفض كأساً من الشاي واللبن

واستدعى الامير سارة وأوعز اليها ان تعد الشاي

الفصل التاسع

انفجار فى معمل الزهائر

ثم استأنف الامير الحديث مموها : لقد استغربت دخولك علي في نفس الدقيقة التي كنت فيها في مسيس الحاجة اليك . كنت جزعاً وجلا ابتغي ملاذاً افزع اليه . فهل كان مجيئك هذا مصادفة ؟ وكثيراً ماتظهر الحوادث مصادفات ولـكنها تكون بالحقيقة الهاماً أو تدبيراً ربانياً

لقـد كنت قادماً اليك لاباحثك في

أمر ذي شأن ياسيدي الامير فعسى أن تهبني من حلمك ما يجرئني على المباحثة

فابتسم الامير وانقشع غيهب كآبته وقال: ان مستشاري أولى الناس بحلمي واصغائي فقل ياعزيزي ماتشاء واني لسامع بكل اصغاء

ـ ان مسألة فريد ابن أخيك أصبحت شاغلة للبال ياسيدي الامير. فقد هجر فريد أمه وأقام في منزل مرضعته نجلاء مزهر. ولذلك ترى الاميرة وطفاء في بحر من اليأس والشقاء لاقرار له اذ ليس لها ولد غير فريد تتعزى به

فقال الامير متجهما مقطب الجبين: لماذا تشقى وطفاء امرأة أخي؟ ماذا ينقصها من ملذات الدنيا؟ لقد انقضت مدة الحداد على أخي منذ زمان وهي تلبس الآن ما تشاء من زخارف الازياء وتتنزه حيث تشاء وتذهب الى الملاهي والمراقص كعادتها القديمة. فلماذا تشقى؟

ـ كل هذا لايروي غليل الام ياسيدي الامير. ان لقلب الام زيا خاصاً ومرقصاً خاصاً وملعباً خاصاً. فملعبه ومرقصه ومتنزهه في عشرة الابن. والابن هاجر مجافياً الام. والانكى ان هذا الابن يوجه أشعة حبه الى مرضعة غريبة لم تمنحه من فضلها اكثر مما منحته البقرة الحلوب. زد على ذلك ان الاميرة وطفاء لم تعد الى ملاهيها ومتنزهاتها كما تقول ياسيدي بل هي عائشة عيشة الزهد ولا سيما لان يدها خالية كما تعلم

ـ أي نعم لم يبق في يدها اكثر مما أبقت في قلبها من العطف الوالدي. فقد أسرفت في ذاك كما ضيعت هذا. وعندي ان المرضعة نجلاء أقرب الى فريد من أمه. فامه قد منحته اقة من لحمها ودمها. واما نجلا مرضعته فقد منحته ستين أقة لانها لاتزال الى هذه الساعة تجود بمهجتها اذا رامها غذاء له. امه حملته تسعة أشهر في احشائها وأما نجلاء فقد حملته خمسا وعشرين سنة. وفيما أمه كانت مشغولة في زينتها ونزهتها وسهراتها ورقصانها كانت نجلاء تسهر عليه رضيعاً ومريضاً وغلاماً ويافعاً. وفيما كانت أمه وطفاء تنقل فؤادها بين زهرات الحب كانت عواطف نجلاء تتدفق عليه. ثق ياعزيزي الدكتور ان الاميرة وطفاء تتحمل هجران فريد أكثر مما تتحمله المرضعة نجلاء. ثق ان التعسة بحب فريد ابن أخي مرضعته نجلاء لا أمه وطفاء ان كان الحب تعاسة. الاميرة وطفاء تستطيع فراق فريد يومين أو أسبوعين أو شهرين. وأما نجلاء فلا تستطيع ان تفارقه يوماً واحداً. ان تعلق نجلاء بفريد جعلها عبرة للاميرة وطفاء. والله قد رزق امرأة أخي مالم يرزق امرأة سواها. رزقها صبيا ورزقها معه عبدة لها. فلايحق لها ان تتذمر

فتململ الدكتور وقال، ولكن ياسيدي

الامير أرى الاميرة وطفاء حزينة جداً بسبب تصرف فريد .

فهز الامير رأسه وقال : الآن صارت تحزن لهجرانه ؟ اما تعودت اعراضه عنها منذ كانت تهمله في يدي نجلاء اياما وليالي؟ وما الذي حرك عواطفها الآن ؟ أما خطر لها في الماضي انها ستحصد الجفاء الذي زرعته قبلا . فلتحمد الله ان التي تنازعها الآن أمومتها لفريد قد كانت أهلا لتربيته والا لشب فاسد الاخلاق ضعيفها . الحق ان المرضعة نجلاء اليق جداً من الاميرة وطفاء لان تكون أمًا لابن أخي فريد .

دعنا من حديث وطفاء يا عزيزي الدكتور فانه يثير شجوني القديمة التي كانت هي سببها

— لم أتعرض لامرها لولا صلته لفريد ابن أخيك بل هو ابنك الروحي لانك ولي أمره، وهو لا يستغني عن رضائك ولا يبرح من ظل نعمتك

— واني لاحنى عليه من أب . وهل لي غير فريد عزاء في شيخوختي . فمادام في طاعتي فاني راض عليه ولا أضن بامنيته له

— لا أظنك تجهل يا مولاي تدلهه بحب الفتاة ماري الراهبة ، فاذا لم يذب ضنى في حبها فلا بد ان يجن . وقد بذلنا الجهد في شفائه من هذا الحب فذهب جهدنا عبثاً . والفتاة بالرغم من تدلهها بحبه كتبت له كتاباً مؤثراً تعظه فيه بان يمتثل لارادتك وأفهمته بأسلوب لطيف أنها لاترضي بزواجه الا اذا نال رضاءك عليهما كليهما

فتجهم الامير وازمهرت عيناه وقال : اذا رضيت أنا فروح أخي المرحوم لاترضى بل تنقم عليّ وعليه . وضع أبوه البقية الباقية من ثروته تحت يدي رهنا لتنفيذ وصيته الآمرة بان لا تأول هذه الثروة الى فريد الا اذا تزوج أحدى فتيات أسرتنا التي أرتضيها أنا له زوجة : وأنا أحذو حذو أخي أيضا . فاذا عمل فريد بوصية أبيه فاترك له ثروتي وهي أضعاف تركة أبيه . وقد اقترحت عليه ان يتزج زكية ابنة أخي . وهي فتاة على جانب كبير من الجمال والعلم والادب فضلا عن الوجاهة . وشتان بينها وبين تلك الفتاة الوضيعة المجهولة الاهل

فتبرم الدكتور وقال : ولكن الحب سلطان يا سيدي الامير . وتلك الفتاة التي يهواها فريد جامعة لكل الفضائل والمحاسن وشرف النفس

— الحب عارض يزول أو يتحول يادكتور يوسف ولكن شرف النسب اذا انثلم فلا يصلح . ان تلك الفتاة ماري الراهبة مهما كانت فاضلة وحميدة الخصال تبقى لقيطة مجهولة الابوين، واللقيطة بنت زنى. فهل يليق بآل الرحابي ان يضموا الى نسبهم لقيطة بنت زنى

فتحمس الدكتور في الجدال وقال :

منذ برهة كنت سعادتك تجحد هذه التقاليد المتحجرة . وتتندم لانك لم تتزوج الفتاة الوضيعة التي نكثت عهدك لها

فحملق الامير وكاد يحتد وقال : كلا ما تندمت على عدم زواجي بتلك المرأة بل على تدنيسي عرضها الذي افضى الى خيانتي لها . ان اسرتنا اعتادت ان تحافظ على دمها وتصونه من الامتزاج بدماء الاسرات الوضيعة . ولهذا كانت شريعتنا العائلية ان نتزاوج فيما بيننا لكيلا تفسد بالامتزاج في اسرات منحطة . ولما شذذنا انا واخي عن هذه الشريعة كاد بيتنا يتقوض . ولقد تقوض بيت اخي بسبب اسراف زوجته وطفاء ، وسوء سلوكها وخاف اخي ان يكون مصير ابنه الوحيد اردأ من مصيره فاحتاط للامر وجعل ابنه تحت وصايتي الى ان ينفذ فريد الوصية . هذه خطتنا منذ اجيال حين كان اجدادنا حكاما في سوريا ولاتزال هذه خطتنا بعد ان هاجرنا الى هذا القطر

— اعذرني يا سيدي الامير اذا قلت لك اننا نحن الآن في عصر « انما اصل الفتى ماقد حصل » .

فتحمس الامير وقال : انت طبيب وتفهم سر الوراثة الطبيعية وتقول هذا ؟ الا تعلم ان النبل وذكاء الفؤاد وعزة النفس متأصلة في الدم . لا لا . لا نريد ان نمزج بدمنا دم لقيطات لا نعرف اصلهن . ولا يكون دم اللقيطات الا فاسداً

فخشي الدكتور ان يتمادى في مناقشة الامير بهذا الموضوع وخاف ان تفضي مناقشته الى العناد فحاول ان يطرق الموضوع من باب آخر فقال : ان الامير وطفاء ضاقت ذرعاً في امر فريد وانضنت بسبب سلوكه وعناده وخافت ان تخسر كل عاطفة فيه لها

— لقد جنت على نفسها براقش . كانت وطفاء السبب في قذفه الى تلك الحفرة . لو لم تتركه لعناية مرضعته نجلاء لما كان يلجأ الى نجلاء . ولو لم يلجأ الى نجلاء لما وقع في شرك تلك الفتاة الدنيئة المجهولة الاصل والفصل ....

فقاطعه الدكتور قائلا : والله يا سيدي الامير ان نجلاء براء من هذه التهمة لانها لم تعرف الفتاة قبل ان يعرفها فريد . ولطالما وعظته وانذرته ولكن الحب لا يقبل نصحاً . . .

— وطفاء سبب وقوع ابنها في هذه الحفرة وسلوكها الماضي اقصى ابنها عنها في الحاضر والمستقبل . هذا ماتجنيه كل ام تترك ولدها للمربية الغريبة . وهذه عواطف كل غلام ينمو ويشب بين يدي المربية . انصح لك يا دكتور اذا تزوجت فلا تدع احداً غيرك وزوجتك ان يربي اولادك والا خسرت قلوبهم . دعني يا دكتور من حديث وطفاء وابنها لانه حديث مؤلم . حسبي ما يغمني من هواجسي التي طفقت تثور في نفسي منذ اصابتني الحمى .

لقد ايقظت هذه الهواجس كل ذكرياتي الماضية حتى انها حملتني ان اتعلق بهذه الصورة واجعلها ايقونتي المعبودة وهي التي تحمل ميزان دينونتي . يجب ان اعلق هذه الصورة فوق سريري واتضرع اليها كل يوم عسى ان تغفر لي . لقد وعدتني طباختي سارة ان تستدعي فتاة تعرفها بارعة بالتطريز لكي تطرز ديباجة جميلة توضع هذه الصورة في وسطها

عند ذلك دخلت سارة بالشاي . فسألها الامير بنزق : اين الفتاة المطرزة التي قلت انك استدعيتها ؟ ام انت تراوغين

فقالت سارة متلجلجة : لقد قالت لي ياسيدي الامير انها ستأتي في هذا المساء لكي تتلقى أوامرك وتعلماتك بشأن تطريز الشكل الذي ترغب فيه واظنها تصدق

فقال الامير : اذا لم تصدق في هذا الميعاد فلا تصدق في المعاملة . يجب ان تتم التطريز في هذا الاسبوع والا فلا اكلفها به . هل تستطيع ان تطرز اشكال حيوانات وطيور وسماء وجبال وماء ؟

— لك ياسيدي ان تقول انها اقدر مطرزة وفي وسعها ان ترسم افكارك

وخرجت سارة بعد ان سكبت الشاي فقال الامير : ان الفتيات اللواتي تربيهن مدارس الراهبات يمهرن جدا بالتطريز

عند ذلك دخلت زكية ابنة اخت الامير نعيم وانقضت عليه تقبله بلهفة وتقول : خالي . سلامتك ! ماذا جرى لك ؟ لقد فاجأني علي حال وصولي انك ... لم أفهم جيداً ماذا قال ... فهمت انك كنت في الحديقة فبدا لك ماذعرك ... فديتك ياخالي .

فربت الامير على ظهرها و بشّ لها وقال: طيبي نفساً وقرّي عيناً ياعزيزتي ولا تهتمي بعارض انقضى . لماذا عدت عاجلا وعهدي بك انك مشغولة مع صديقتك انيسة

فقالت زكية وقد اطمأنت نفسها على خالها اذ وجدته في سلامة واطمئنان : لم أجد انيسة في البيت لانها دعيت الى بيت اختها لأمر فاكتفيت بزيارة بسيطة لامها . ومن حسن حظي اني جئت عاجلة لكي اكون في خدمتك

وكان الدكتور يتأمل رشاقة حركات زكية ونفسه تستعذب خفة روحها وقلبه يخفق مع خفقان جوارحها . ثم التفتت اليه وقالت : ليلة سعيدة يادكتور معني . ارجو الا تؤاخذني لتأخري في تحيتك فقد دخلت مضطربة البال قلقة على خالي . عسى ان تطمئنني عنه

فابتسم الدكتور ملء ثغره وقال : الامير بكل خير والحمد لله . فلا ينشغل بالك عليه . حسبه هذه العواطف الملائكية منك تسر نفسه وتطيب خاطره . انه ولا شك سعيد برقة قلبك ولطف شمائلك

— وانه ليسرني جداً ان اكون من علل سعادة خالي وهنائه . واغتبط جداً بان

استطيع ان اسر خالي بامر فهو عندي بمنزلة نفسي

فقال الامير : اني مبتهج بك يا عزيزتي ووجودك يقشع عني غيهب الغم والكآبة فأدعو لك بالهناء الدائم

— احمد الله اني اجدك بخير وسلامة ياخالي . اسمحا لي ان ادخل الى غرفتي هنيهة

وخرجت زكية وصوتها مسموع تنادي سارة . والدكتور يرمقها بعين الحب حتى كاد الامير يفطن لهذه الرمقة . فقال الدكتور ما ارق قلبها . اهنئك بأخلاقها الرضية التي ربيتها فيها ياسعادة الامير

فقال الامير مغتبطاً : اي عاقل يعرض عن هذه الحمامة الطاهرة ويرتمي في حمأة لقيطة . قلنا لفريد المجنون : هذه عروس على غاية من الجمال والادب والعلم ومعها ثروة طائلة وهي بنت عمته لاغريبة عنه وهو يعرفها جيداً وقد اختبرها وهي تحبه وتتحبب اليه . وهو لسوء حظه ونكد طالعه بل لطيشه وغباوته يعمى عن هذه الغبطة وعن هذه العواطف الرقيقة والشمائل الحلوة ولا يفتح عينه الا للحطة والضعة . ان زكية خرجت الآن لكي تسأل سارة عما حدث لكي يطمئن بالها . ما الطفها وأرقها وما اجن فريد

فتبرم الدكتور وفي نفسه كآبة من مصير الاحوال على غير مرامه وقال : الجمال في عين الرائي ياسيدي الامير . ولا علاج لهذا الضلال الا الصبر فعسى الله ان يلهم الامير فريدا عقلا رصينا يرده الى الصواب

ووقف الدكتور ليودع فقال الامير : هو وشأنه واما زكية فعزيزة عندي . وهي لاتخرج من طاعتي . فتركتي لها على كل حال سواء تزوجها فريد أو من اقبله انا زوجا لها . واما فريد فلا يتمتع بالبقية الباقية من تركة ابيه مادام خارجا عن طاعتي

— عسى ان لايخرج عن طاعتك يامولاي اسعدت مساء

— شكراً لك يا عزيزي الدكتور . اذاً غداً

— نعم غداً نراقب الشبح الذي ظهر لك ونرى ماذا يكون من امره

ثم خرج الدكتور ولجأ الامير الى مخدعه

الفصل العاشر

معركة القتيل القاتل

دخلت زكية الى حجرتها وجعلت تنزع ملابسها وحضرت سارة لديها ملبية نداءها وروت لها الحادث الذي حدث للامير باختصار وقالت : يظهر ان بعض الاحداث كانوا يلعبون فظهر بعضهم موصوصاً من خلال السور فتوهم سعادته ماتوهم . وهو بعد مرضه أصبح في سرسام كثير الأوهام . ولكن الدكتور طمأنه

ثم سمعت سارة جرس الدار يقرع فقالت : هل تريدين مني خدمة ياسيدتي

— لا . دعيني الآن فاني أريد أن أنتهي من الرواية التي أقرأها

وخرجت سارة وهي قلقة لأنها كانت تنتظر المطرزة . فصدق ظنها اذ كانت المطرزة هي التي طرقت باب الدار فاستقبلتها وأخذتها الى غرفتها الخاصة بكل تحفظ واحتراس وقالت : لا أدري ياهذه ان كان حظك سعيداً أو تعساً . فقد حدث في هذا المساء ماقلقل خطتي ولا أدري ان كنت الليلة تنجحين في الحديث مع الامير قبل أن تنفضح الخطة

فقالت الفتاة : بربك لا تدعيني أضيع الفرصة الملائمة فان الفرص توهب بلا ميعاد ، ولا تطلب ولا تنال حسب المراد . فاذا كنت تعلمين اني لا أنجح في حديثي مع الامير في هذا المساء فارجئي المقابلة الى الغد

فقالت سارة والقلق ظاهر عليها : لا . لا أقدر ان ارجئها الى مابعد هذه الليلة لأنه طالبني بالفتاة المطرزة التي وعدته بها مرتين . فكنت اسوف الميعاد الى ان تسنح الفرصة الموافقة . والليلة طالبني بوعدي بعبوسة ونزق أشد من غضب وسخط . فما وسعني الا ان اقول له ان المطرزة تلفنت لي انها قادمة الليلة . فيجب ان تقابليه والا عدل

فقالت الفتاة بارتباك : وماذا يحول دون توفقي في الحديث معه الليلة

— يحول امران : الاول انه انذعر في هذا المساء لرؤيا رآها ولم نفهم سرها ولعل الاوهام جسمتها له . فهو الآن مضطرب قريب الى النزق والغضب . والثاني ان زكية بنت اخته عادت الليلة قبل الميعاد المنتظر فأخاف أن تدخل عليكما وانتما في الحديث ، وهي تعرفك فيحدث بينكما ما يسوؤك اذ لا يخفى عليك انها شكسة

شرسة وهي شديدة الاستياء من صلتك بابن خالها الامير فريد . واذا اكتشف الامير انك غريمته فهناك الطامة الكبرى. فسأعرفه بك باسم مريم نعمة الله. فاذا عرف من زكية انك ماري الراهبة قبل ان تنجحي في الحديث معه فلا بد ان يثور غضبه .

فاضطربت ماري الراهبة شديد الاضطراب وقالت : المأزق حرج فما رأيك ؟ الا يمكن ان ترجئي الميعاد الى حين تكون زكية متغيبة

— كلا كلا . ان لم تقابليه الليلة يعدل عن مقابلتك ولا اضمن انه يقبل مني ان اقدم له مطرزة اخرى لكي اقدمك ثانية ولو باسم آخر . فالأفضل ان تقابليه وتتلقي تعليماته فقط وتعودي بلا حديث آخر معه قبل ان تخرج زكية من حجرتها. فهي لاهية الآن بقراءة روايتها . ولعلي بعد ذلك اتوفق الى تعيين ميعاد أفضل من هذا تكون فيه هذه الشكسة زكية متغيبة تغيباً طويلا فيكون لك مجال للاخذ والرد واستعطاف الامير . فامكثي هنا لكي اخبره عن حضورك وحاذري ان يفهم انك ماري الراهبة التي يهواها الامير فريد

وخرجت سارة لمقابلة الامير و بقيت ماري تنتظر وهي تقول : رباه اني واثقة بتوفيقك لي . فان كنت مباركا حبي لفريد تلهمني الكلام السديد الذي يلين قلب هذا الامير العنيد

ثم عادت سارة تقول : ادخلي اليه فهو ينتظرك بذاهب الصبر

* * *

فدخلت ماري الى حجرة الامير وتقربت اليه بكل احترام وقبلت يده قائلة: مساء سعيداً يامولاي . اني رهينة أمرك

فأشار الامير الى كرسي وقال : مساء سعيداً يابنتي . اجلسي

فجلست وقالت : شكراً يامولاي الامير

— هل تحسنين التطريز جيداً

— نعم . يكفي ان تعلن فكر سعادتك فتجده قد تطرز . وما لا يعجب سعادتك يمكن تنقيحه حسبما تشير

فبش لها الامير منعما النظر وقال: مرحى مرحى ايتها الفتاة . سيماؤهم على وجوههم . ان الذكاء كضوء الشمس يبدو حتى من خلال الغيوم

ـ اني لشديدة الاغتباط يامولاي بحصولي على هذا الثناء وان كنت لا أستحقه

— سنرى . هل تحسنين تطريز مظاهر الطبيعة كلها ؟

— نعم ان شاء الله

— هل تستطيعين أن تطرزي جبالا مشرفة على بحر بينها ساحل ذو مروج خضراء

— هذا رسم بسيط يامولاي

لا اطمع بغير اتقان هذا البسيط . وانما اريد ان يكون في وسط الديباجة هذه الصورة

وقدم الصورة لها فتناولتها وقالت : نعم

— ولكني لا أريد أن تأخذي الصورة معك . الا يكفي أن تأخذي مقاسها ؟

وكانت ماري تتأمل الصورة تأملا عميقاً استلفت فكر الامير وقالت : نعم يكفي يامولاي . اسمح لي بكرتونة نقطعها بحجم الصورة

— لك ذلك

وصفق فحضرت سارة وأمرها أن تأتي بكرتونة ومقص. وخرجت سارة فقال الامير : مابالك تتأملين هذه الصورة ياعزيزتي

— اظنني شاهدتها قبلا

فبغت الامير وقال : شاهدت هذه الصورة ؟

— لعلي شاهدت نسخة مثلها

فقال الامير بلهفة ، أين ؟ عند من ؟

— حلم سيدي الامير . لعلها تشابهها . وما هي مثلها

— لا بأس . مع من شاهدتها ؟ أين ؟

فارتبكت ماري وقالت : لعلي متوهمة يا سيدي فان الملاح تتشابه . وكثير من الاشخاص يتشابهون

— لا بأس . اين الصورة المشابهة لهذه . مع من هي ؟ هل يمكنك ان تأتي بها لنقارنها بهذه ؟

لا أدري ياسيدي . ولا أتذكر جيداً اين شاهدت مثلها . اذا كنت سعادتك تطيل اناتك عليّ فقد يمكنني أن ابحث عن الصورة التي شاهدتها . وان استطعت ان آتي بها اليك فلا أتردد

— يكون لك جزاء عظيم تقدرينه كما تشائين

— اذا كانت النسخة التي شاهدتها تهم سيدي الامير بهذا المقدار فأبذل كل جهدي في الحصول عليها وحسبي رضاؤه اعظم جزاء.

بورك بك يا بنيتي ان كرم اخلاقك يضارع ذكاءك. وندر ان وجدنا ذكاء غير مقرون بكرم الاخلاق . ثقي انك اذا اتيتني بالنسخة الاخرى من هذه الصورة وارشدتني الى من هي عنده فاني أدفع المكافأة التي تعينينها مهما كانت غالية

— لست أطمع بمكافأة غير رضائك يا سيدي

عندذلك دخلت ساره بالكرتونة والمقص وغمزت ماري ان تعجل وخرجت

واستمر الامير بالحديث فقال: ما اسمك الكريم يابنيتي ؟

فاضطربت ماري مخافة ان يسوقها الحديث الى ذكر حقيقتها التي كانت تريد كتمانها . وقالت : اسمي مريم نعمة الله ياسيدي الامير

— اسم كريم شريف لفؤاد ذكي كريم . طوبى للوالدين اللذين ربياك. هنيئاً لهما بك

فاشتد اضطراب ماري وخوفها من ان انمادي في الحديث يفضح امرها وما وسعها الا ان تقول: انهما يهنآن في جنة الله ياسيدي

— انت يتيمة اذاً . يسرني أن اكون لك كأب تجدينه عند الملمات

— الف شكر يا مولاي

— نعم . ثقي اني اكون لك كأب . فابذلي جهدك في الحصول على النسخة الاخرى من الصورة . اين شاهدتها ياترى؟

فاشتد ارتباك ماري وقالت متلعثمة : ان صدق ظني فاذكر اني شاهدتها مع صديقة لا أتذكر الآن من هي . سأفتكر . ولعلها ليست نسخة منها بل تشبهها . سأبذل جهدي في الحصول عليها على كل حال

— اني ممتن جداً

وأنمت ماري قص الكرتونة على مقاس الصورة وهي تقول : أعتقد ان حظي سعيد يا مولاي الامير بتوفقي الى نيل رضاك . ولا بد ان يتم هذا التوفيق بالحصول على الصورة باذن الله

فابتهج الامير بوعدها وقال: وفقك الله . متى انتظر عودتك بالديباجة

— في مدة اسبوع ينتهي التطريز فأتشرف بالمثول لدى سيدي الامير

— والصورة ؟

— ابذل جهدي يامولاي

— حين تحظين بالصورة شرفيني بزيارة وان لم ينته التطريز

ووقفت ماري وقبلت يد الامير

— اسعدت مساء ياعزيزتي . وانما يجب أن اقدم لك عربوناً مقدماً

— كلا يامولاي . بل من يتشرف بخدمة الامير يجب ان يدفع عربوناً لوفائه بوعده

فضحك الامير وقال: ما الطف ذكاءك وأجمل عواطفك . وفقك الله

ثم ودعته وخرجت

* * *

والتقت ماري الراهبة بسارة في رحبة المنزل فقادتها هذه الى غرفتها قلقة بعض القلق وسألتها : كيف كانت المقابلة يامارى ؟ هل عرف حقيقة امرك ؟

— لا . بل كانت المقابلة حسنة جدا اني مستبشرة خيراً . لقد تمهد السبيل جيداً للحديث في المقابلة القادمة ونلت نعمة في عيني الامير . لقد تباحثنا ملياً في شأن التطريز وسأطرز له ديباجة تعجبه كل العجب . وحينئذ اظنني استطيع مباحثته بشأن فريد في المقابلة القادمة حين اقدم له الديباجة. ولعلي انجح في كسب رضائه لانه نظر اليّ نظرة اعتبار . واعتقد انه سيغير ظنه بي. وسيرى ان للقيطة قلباً نبيلا كقلب الاميرة واخلاقاً شريفة كاخلاق الاشراف. لسوف يرى ان مريم نعمة الله اللقيطة الملقبة بماري الراهبة تصلح زوجة لابن اخيه . وان لم أتوفق الى نيل رضائه فيكون الله غير مريد لي هذا الزواج. فابذل جهدي في اقناع فريد ان يضرب صفحاً عنه

فقالت سارة : اخاف الاّ تنجحي في اقناع فريد . فقد علمت انه عنيد مصر على عزمه

— حينئذ اعود الى الرهبنة واضرع الى الله ان يشفيه من داء غرامه وان يرحم فؤادي المنسحق والله سميع مجيب

وكانت ماري تغرورق عيناها بالدموع

فتنهدت سارة وقالت . آه . لا ادري كيف تنتهي هذه المشكلة المعضلة . اني موجسة شراً من زكية ابنة اخت الامير فقد بلغ حنقها حده . الافضل ان تخرجي الآن قبل ان تعلم بوجودك هنا لئلا يحدث مأساة بينكما

وكانت سارة قد امسكت بيد ماري واتجهت الى رحبة الدار . ففوجئنا باقبال زكية . فاسقط بيد سارة وارتبكت . واما ماري فتجلدت وشجعت قلبها . واما زكية فانتفضت غاضبة وقالت مقطبة حاجبيها : ما شاء الله ! ما شاء الله . تدسين الدسائس ضدي في بيتي ياسارة . أبعد ان اكلت الخبز والملح في بيتي تكيدين لي المكايد ؟ لقد اخذت في هذه الآونة احس بوخز اشواك كيدك في جنبيّ فؤادي

فقالت سارة معتذرة : عفواً ياسيدتي . انك تبالغين بسوء الظن بي وقد ثبت لك اخلاصي وصدق خدمتي كالصبح

فقالت زكية وهي تزداد اضطراباً وهياجاً : ابالغ بسوء الظن بك؟ اذاً ،ماشأن هذه الفتاة هنا ؟

فقالت سارة منتحلة سبباً معقولا : هل غريب ان تكون لي علاقة شغل مع خياطة. ألست مرأة احتاج الى خياطة ثوب ؟

فقالت زكية : اجل غريب ان تكون لك علاقة مع فتاة تعلمين انها غريمتي . واغرب منه ان تكون هذه العلاقة من غير علمي . الا تعلمين ان هذه الحية الرقطاء تنازعني سعادتي وتطعن فؤادي بنبال كيدها السامة . لاريب انك تعلمين انها تغري ابن خالي فريداً لكي يحول قلبه عني اليها

فما وسع ماري الراهبة الصمت عند سماع هذا القدح بها فقالت متجلدة بكل تؤدة : انك ياسيدتي تعزين اليّ قوة الآلهة في تحويل قلب ابن خالك . وما انا الا انسان . والقلوب في يد الله يوجهها حيث يشاء

فقالت زكية وهي ترتجف من الغيظ : والافعى التي استطاعت ان تخدع حواء وآدم تستطيع ان ترد قلباً عن وجهة الصواب التي وجهه الله فيها

فقالت ماري معتصمة بالصبر والحلم : لست ياسيدتي اعرف من ابن خالك فريد بوجهة الصواب . فما هو ارعن ولا طائش حتى يجوز عليه خداع افعى . بل هو عاقل حكيم يعلم ان كان الله أو الشيطان يدرب قلبه و يوجه حبه .

فقالت زكية متجلدة : نعم انه عاقل وحكيم ولكل حكيم هفوة . ولقد غشي دهاؤك الشيطاني على بصيرته فأعماها عن الصواب، والا لكان يفهم انه لايليق بأمير نبيل ان يعلق لقيطة لاتعرف هي ولا غيرها اصلها وفصلها ، تتعيش من ثقب ابرتها ومن تزلفها الى كرام الناس

فقالت ماري متعملة الابتسام : ان الخياطة اللقيطة والاميرة من خليقة واحدة

انسانية . وكلاهما يقفان لدى الله موقفاً واحداً جنبا الى جنب

فقالت زكية : ولعلك لاتدرين ان الله جعل الناس درجات في الدم والاخلاق فمنهم النبيل ومنهم الساقط

فقالت ماري : وابن خالك الاميرفريد يعلم كما تعلمين و يعلم سائر الناس ان الله جل جلاله جعل بين اللقيطات اميرات في الاخلاق والنبل . فلا تستطيعين يا آنسة ان تحتكري النبل والشرف وسمو الاخلاق

فقالت زكية ساخطة : لله منك وقحة: تريدين ان تختلسي الامارة لنفسك ايضاً . اما كفى انك تحاولين اختلاس قلب امير بل تختلسي النبل والشرف . يجب ان تعلمي ان اللقيطة بنت الفساد . فمهما تصنعت وتظاهرت بالشرف تبقى بنت فساد . ولا يستطيع ملجأ اللقيطات مهما كان طاهراً ان يطهر دمك الدنس يا هذه

فقالت ماري محتجة بشدة : ان الله ينبت الورد من الشوك يا سيدتي . وانت تقطفين الوردة من بين الشوك لكي تزيني بها صدرك . ان كنت أنا بنت فساد كما تزعمين فقلبي بريء من هذا الفساد براءة الوردة من وخز شوكها . فليس لك أن تصميني بفساد

فاستشاطت زكية وقالت : خسئت . ما كنت الا شوكة من الأشواك السامة . ومهما تجملت متصنعة فلا تستطيعين ان تصيري وردة زكية الرائحة . ومهما تفلسفت في تطهير نفسك ففلسفتك لا تطهرك من قذارة الحمأة التي ولدت فيها

فقالت ماري متعملة الابتسام: ياامية. ان شمس قداسة الله تستطيع ان تبخر ماء الحمأة وتصعده وتقطره قطرة ندى صافية تقية بل انقى من ماء الينبوع الذي تشربين منه

فاشتدت زكية حدة وقالت : اقصري . ان هذا الشعر الذي تتخيلينه لا يستطيع ان يرفعك من قمامة الفساد التي نشأت فيها ومنها . فانت في نظر العالم كله لقيطة بنت فساد . فلا تتعبي نفسك في رفعها من قذارتها ولا ان تطهريها من نجاستها . لا تستطيعين لا تستطيعين

فقالت ماري وقد فاضت قريحتها بالحجة: لم يخلق الله شيئاً نجسا يا اميرة. بل الناس نجسوا خلائق الله . والله ينشيء من النجس شيئاً طاهراً . ان البقول والخضرة التي تأكلينها وتستلذين فكاهتها قد انبتها الله في الارض المسمدة بالزبل . ان الارواح طاهرة وانما بعض الناس يلقون بعض هذه الارواح في القاذورات . و بعضهم يقونها من الوقوع فيها و يرفعونها منها اذا وقعت فيها . وقد قيض الله لروحي الطاهرة ديراً مقدساً للراهبات فاخذها من القاذورة التي تزعمين انها نبتت فيها . وحفظها الدير طاهرة الى الآن . فهل تستطيعين يا سيدتي ان تصمي نفسي الآن بدنس؟ هل يمكنك ان تقدحي بادبي واخلاصي . هل لك ان تصمي الروح

المشتقة من روح الله بنجاسة . اني فتاة مثلك على الاقل . فان كان عندك مأخذ عليّ فاذكريه

فسخطت زكية قائلة : اما كفى ياساقطة انك تغري الامير فريداً على ان يحبك وانت تعلمين انه كان مشغولا بحب غيرك ؟ أليس هذا تدنيساً لروح الله ان كنت تزعمين ان كل الارواح مشتقة من روح الله؟ اليس تبذلك لديه لكي يقع في احبولة دهائك نجاسة ؟ الست ترتمين عليه ؟ الست تتواطئين تحت قدميه ؟ الست تخدعينه بابتسامك و بتجملك و بتوددك الافاك ؟

فصاحت بها ماري مستشيطة : كفى كفى ياهذه . لقد اطلت اناتي عليك كثيراً لظني انك ترعوين وتذعنين للحق الصراح فاذا بي اراك تتطاولين على كرامة نفسي وتقدحين بعزتها وتتمادين بشتم وسباب لا يليقان بان يصدرا من نبيلة . فلا تظني ان حبل الحلم لا آخر له

وكانت سارة تضطرب فرقاً من توقع سوء المغبة فكانت تدفع ماري هامسة في اذنها . اخرجي اخرجي واقصري الخصام

واما زكية فقالت: وماذا يهمني من حلمك او نزقك . انك ساقطة ولا اعبأ بساقطة

فقالت ماري : حاذري ان تتمادي بهذا السباب فلا احتمله

— وماذا تفعلين يا خائنة

فقالت ماري مرتجفة غيظاً : اكون مرآتك تعكس صورة نفسك

— ماذا تعكسين من صورة نفسي يا فاجرة ؟

— استحي ان اقول لك مثل قولك . فليرتد قولك لك بلفظه

فحمي غضب زكية وقالت: وتجسرين ان تهينيني ياساقطة يادنسة في بيتي

وهجمت عليها زكية تريد أن تلطمها فحالت ساره بينهما . وقالت ماري : ولا يحسن بك يانبيلة ان تكوني في بيتك قليلة الادب مهما كان لسانك قبيحاً . اني خارجة من بيتك ياقبيحة

فهاج طبع زكية وصاحت : أي نعم اخرجي من بيتي يافاجرة والا . .

وهجمت ثانية فردتها سارة وهي تقول: اخرجي بسلام . اخرجي

فقالت ماري : لا اخرج طرداً بل بملء ارادتي . فردي يديك عني ولا تدنسي روحي الطاهرة بهما .

فقالت زكية : ادنسك يادنسة ؟ . اني والله لأقتلنك

واسرعت زكية الى درج واستخرجت منه مسدساً . فقالت ماري وقد ضاع صوابها لا تستطيعين ان تقتلي مني قلامة ظفر

ولكن زكية كانت اضيع رشداً منها فما تمالكت ان حركت زناد المسدس فانطلقت رصاصة منه . ولكن الرصاصة اصابت ذراع فريد لانه في تلك اللحظة دخل حائلا بينهما . وعند ذلك وقعت زكية على المقعد مغمى عليها . هل علمت اين وقعت رصاصتها ؟ لا تدري

أما سارة فصاحت : ويحي ويحي . لا تخشي ياسيدتي زكية شراً . انه سليم

عند ذلك كان فريد قدساق ماري امامه وخرج معها وهو يقول : فديتك يا ماري فديتك . لا تخافي

هل سمعت زكية هذا الكلام ؟ لا ندري: رصاصة انطلقت من يدها الجناية . وقنبلة انفجرت من فم فريد فمزقت فؤادها اذا كانت قد سمعتها.

عند ذلك خرج الامير نعيم الرحابي من خجرته مهرولا و رأى سارة منحنية على زكية تحاول أفاقتها من أغمائها وهي تقول : لا تخافي ياسيدتي . أنها سليمان .

وصاح الامير : ويحكم ، ماذا جدث ؟ أفي بيتي حرب ؟

فقالت سارة : سليم ياسيدي . خزى الشيطان يامولاي . حدثت مناقشة عنيفة بين سيدتي الاميرة وماري الراهبة. فاحتدم غضب الاميرة . فاطلقت رصاصة كانت خائبة والحمد لله

فقال الامير مستشيطا : ويحك ماذا جاء بتلك الشيطانة الى هنا.

فاسقط بيد سارة وارتبكت وتلعثم لسانها. وقالت : جاءت لكي ... (وهنا لاح في ظنها ان الامير لم يعرف بعد ان مريم التي جاءت للتطريز هي ماري الراهبة) فقالت : ... لكي تسألني ان كنت لا ازال أريد تكليفها بخياطة فسطان لي . فرفضت. وصدف ان التقت بسيدتي الاميرة فحدثت المعركة .

فحرّق الامير الارّم على سارة وقال : وكيف تجسر تلك الملعونة ان تأتي لتسألك خياطة .

ثم انحنى فوق زكية وقبلها وقال : زكية . بنيتي . لا تخافي . ليت الرصاصة كانت صائبة . انهضي. لا تجزعي . فديتك

فانتعشت زكية وقالت : ويلاه ! ماذا فعلت ؟ هل أصيب فريد باذى

فقال الامير مبغوتاً : وما شأن فريد ؟

فقالت سارة مرتجفة هلما : اتفق ان سيدي الامير فريداً دخل فجاءة فحال بينهما ولعل الرصاصة خمشت ساعده . ثم ساق ماري طرداً ومضى

فقال الامير : تباً لهذا الاحمق . الا يزال كالطفل لتلك الساقطة. هلمي اخبريني يا زكية ماذا جرى

ودخل الامير يقود زكية الى حجرته

***

ما هي الا هنيهة حتى دخلت الراهبة اغناتيا فاستقبلتها ساره وجلة مرتعبة وقالت هه ! سيدتي الام اغناتيا ، ويلي ما الذي جاء بك الى هنا في هذه الساعة المشؤومة ؟

جئت لكي اتفقد عزيزتي ماري واعلم ماذا كانت نتيجة المقابلة . فمالي اراك مضطربة. ماذا حدث؟ هل غضب سيدك الامير وأتى شراً بالفتاة ؟

— هلمي أختبئي في غرفتي يا مولاتي والا فاخاف ان يحدث اعظم مما حدث

فدخلت الراهبة معها وهي تقول : ماذا

جرى هل أصاب ماري أذى من الامير؟

— كلا ياسيدتي . وانما حدث خصام بين زكية وماري افضى الى شبه جناية . وانما كانت سليمة والحمد لله

وهنا روت سارة باختصار ماذا جرى. ولما انتهت من حكاية المشاجرة سألت الراهبة : وهل قابلت ماري الامير

— نعم قابلته وكانت المقابلة حسنة جدا كما فهمت من ماري

— وهل كان جرح فريد داميا ؟

— لا ادري ولكنني اثق انه غير خطر . لانه اخذ ماري ومضى وقد شعرت انهما ركبا اتوموبيلا ومضيا

— نعم رأيتهما في الاتوموبيل ولم يرياني. وماذا قال الامير وفعل بعد الحادثة ؟

— من حسن الحظ ان الامير الى الان لم يدر ان الفتاة المطرزة التي كانت عنده هي ماري الراهبة . ولم يرها بعد الحادثة لانه جاء على صوت العيار الناري فكانت قد خرجت مع فريد

فقالت الراهبة : حسناً جداً . اذاً لا يزال برنامجنا كما هو

فقالت سارة موجسة : لا لا ياسيدتي . لا اقدر ان اعدك باني انفذ البرنامج بعد هذا الحادث المشؤوم ولا سيما لان الامير مصر كل الاصرار على قصده. وقد باحثه الدكتور يوسف المعني في هذا المساء في الموضوع طويلا . وقدرت ان اتسقط بعض الحديث حين قدمت الشاي ففهمت ان الامير لا يتنازل عن رأيه . فبربك اعفيني من هذه المهمة

فحملقت الراهبة في سارة كما يحملق المنوّم المغنطيسي وقالت منتهرة: سارة .سارة لقد وعدت ان تكوني طوع أمرى فلا تخلفي وعدك لئلا تخسري رضاي

فوجفت سارة وقالت : مولاتي ان المسألة اصبحت خطرة. واخاف ان يصيبني اذى لا قبل لي على احتماله

— ساره ساره . قلت لك اني ملاكك الحارس . لا يستطيع احد ان يصيبك باذى وانا في قيد الحياة. استمري في تنفيذ البرنامج كما اوحيت اليك ودربتك وعيني مراقبة ولو كنت في حجرتي في ديرى . فلا تحسبي حسابا لاذى بل كوني جريئة حكيمه كما اعهد في ذكائك ودهائك وعيني ترعاك

— كيف استطيع يا سيدتي ؟

— يجب ان تهيئي لماري مقابلة اخرى

— المقابلة مهيئة يا سيدتي. فقد تعهدت ماري ان تطرز الديباجة للامير كما فهمت منها ولا بد ان تقدمها له

— حسناً جداً . اذاً اعتبري الحادث كأنه لم يكن ما دامت مريم المطرزة غير ماري الراهبة في نظر الامير . واذا فشل البرنامج فعندي تدابير اخرى

— اذاً لماذا لا تدبرين تدابيرك الاخرى منذ الآن يا مولاتي فلعلها أضمن نجاحاً من برنامجنا الخطر

— لا لا . ليس الآن يا سارة . لكل تدبير زمان . ان آخر سهم في كنانتي سيصيب من فؤاد الأمير مقتلا أو سيجعل قلبه الصواني ليناً كالعجين . سيضع حينئذ بنفسه يد ماري في يد فريد . ولكن ليس الآن دور رمي هذا السهم الصائب . لا بد من التمهيد له . اخبريني يا سارة . ماذا قال بشأن الصورة حين عثر عليها

— ظنها صورة قديمة كانت عنده وقد تضعضعت بين أوراقه . فما علم اني أتيت بها ودسستها بين أوراقه . فلما علمت انه ظنها كذلك تركته في اعتقاده

— حسناً جداً . هذا ما كنت اتوقعه . فقد صح ظني . ثم ماذا ؟

— أصبحت هذه الصورة معبوده المقدس . وسألني ان كنت اعرف من يطرز له ديباجة يضع الصورة فيها . فحالا لاح في خاطري ماري . فارسلت اليها خبراً فقابلتني في السوق واخبرتها بطلب الامير كما علمت منها ولا بد

— بالطبع اخبرتني ماري ذلك . ولكنها لم تعلم كيف وجدت الصورة عنده

— لم اشأ ان اخبرها فابقيت الخبر لك

— حسناً جداً . لقد توفقنا توفيقاً عظيماً يا ساره .

فقالت سارة متعملة الابتسام : وهل عرفت شيئاً عن سر الخيال الذي ظهر للامير

فقالت الراهبة باسمة : لا تسألي فيما لا يعنيك . دعي الامير في اقتناعه ان الصورة كانت ضائعة عنده فوجدتها له . ان البرنامج أصبح أصح جداً وأفضل مما وضعته

فرفعت ساره نظرها في الراهبة وقالت : مولاتي اكاد اشك انك راهبة رئيسة دير للراهبات . يتراءى لي انك بسمرك زمانك

فقالت الراهبة باسمة : بل أنا رئيسة الدير كما تعلمين ويعلم كل الناس . ولكن بين ضلوعي قلب الجبار الذي لا يصلى له بنار . سانصب للامير الميزان ، وأرده الى التوبة قبل ان يقابل الديان . وانما يجب ألا يعلم أحد سواك ان يدي تعمل من وراء الستار . فحاذري ان تفوهي بكلمة والا خسرت رحمتي ونعمتي وكسبت نقمتي . ان سعادة بنتك متوقفة على طاعتك لي

ثم خرجت الراهبة من غير ان يدري بها أحد سوى علي البواب وهو لا يدري شيئاً من أسرار دخولها سوى انها راهبة تزور أو تسأل احساناً لملجأ كما تفعل بعض الراهبات .

وبقيت سارة بعد ذلك مبهوتة برهة وهي تفكر فيما كان وسيكون الى ان قالت على مسمع نفسها : ويلاه : أملاك هذه الراهبة أم شيطان رجيم ؟ ان في صدرها كتاب أسرار . ما شأن هذه الصورة عند الامير . ولماذا يتعبدها ؟

الفصل الحادي عشر

رمز الفراء

جري الاوتوموبيل يقل قلبين خافقين خفوقا يكاد يسمعه الحوذي لولا دوي العجلات . قلب ورقاء يخفق اضطرابا ، وقلب بلبل يخفق اطراباً . و يقل روحين مرفرفتين . كحمامتين تسبحان في الهواء جنباً الى جنب: روحاً في ذهول وروحاً في ثمول

بعد هنيهة التفتت ماري الى فريد فرأى في وجهها صورة هلع فؤادها . ورأت في ابتسامته سنى بشر نفسه. فقالت اين وقعت الرصاصة ؟

فقال : في موقعها الحميد

ووقع نظرها على ذراعه فانقضت قائله ويحي ارى الدم يسيل ظاهراً على كمك . يجب ان نقف عند صيدلية لفحص الجرح وتضميده

— لست احسب حسابا لجرح جسماني ما دامت النفس سليمة من الجروح

— الدم يسيل

— لا بأس. عندى منه كثير وربما كنت في حاجة الى الفصد

— رحمة بي لا استطيع مشاهدة الدم

— غضي نظرك عنه ياعزيزتي

— ولكن عين نفسي لا تغض . يجب ان نقف عند الصيدلية

— لا نقف الا امام الدير

واخذت ماري منديلها من حقيبتها وعصبت به ذراع فريد وقالت : اذاً هناك. اسرع ياحوذي

بعد هنيهة قالت : كيف وجدت في بيت عمك في تلك الساعة المشؤومة

— ان ضميري ساقني الى هناك عاجلا لكي اصل في ميعاد المعركة

— كيف علمت بها

— نجلاء اخبرتني انك ذهبت لمقابلة عمي فاوجست من عقبى هذه المقابلة واسرعت بهذا الاوتوموبيل

فتأوهت ماري وقالت : لقد ندمت على ما فعلت

— لماذا جئت الى عمي

— جئت اتوسل الى استرضائه

— لقد اسأت قصداً اذ لا شأن له

بعد سكوت هنيهة : قالت اني شاعرة يافريد بوقر جرم على ضميري

— لا افهم ماذا تعنين

اعني اني ارتكبت جريمة ضد بنت عمك زكية

فانتهرها قائلا : ماري. ماري لا تجحدي سلطان الحب . ولا تكفري بالهه . ليس

لزكية شأن البتة . الشأن شأني وحدي. فان كنت تجرمين فضدي جريمتك تكون . ولكن حاشا للملاك الطاهر ان يرتكب أثماً

فقالت متضرعة باكية : فريد . بلى اني أثيمة في هذا الحب الذي يسبب هذه الحوادث. فبربك لا تدعني اتمادى في أثمي سامحني واعذر رجائي لك ان تؤذن لي ان الازم الدير وهناك احبك حبا أبديا سليماً من الآثام واصلي لاجلك

— ان لك ديراً واحدا هو قلبي الذي ينبض دم الفداء لك . ففيه تمجدين الله وتسبحينه. وليس ليد غير يد الله تصل اليك في هيكل هذا الدير

وساد الصمت بينهما الى ان وقف الاوتوموبيل امام بوابة الدير فنزلت ماري ونزل فريد وقرع البوابة فانفتحت . فقالت ماري هلم ادخل لتضميد جرحك

فقال ادخلي أنت بسلام واطمئنان .

وما ان دخلت حتى اغلق فريد الباب واستقل الاتوموبيل بسرعة وأمر الحوذي فجرى وفريد يسمع نداء ماري اذ فتحت البوابة ثانية. وفي هنيهة توارى عن بصرها

***

تواً الى منزل مربيته نجلاء مزهر. ولا تسل عما كان هلع قلب نجلاء اذ رأته معصوب الذراع والدم سائل على كمه. فقال لها باسما : لا تجزعي فقد اشير علي بالفصد فانفصدت

وخلع فريد معطفه وشمر عن ساعده ورأى في الجانب الوحشي في العضل جرحاً بطول قيراطين فجسه فما شعر بوجود رصاصة . ولما رأت نجلاء الجرح ولولت وصاحت: ويلي! مع من اختصمت يا بني.

— لا تقلقي ياأماه. لست ممن يختصمون الا مع القدر . والقدر دائماً غالب وانا مسرور بحكم القدر . فلا تجزعي . الجرح بسيط جداً . وما هذا الدم الا رمز الفداء.

— يجب ان استدعي الدكتور يوسف حالا . اجلس ولا تتحرك كثيراً لئلا يتدفق الدم

واسرعت نجلاء الى اقرب تليفون واستدعت الدكتور يوسف . وبعد نصف ساعة كان الدكتور يوسف يفحص جرح فريد ويطمئنه انه بسيط ثم ضمده . وفيما هو يفعل ذلك سأل فريد عن سبب الجرح فروى فريد من الحادث ما علمه وما فهمه من سبب الخصام بين زكية وماري

***

في صباح اليوم التالي دخلت وطفاء ام فريد الى بيت نجلاء دخول الحمامة الى عشها الذي رأت افعى تنسل منه خاطفة احد صغاره وانطرحت على المقعد واهية القوى . وقالت بلهفة الام: ويلي . فريد! ماذا جرى لفريد يا نجلاء ؟

— لا تخافي ياسيدتي . فريد بخير والجرح بسيط وقد ضمده الدكتور يوسف وقال انه يبرأ في اسبوع

— ويحي . لم اعلم الا في هذا الصباح بما حدث اذ زارني الدكتور يوسف وطمأنني فلماذا لم تخبريني منذ أمس يا نجلاء

— لم أرَ داعياً لازعاجك يا عزيزتي . ولا سيما بعد ان طمأننا الدكتور وقال انه سينقل لك الخبر ويطمئنك. فلا تجزعي المسألة بسيطة . خزى الله الشيطان . كان سبب الحادثة ثورة عواطف من قبل زكية

— لقد روى لي الدكتور يوسف الحادثة كما علمها من بيت الامير أمس اذ دعي لمعالجة زكية التي كانت كالمجنونة على أثر الحادثة . آه يا نجلاء . اني خائفة على فريد

— لا تخافي يا سيدتي . أما طمأنك الدكتور ان جرحه بسيط ؟

فقالت وطفاء حزينة ذليلة : ليس الجرح في ذراع فريد بل في فؤادي يا نجلاء . جرح فريد سيبرأ . واما جرح فؤادي فيتسع يوماً بعد يوم . لقد انقضى اسبوعان وهو لا يأتي الى البيت الا نادراً كأني خصمه أو عدوه . ولا ذنب لي الا اني انصح له ان يطيع عمه

— ان فريداً ابنك الطائع يا سيدتي الاميرة ولا يخرج من تحت طاعتك

— ولكن الناس يرون غير ذلك يا وطفاء . ولا ريب انهم يتقولون الآن ما يشاؤون في وجود ابني جريحاً يستشفي في منزل غير منزله

— لقد نصحت له كثيراً يا سيدتي ان يقيم في منزله فاكون في خدمته حيث يكون . ولكنه أصر على البقاء هنا

فطفقت وطفاء تبكي . ثم قالت : نجلاء انه يفهم لغة قلبك لا لغة لسانك . اذا قلت له ان اذهب الى منزلك سمع قلبك يقول : بل ابق هنا . ان قلبي يتظلم من قلبك يا نجلاء فبربك انصفيه . اتضرع اليك يا نجلاء ان تقبليني شريكة لك في ابني . رحمة بفؤادي الجريح . ليس لي ابن آخر . فاقنع بنصفه . ان قلبه في يدك فامنحيني نصف ذلك القلب

واغرقت وطفاء في البكاء فقالت نجلاء عفوك يا مولاتي . لا تبالغي في الضراعة . انها توبيخ لي وتقريع لجناني . ان فريداً ابنك وقلبه كله لك وما انا الا خادمته المخلصة وخادمتك الامينة

— لا اشكو من اخلاصك وامانتك يا نجلاء بل اشكو من شدة عطفك على فريد . عطفت كثيراً حتى اسرت قلبه ولبه بهذا العطف الشديد . ولعلك لا تجهلين ان شدة عطفك هذه تنازعني ابني . لو كنت تكظمين شيئاً من عواطفك نحوه لكنت تنصفين فؤادي . اه فؤادي الكليم

فاغرورقت عينا نجلاء ايضاً وقالت : ثقي ياسيدتي اني خاشنته امس وكدت اجافيه فقام يريد ان يستأجر غرفة في منزل آخر على نية ان ماري تمرضه فخفت سوء العقبى واستبقيته بالرغم مني ومنه

— آه ان علاقتك بهذه الفتاة ماري الراهبة كانت سبباً لالام قلبي العليل يا نجلاء. لا ابغضها لان فريداً يحبها. وانما انقم على الظروف التي افضت الى معرفته بها عندك

— لقد عرفها من قبل ياسيدتي . وما عرفتها الا بواسطته

— ولكنك جعلت بيتك ملتقى لهما

— لم يكن لقائهما عندي منكراً ياسيدتي فالفتاة في غاية من الحشمة والتقوى والذكاء وقد كسبت من عشرتها ومن معارفها كثيراً في الخياطة وهي تأتيني احيانا باشغال استرزق منها

— ما كان أغناك عن الخياطة والاسترزاق منها يا نجلاء لو بقيت في بيتنا الذي قضيت فيه معظم حياتك . رغبت في الحياة الاستقلالية في بيتك. فهل كنت مقيدة في بيتي ؟

— عذراً ياسيدتي. ما استقللت في بيتي الا لاني صرت اشعر اني بعد وفاة المرحوم الامير اصبحت عالة عليك وانا لا ازال في ملء قوتي ونشاطي. فوددت ان ادخر من عرق جبيني لايام شيخوختي

— لا الومك يا عزيزتي اذا كنت لا تقتنعين بما قسمه الله لنا مهما قل بعد وفاة زوجي. والا فبيتي بيتك ولك فيه ما لنا مهما قل . فليتك يا نجلاء تقنعين فريداً ان يعود معك الى بيته . ونحن نتدبر في عيشنا بحكمتك واقتصادك . لقد عزمت ان اعيش في بيتي مع ابني عيشة الراهبة . زهدت بالدنيا واباطيلها . حسبي ان أرى ابني في سلامة وعافية سعيداً بحياته . ولعلنا اذا اجتمعنا في منزلنا نشفيه من حب ماري وثم نزوجه ابنة عمته زكيه فيتصرف بتركة ابيه ولو كانت قليلة ثم يتصرف بتركة عمه وهي وافرة . وحينئذ لا تعودين تشعرين انك عالة بل ام لها حقوق الام مثلي

هذه هي العقدة المستحيلة الحل ياسيدتي الاميرة . ليس حب فريد لماري الراهبة بالداء الذي يشفى . بل فصله عنها هو المرض القاتل . ولقد كنت في هذا الصباح اناقشه بالامر على غير جدوى. فحاذري ان تباحثيه بهذا الموضوع لئلا تقتلي فؤاده. لقد نصحت له كثيراً فازداد تعلقا بالفتاة . ان عدو فريد من ينصح له بالافلاع عن حب ماري . فحاذري ان تفتحي له هذا الموضوع لئلا تخسري طاعته وحبه

واسترسلت وطفاء بالبكاء وقالت . ويلاه كيف يستطيع ان يعيش رب عيلة بماهيته . وهو في غنى عن كل عمل لو انتصح بنصح عمه . رباه كيف جعلت للحب سلطاناً عاتياً يفتك بالصواب والرشاد . رباه ان كانت هذه ارادتك فاضرع اليك ان تجعلها ارادة الامير نعيم ايضاً . دعيني أراه يا نجلاء

* * *

وكان منزل نجلاء مزهر مؤلفاً من ٤ غرف صغيرة في صف واحد تفتح أبوابها

على رواق أو ممشى محاذ لها جميعاً . وكانت الغرفة التي فيها فريد الثالثة . وكان اجتماع نجلاء ووطفاء في الغرفة الاولى لانها معدة لاستقبال الزائرين والثانية للخياطة

دخلت وطفاء الى غرفة ابنها فوجدته ملقى على مقعد (شزلون) وهو يقرأ : فانحنت عليه تقبله قبلات أم مكسورة الخاطر جريحة الفؤاد

فبادرها بالقول : نهارك سعيد يا أماه . اني والحمد لله بخير

فبشت وطفاء بالرغم من سح دموعها وقالت . هل عندك حمى يا بني ؟

— لا حمى عندي . فالجرح بسيط . وقد قرر الدكتور يوسف المعني انه يبرأ في اسبوع

— احمد الله ان عقبى الحادثة كانت بسيطة والله لطف بي و بك . ولو اصابت الرصاصة صدرك .... لا سمح الله .... ويحي ! ماذا يكون . احمد الله انك سليم واعتقد ان الحادث رد لك صوابك . ولا بد بعده ان ترعوي

فتجهم فريد وقال : كانك تلقين تبعة الحادث عليّ

— لا اظنك تجهل يا ابني ان تصرفك في هذه الاوان أفضى الى هذا الحادث المشؤوم

— لا أرى في تصرفي ما يخالف المألوف من تصرفات سائر الناس كل يوم . ولكن مثل هذه العاقبة لا تحدث الا اذا كان في الحادث مجنونة كزكية . اني مسرور من هذه النتيجة اذ برهنت لك ولعمي شر قلب تلك المجرمة التي ازعجتموني بامرها

— لا تقل انها مجرمة يا بني . كادت تموت أمس من شدة الانفعال والغم والخوف عليك . ولو لم يواظب الدكتور يوسف على علاجها و يبذل خالها جهده بأن يسكن روعها ويطمئنها لقضت نحبها . بقيت كل الليل تهذرم كالمجنونة . وحاولت غير مرة ان تقتل نفسها . ليس الشر من طبعها يا ابني . وانما حبها الشديد لك والتفافها بخصيمتها ماري الراهبة في منزلها هاجا غيرتها . فاعمت الغيرة بصيرتها حتى اضاعت صوابها . فهي معذورة والقضاء يعذرها اذا شرحت له سبب جريمتها

— وأنا أعذرها وقد سامحتها من صميم قلبي . وحمدت الله ان الرصاصة لم تصب ماري والا لكنت قتلت زكية وقتلت نفسي على الاثر . فاحمدي الله يا أمي ان الرصاصة أصابت ذراعي فكانت أثمن تحفة قدمتها زكية لي

فتململت وطفاء وقالت: بنيّ ! ما هذا الكلام الذي اسمع ؟ هل نسيت من أي نسب أنت ؟ وهل يليق بابن الرحابي أن يفعل ما أنت فاعل ؟ تسكن في بيت غير بيتك . وتنقاد لفتاة لا تكاد تصلح خادمة لك . ولو لم تتلقفها الراهبات من عالم الخفاء

وير بينها لكانت . . . من يعلم ماذا يكون؟ فهي لقيطة مجهولة النسب ثمرة جريمة دنسة يتبرأ منها أبوها بل أمها لو عرفاها

فاعتدل فريد في مقعده متحمساً وقال: لا تصمي الفتاة باثم أبويها . ان بين ضلوعها قلباً اطهر من الملائكة ، وفي قلبها نفساً أشرف من نفوس الملوك

— لست أعيبها بشيء يا ابني . وبنت عمتك زكية طاهرة القلب وشريفة النفس كماري على الاقل وتزيد عليها بشرف النسب

— ان نور الحب يا أماه كأشعة رنتجن التي تكشف القلوب بل هو أقوى من هذه الاشعة اذ يكشف الضمائر . فنور الحب هذا يريني في هيكل ماري اقنوماً ارفع نسباً وأشرف حسباً من نسب زكية وحسبها . فلا تظني ان زكية تضارع ماري بشيء . شتان ما بين الثريا والثرى

فتجهمت وطفاء مستاءة شديد الاستياء وقالت هل نسيت وصية ابيك المقدسة التي وكل فيها الى عمك الامير نعيم تنفيذها ؟ وهي توجب عليك ان تتزوج احدى قريباتك لكي يحق لك ان تتصرف بميراث ابيك فضلا عن ميراث عمك الكبير اذ اشترط عمك مثل شرط ابيك لكي تتمتع بثروته . فلا تغضب روح ابيك التي تراقب الان حياتك وتصرفاتك. فاكرم روح ابيك يا بني لكي يوفقك الله

— ان روح ابي في عالم الحق الان حيث لا يتلوث الحق بادران الاهواء والشهوات وحيث لا تخضع الضمائر لتأثير المكايد والدسائس . ولو كان في امكان تلك الروح ان تظهر الان وتعرب عن ارادتها لكانت تبادر الى الغاء تلك الوصية الجائرة التي كتبها ابي بتأثير عمي عليه لا بملء ارادته هو ، لان تلك الروح هناك تعلم ما لا يعلمه البشر تعلم ان القلب الانساني مطلق الحرية ولا سلطة ارضية تسيطر عليه غير سلطة الحب . وان الانسان ولو كان معتقداً بشرائع وعادات مختلفة يجب ان يكون قلبه حرا مطلقاً يغزو الجمال الروحاني حيث يراه كما تغزو النحلة الرحيق في اي زهرة . فاعلمي يا اماه ان روح ابي تكون مسرورة بحمايتي لقلبي من ظلم وصيته وناقمة على عمي لانه يضغط على فؤادي. ولا يؤلم روح ابي الان الا الندامة على تلك الوصية التي يكايدني بها عمي

فتنهدت وطفاء ملء صدرها وقالت : يا ابني ليت روح ابيك تتجلى لعمك وتقنعه بشر عنادة. ولكن الارواح لا تظهر وعمك لا يلين ولا يعدل عن قراره. فما اعظم خسارتك بعصيان ارادة عمك

لا تأسفي يا اماه اني بحب ماري اسعد الف مرة مني بنيل ميراث عمي وابي بل اني اشعر ان ذلك الميراث علة شقائي اني قانع بما اكسبه من وظيفتي وهو مع قناعة ماري كاف لضمانة سعادتي بحب ماري. واما انت فالراتب الذي يدفعه لك عمي كل شهر اذا كان لا يكفيك فاقسم لك حصة من ماهيتي . لا اظنك تطلبين مني اكثر من هذا

فتململت وطفاء وتنهدت وقالت: لست اطلب منك رزقا يابني بل اطلب منك حبا وطاعة وسمعا لنصحي واحتراماً لارادة روح ابيك. تلك ارادة ابيك في حياته يابني وليس في وسعك ان تتكهن عن ارادة روحه في مماته. وهي ارادة عمك ايضاً. بل هي ارادتي انا ايضاً

وهنا نزقت وطفاء قائلة: انا امك ولي عليك سلطة الام، وعليك واجب الطاعة لي

فاعتدل فريد جيداً في مكانه وتجهم محملقاً في امه وقال بنزق: الآن وقد بلغت الخامسة والعشرين صرت تدّعين سلطة الام عليّ؟ متى كنت امي؟

فانتفضت وطفاء غاضبة وقالت: ويحك يافريد: كيف تجسر أن تقول هذا: لست من لحمي ودمي؟

— بلى. ولكنك لم تكترثي ان تنشئي مملكة البيت لكي تكون لك سلطة ملكة البيت. لو خيّرت ماولدتني، بل اندمت على ولادتي. ولم تشائي ان تلدي اخوة لي. فانت ضيعت المملكة من يدك والآن تطالبين بالسلطة. فاين المملكة؟

فارتعدت وطفاء وتأثرت شديد التأثر وقالت متحمسة: ويحك هل بلغ منك الضلال أن تجرأ بهذا القول الهراء؟ كنت ولا أزال ملكة بيتي وحسبي أن تكون أنت مملكتي التي قسم الله لي بها. فتعهدت ملكي مدة خمس وعشرين سنة. لقد ربيتك كل شبر بنذر. والآن تجحد نعمتي؟

فتهيج فريد وقال: راجعي تاريخ ملكك منذ فتحت عينيّ لنور الكون. أما طرحتني بين يدي نجلاء مرضعتي وقلت لها: هذا يانجلاء ابنك لاابني فاعتني به وبتربيته؟ وقد لبت نجلاء أمرك أفضل جداً مما تلبيه أم

فاضطربت وطفاء جزعة وازمهرت عيناها وقالت: أذاً أنا أثمرت ونجلاء قطفت الثمرة. رباه! أهذا قضاؤك أم هو عقوق الابن الضال؟ أكان ذنباً يابني ان أقتني لك مرضعاً مربية تعينني في خدمتك؟ أكان جريمة أن ابذل المال لاجل تربيتك؟ أهكذا تجازى العناية التي لا يبذلها في التربية الا سراة الناس وأهل النعماء

— لقد غذيت جسدي ياسيدتي والبست بدني. وأما نفسي التي لا تتمتع بالطعام طيباً أو قشفاً او بالكساء ناعماً وخشناً بل تتمتع بالحب وحده، فلم تجد حباً وعطفاً الا في حضن نجلاء. فخذي ثمرة تعب جسدي ودعي زهرة نفسي لنجلاء

فهاجت وطفاء غضباً وقالت ساخطة: يالله العقوق! الله ينصفني من عقوقك

فوقف فريد متهيجاً ايضاً وقال: مهلا اتتهمينني بالعقوق؟ دعينا نتحاسب حتى يبان لك البر من العقوق. هل تذكرين انك تركتني وأنا في التاسعة من عمري بين يدي نجلاء واصطحبت أبي الى اوروبا حيث قضيتما الاشهر تطوفان من متنزه الى متنزه ومن ملعب الى ملعب. ولطالما توسل اليك أبي ان تصطحباني معكما فأبيت لكيلا يكدر

وجودي معكما صفو هنائك ؟ هل نسيت هذا ؟ اما أنا فلن انسى . هل تذكرين يوم انتابتني حمى الطيفوئيد وتركتني بين يدي نجلاء تمرضني وتسهر عليَّ وأنت لا تطلين الا اطلال البدر مرات معدودة . وقد خفت ان تقبليني لئلا تنتقل العدوى اليك. أما نجلاء فما كلت عن تقبيلي حناناً ولا ملت احتضاني عطفاً . ولطالما صحوت وانا أراني بين ذراعيها ورأسي بين نهديها؟ هل نسيت هذا ؟ وأما انا فلا أنسى. هل نسيت ان الايام كانت تمضي تباعاً وأنا ذاهب الى المدرسة وانت لا تزالين تغطين في نومك بعد السهر الطويل فلا اجسر ان اقبلك لئلا تستيقظي فكنت اقبل نجلاء وامضي . ثم اعود من المدرسة فلا اجدك لانك في نزهاتك وسهراتك فانام ولا ادري من اقبل قبل ان اضجع في سريري الا نجلاء ؟ هل نسيت هذا ؟ اما انا فلا انسى . هل تريدين ان اذكرك بامور اخرى ؟ والا فاعلمي ياسيدتي ان الام من ربت وعطفت لا من ولدت وتركت

وهنا وهت قوى وطفاء وترنحت وارتمت على المقعد . فاندفع فريد وانحنى فوقها يقبلها وهو يقول أماه ! أماه ! تجلدي ولا تخوري عزماً لدى صوت الحق . ويلاه ! اغمي عليها . نجلاء . نجلاء هلمي . أمي أمي اني ولدك المحب

فاسرعت نجلاء . فلما رأت وطفاء في أغمائها ذعرت وقالت : ويلي . ماذا فعلت بأمك يافريد . ويحك ! قتلتها

— هاتي ماء . هاتي ماء الزهر . لولونيا . ستصحو . لا تخافي ! ان لطمة الضمير تصرع ولا تقتل

وخرجت نجلاء لتأتي بالكولونيا وأما فريد فانحنى يقبل أمه وهو يقول : ويلاه لقد استيقظ ضميرها بعد غفلة عشرين سنة. لقد روّعها ميزان الدينونة. أخاف أن تكون الضربة قاتلة . ولكنني لم أجر عليها

عند ذلك دخلت نجلاء وفي يدها زجاجة فجعلت تعالج وطفاء حتى تنهدت هذه واستفاقت .

فقال فريد : لقد كان اغماؤها الجواب الوحيد لخطابي يانجلاء . لقد أحرجتني أن أذكرها بشذرات من ماضي تاريخنا

فقالت نجلاء : لقد قسوت ياحبيبي . ما هكذا تعامل الام الحساسة العطوف

فقالت وطفاء وقد زلزل التأثر هيكلها فتقلقل لسانها وتلعثم : رحمة يابني وعطفاً أني عالمة بذنبي العظيم فهل تنفع الندامة والتوبة ؟ رباه اغفرلي . بني سامحني لا أريد منك الا عطفاً

فقال فريد وهو جالس الى جنبها : لك عطفي كله . ولكن لا تجهلي أن لنجلاء مثلك كل عطفي أيضاً .

فقالت نجلاء مستدركة متداركة حسد وطفاء وغيرتها : أن فريداً ابنك ياسيدتي ولا يخرج من تحت طاعتك ولك في قلبه المنزلة الاولى

وحينئذ وكزت نجلاء فريداً وهمست قائلة : كلمها كلاماً لطيفاً . ولا تذكرها اسمي . والا قتلتها الغيرة . بربك أشفق عليها .

وكانت وطفاء حينئذ تقول : لست أنازع نجلاء قلبك يابني . وانما أتوسل اليك أن تشركني معها بقلبك . لقد أصبحت ولا عزاء لي الا برضائك

وهمست نجلاء باذنيه قائلة : قبلها . لا تكن حجراً . كن حياة حساسة

فضم فريد أمه الى صدره وقبلها قائلا : كل عواطفي وقلبي لك . وانما لا تمالئي عمي في محاربة غرامي . واذا لم تحبي ماري فلا تبغضيها . ان ماري لجسمي الروح والحياة فمن يكايدني في حبها يقاتل روحي وحياتي

فقبلته وطفاء وقالت : يباركك الله يا ابني . اني على الحياد . وانما لي حق النصح وأنت في إبان طيشك الآن . وأنا ملاكك الحارس . فاخاف أن تلومني في المستقبل حين تعود الى رشدك وتصحو من غيك فترى عظم خطائك ولات ساعة مندم

فقال فريد : أني في تمام عقلي ورشدي الآن . فلن ألومك قط الا اذا ناوأت ماري . اني مستعد للرضى والقناعة ببسط معيشة . ولن أعدم وسائل النجاح كسائر الناس الطموحين . وأثق أن حب ماري ينشيء في قوة للسعي الى النجاح . وفي الحالتين استغني عن عمي

— المعيشة البسيطة أو مركبة قشفة أو مرفهة انما هي شيء ثانوي يابني وانما الحياة الزوجية التي لم تختبرها بعد هي أساس السعادة أو علة الشقاء . فمن يدري ماذا يكن لك المستقبل . وماذا تفعل حين تخمد نار غرامك وتلتفت الى ماحولك تطلب فخراً ومجداً فلا تجده وتبتغي كرامة فلا تظفر بها . لاترى الا الضعة . وقد ترى الناس يشيرون اليك باصابعهم وهم يتهامسون : هذا هو الامير الذي تزوج لقيطة

— سيرى الناس زوجتي اميرة تفاخر الاميرات بشرف نفسها ودماثة خلقها وسمو عقلها وسعة علمها واخلاصها وامانتها وأما الفخر فاذا لم انله بنفسي فانما هو ضعة ، والمجد اذا لم اصنعه انا بكدي فهو هزأة لي

وهنا وقفت وطفاء وهي تقول : حقق الله آمالك يابني وانالك امانيك . دعني يا نجلاء ارتح في السرير برهة فان قواي واهية

مشت وطفاء متكئة على ذراع نجلاء الى الغرفة الداخلية . وبقي فريد يخاطب نفسه : لله من عباد التقاليد المتحجرة ! فان عقولهم متحجرة ايضاً . والغرور يعميهم عن الحقيقة . يظن الشرفاء انهم من طينة الالهة وغيرهم من طينة البهم . يعتقدون انهم متسلسلون من ارواح الملائكة وان النبل والشرف يجري مع دمائهم في عروقهم . لقد كذب ظنهم . لو استطاعوا ان يستقصوا سلالاتهم لوجدوا انها نشأت من اصول كسائر اصول الناس . وربما كان الاصل دنيئا او وضيعاً .

يترفعون ولا سند لترفعهم الا هذه

الالقاب الفارغة . وقد تكون خداعة اذ لا يندر ان يكون وراءها اخلاق فاسدة . اذا فحصنا الاخلاق نجد بين عامة الناس من هم ارفع منهم اخلاقاً . هذا عمي فقد قيل لي انه ارتكب في شبابه اثماً لا يرتكبه عامة الناس . فلا ارى ان النبل او اللقب وقاه من هذا الاثم . فقد ضحى بحياة فتاة على مذبح شهواته . فلماذا لا يراجع ماضيه . واذا كانت ماري لقيطة وبنت زنى افذنبها هذا ام ذنب والديها . ولو بقيت عشيقة عمي في قيد الحياة وولدت بالزنى ولداً فهل كان يحسب الولد ساقطاً وهو ثمرة شهوته . فلماذا تؤاخذ ماري بجريرة والديها . والله اني لحيران في سخافة هذه الشرائع الادبية .

عند ذلك شعر فريد بوقع اقدام فالتفت الى الباب فأذا ماري داخلة دخول الوجل الحذور واقفلت الباب وراءها

الفصل الثاني عشر

وسام غرام

فبادرها فريد بالقول : فديتك ياحياتي .

فقالت ماري بحذر : هل انت وحدك هنا

— لا بل انت معي في يقظتي ومنامي . اشكر طيفك الذي يضارعك امانة يامارى

فقالت ماري باسمة متهللة : هل نمت مرتاحاً بلا الم ياحبيبي ؟

— بل نمت مسروراً الان روحك كانت تظللني واستيقظت مبتهجاً لان طيفك لم يفارقني حتى الآن . وقد كنت في حديث معه قبيل ان تدخلي

— كيف جرحك

فقال فريد وملء ثغره الابتسام وقد ملأت هشاشته الغرفة : انه لوسام غرام يامارى انه نعمة . فاود الا يبرأ لكي يكون تعويذه لي من كل شر . أن هذه الذراع الجريحة لاقوى الآن منها في كل زمان . تعالي تضمك الى قلبي

وتقدم اليها لكي يضمها فنفرت منه نفور الظبية وقالت : لا تتنازل الى ضعتي ياعزيزي . أبق في سمو مقامك . أحبك كما يحب الشاعر البدر ، ولكنه لا ينساله الا في مخيلته ، واني لسعيدة بهذا الحب . وأواصلك كما يواصل العاشق الطيف وأني لقانعة بهذا الوصل

فقال فريد مجفلا متجهماً . أتؤنبيني ؟ متى ترفعت لديك ؟ اما نفضت عني زخارف إمارتي لكي يبدو لك قلبي عابداً لتمثال روحك الملائكية ؟ لعلك تريدني مقصراً في تعبدي ابهائك . فما قصرت عن قصد بل عن عجز ، لانك ترفعين عن الجلوس في

العرش الذي اقمته لك في هيكل فؤادي فهل تتنازلين ان تقبلي تعبّدي

وركع لديها وأخذ يدها ليقبلها فجذبتها من يده متمنعة وقالت : عفواً يا أميري . أني ارتفع كل يوم درجة في سلم المجد بنعمة حبك ولكنني مهما ارتفعت فلا يمكنني ان أبلغ الى سمو مقامك . أن بيني وبينك ياعزيزي مابين الثريا والثرى . فمهما استقوى جناحاي فلا يستطيعان ان يقطعا بحر الاثير اللطيف الى سمائك . لقد قضى الله منذ الازل ان اكون من طينة غير طينتك، ومهما تواضعت وتنازلت فلا تستطيع ان تنحط الي . فدع روحي قانعة بالاتصال الوهمي بروحك . فحسبها هذا مجداً وفخراً وسعادة

— أن لهجتك هذه مروعة بل قاتلة فماذا تعنين ؟

— اعني اني لروحك متعبدة . وأما لجسدك فلا . لقد خلقت لابنة عمتك زكية وهي قد خلقت لك . فتزوجها ولا تعص وصية ابيك ولا تجحد نعمة عمك . اكون أشد سروراً وهناء اذا رأيتك الى جنب زكية مني الى جنبي

فانتفض فريد وقال متهيجاً : ويحك ! أني منكر ابي وأمي وعمي لاجلك

— تؤلمني شديد الالم اذا جافيت اهلك، تكون إعدوي

فانتهرها قائلا ! ويحك ماذا تقولين ؟

— انصح لك نصح عاشقة لا تبتهج نفسها الا بقبول هذا النصح . يجب ان تعود الى رشدك ، وتعلم ان وصية ابيك ونصيحة عمك اضمنان لسعادتك

فتهيج فريد جداً وقال : كانك تجهلين ان لا سعادة لي الا بحبك ، وانك تقتلين سعادتي بهذا الصد

فقالت ماري متضرعة : أبقى لك روحاً وأما جسداً فأكون للدير . غداً البس ثوب الراهبة فأكون ماري الراهبة لفظاً ومعنى وكل يوم أصلي لأجل سعادتك

فغضب فريد شديد الغضب وقبض على معصمها كالمجنون متهدداً وقال . ويحك ! أن الدير الذي لايقبلني معك انطحه برأسي حتى يتحطم رأسي وتبقى روحي مرفرفة في ذلك الدير

فقالت ضارعة : حلماً يافريد ووعياً وصبراً . أن صلاتي تشفيك من داء غرامك الباطل . ولسوف ترتاح نفسك وتطمئن قانعة بالذكرى . فتجلد ياعزيزي وتصبر برهة قصيرة فتشفى من داء غرامك .

فقال فريد ساخطاً : ماري ماري . لاتفهمين معنى ماتقولين . أنك تدفعين نفسي الى الويل . هل تظنين اني احتمل هذا الويل ساعة واحدة؟ مهلا لاتدخلي الدير قبل ان تحضري مأتمي . ان كنت مصرة على دخول الدير فأجعل ماتمي الآن . لا أؤخرك عن ديرك لحظة

وطاف في الغرفة كالمجنون كانه يبحث

عن سلاح فجرت وراءه جزعة وهي تقول بربك يافريد . اتئد هدىء روعك . وألا فاعلم اني اجعل مأتمي قبل مأتمك . ما أنت اشد مني نكراً للحياة بلا حب . ان بيني وبينك جسر الموت . فأذا اصررت على قصدك اعبر هذا الجسر قبلك ، حتى اذا لم ترعو استقبل روحك في الجانب الثاني حيث لا تحول الباطيل العالم دون وصولنا

فقال متهيجاً شديد التهيج : ماري ماري لاأسمح لك أن تسبقيني . اني أمزق جسدي عن روحي الآن . أني ازهق روحي في هذه اللحظة

وفيما هو يطوف تناول سكيناً من درج مكتبه فانقضت عليه ماري وامسكت بمعصمه وقالت : ويلك . هل جننت ؟ مهلا لاتكن عجولا . دعنا نتفاهم

ونجحت في نزع السكين من قبضته فقال: بماذا نتفاهم ؟ لا افهم الا امراً واحداً وهو ان تكون يدك في يدي وقلبك في قلبي وروحك في روحي منذ الآن الى ما بعد الابد . في الحياة سواء رمتها قصيرة او طويلة وفي الممات . لا افهم غير هذا

— ويلاه ! لم تبق لي قوة ولا ارادة . ربي رحمتك ولطفك . لقد سلمت اليك ياهذا جسدي كما سلمتك روحي . فاقض ما أنت قاض

وقعدت على المقعد واهية . وبقي فريد واقفاً وقفة المنتصر وقال : كذا كذا . لي كلك حتى انفاسك التي تطير في الهواء اختزنها في صدري . حتى افكارك يجب ان تتمشى في ضميري . لا اجود بذرة منك لاحد ولا لدر . لقد خلقت لكي أتحد بك اتحاد الصهباء بالماء . فلا انفصل عنك .

ثم قال بتضرع : ماري ماري . بربك أتفهمين أنك لي وأنا لك . بل أنا ظلك الذي لايفارقك . حتى في الظلام ابقى ظلك حين تضيء أشعة روحك فتلقي ظل جسدك على الارض فأكون انا ذلك الظل . بربك ياماري تفهمين ان حياتي مستمدة من حياتك فاذا حاولت فصلها عنك آلت الى الموت . لاتحاولي ان تقطعي الصلة بيننا لئلا يتلاشى وجودي . ليس في العالم قوة تحفظ حياتي غير حبك . فان كانت حياتي لاتهمك فارضي بالفناء . وان كانت سعادتك في فنائي اكن فداك . فافتكري قبل أن تبرمي قضاء .

فتنهدت ماري وقالت : آه . اني لاجل سعادتك أوجد فاذا كان الدير يشقيك فلا أدخله . وانما أقض أنت قضاء يضمن سعادة الجميع

— ليس في عالمي أحد سواك وسواي وليس للآخرين شأن بنا . ولست مسأولا عن سعادة غيري . فلا تخافي من تعاستهم . سيمر الحادث ويبقى كل مغتبطا بشؤونه .

عند ذلك دخلت نجلاء وقالت : ويحي أأنتم هنا في المغازلة وأم فريد في اسوأ

حال ؟ قم يا فريد طيب خاطر أمك

فنزق فريد قائلا : ماذا تريد أمي الآن ؟

فقالت نجلاء بتوسل : لاتكن جافيا ياعزيزي . انها في تأثر شديد ويكاد يغمى عليها ثانية . فهلم اليها عسى أن تشدد قلبها بكلمة حب لطيفة

— يالله . لا افهم باي حق وباي صفة يتدخل الناس بمشاغل قلوب غيرهم

فقالت ماري آمرة : يجب أن تدخل لمؤاساة امك في الحال يافريد

فخرج فريد ودخل الى أمه . ثم قالت نجلاء لماري . ماذا جرى بينك وبينه ؟ أراه في اضطراب شديد

فقالت ماري بتألم . ارى ياعزيزتي نجلاء ان قلبي يرميني في دائرة ضيقة من خصوم لا استطيع ان اتحمل خصومتهم مدة الحياة مهما كانت الحياة قصيرة . ولذلك احاول ان اشفي فريداً من داء غرامه وان كان قلبي يزداد اعتلالا بهذا الداء . واذا نجحت في شفاء فريد رددت السلام والسعادة لاسرته كلها . اني افتدي قلوب بضعة اذا كنت اضحي بقلبي . فاذا لم افعل اكون انانية

فقالت نجلاء باسمة : لاشفاء لهذا الداء ياعزيزتي . هذا قضاء الله ولا مرد لقضائه

— لعل الله يريد الشفاء فلا اقنط من رحمته .

— مسكينة انت . لاتدرين أنك وانت تشفين قلباً من داء غرامه تعلين قلباً آخر

— ماذا تعنين ؟

— اذا استطعت ان تردي قلب فريد لابن عمته زكية قتلت قلب الدكتور يوسف المعني الذي يزداد كل يوم تدلهاً بزكية

— يالله . اذا كان الامر كما تقولين كانت التبعة فيه على المقادير . وما قدر يكون أذاً أظنك تقاومين المقادير يا عزيزتي فلا اظنك تنجحين في شفاء فريد . ولا تنجحين في شفاء قلب الدكتور

— لست اسعى لاشفاء قلب احد فاذا شفي قلب الدكتور فالذنب ذنب زكية ؛ لانها تحب ابن عمها لا الدكتور

فربتت نجلاء على كتف ماري وقالت باسمة . دعي الامر للمقادير يا عزيزتي ولا تحاولي ان تنقحيها . اسمحي لي ان اعود للاميرة وطفاء فأنها في حاجة الي

وخرجت نجلاء

* * *

وما لبثت ماري ان خرجت ايضاً من الغرفة . وما بلغت الى الباب الخارجي حتى كانت الخادمة جليلة تفتح الباب لفارع فدخلت الى الغرفة الاولى والتفتت فاذا زكية تدخل . ورقمت العين على العين فقالت زكية . اعوذ بالله ! احيث اكون تكون مصيبتي أمامي ؟

فتحملت ماري الابتسام وقالت : لاتعتبي على المقادير ياعزيزتي . ماقدر كان . لاتغضبي . تعالي نتفاهم

فدخلت زكية الى الحجرة قائلة وبحك هل جئت الى هنا في هذا الصباح لكي تدفعيني الى ارتكاب جريمة اخرى ؟

فقالت ماري ضاحكة : تعزين الي يا آنسة قوة فوق قوة البشر لاعلم لي بها قبل الآن

— اجل لك قوة الساحرة الداهية الفاتنة بل قوة الحية المغوية

— شكراً لهذا الثناء يا عزيزتي . اذا كنت تتدثين وتعتصمين بالحلم فلا يكون لسحري وفتنتي اقل تأثير

— اما جئت الى هنا لكي تقطفي ثمرة فتنتك ودهائك؟ لاريب انك سررت بحادث امس اذ حسبته اعظم نصر احرزته في المعركة

— اجل سررت اذ كان النصر كله لك لا لي لانه برهن لفريد شدة حبك له وهو برهان لا استطيع انا أن آتي بمثله

— اذاً لماذا جئت

جئت لكي اساعدك على رد فؤاد فريد لك

فقالت زكية متنبهة : وهذا دهاء لا استطيع ان آتي بمثله ياهذه لانك وأنت تتظاهرين بالاعراض عن فريد تبذلين قلبك لديه . وهو لا يفهم الا لغة قلبك

لقد قتلت قلبي قتلا بل سحقته سحقاً وذريته ذرات في هذا الفضاء لكي يكون فدية لك ولفريد

فقالت زكية ضاحكة ضحك الهزء : فدية لي ؟ متى كانت الحية تفتدي آدم وحواء ووظيفتها الفتنة بينهما وتأسيس مملكة الشر في العالم . من يمكنه ان يصدق هذا المكر ؟ اذا كنت تكتمين قلبك عن فريد مكراً فأنك تغرينه بتفاحة جسدك

— اطمئني ياسيدتي . ان جسدي سيكون ضحية

— اي نعم وسيكون دينك هنا حيث يقيم فريد ويصلي لدى عرش جمالك الفاتن يا الهة الحب والجمال ، وحيث يحرق كبش قلبه على مذبح حبك وغرامك

— لك ان تحلي محلي وتدعي فريداً يفعل لدى عرش جمالك وغرامك ماتقولين. اذا كان الجمال معبود العاشق فأنت آية في الجمال فاسريه بجمالك الفاتن

— فاستشاطت زكية وقالت : كفى كفى رقاعة يامنافقة

— بماذا انافق؟ اليس لكل خطاب جواب

— تنافقين بمجيئك الى هنا

— ليس هنا منزلك حتى امتنع عن المجيء اليه . اني اتردد على صاحبة المنزل من زمان

فاشتد غضب زكية وقالت : ولكنك جئت اليوم لكي تحصدي ما زرعته امس بالعينة . جئت لكي تستأنفي دهاءك . لقد خدعت ابن خالي بمكر لسانك يا شيطانة . وسبقتني اليه لكي توغري صدره علي. والآن تتظاهرين بالعفة والطهارة وانت فاسدة بنت الفساد . وهو لسلامة قلبه وسذاجته ينخدع بحلاوة لسانك ايتها الثعلبة

فتنبهت ماري وقالت: لا تغلظي القول ياهذه . لقد تأدبت في الحديث معك كل

التأدب وأنت تأبين الاسباب. فاذا ارتكبت جريمة أخرى كان الاجرام خلقة فيك

فحمي غيظ زكية وقالت: من يصادف الحية ولا يسرع الى سحق رأسها؟

وهجمت على ماري فارتدت هذه الى الوراء متداركة معركة أخرى وقالت: مهلا وتؤدة ياهذه. اني اقيك من ارتكاب الجريمة بالحلم والصبر؟ سكني روعك.

وتفجرت دموع الغيظ من عيني زكية وقالت: كيف يسكن روعي والشيطان ماثل أمامي. فاخرجي من هنا ياشيطانة

فقالت ماري وهي تتجلد ما استطاعت: لله من صلفك. ليس لك أمر ولا نهي هنا حتى ولو كنت نعجة بين يديك. واذا كانت الشيطانة تروعك فابتعدي عنها

وهجمت زكية وهي تقول: بل أطردك طرداً ياشيطانة

ورفعت يدها لتهوي عليها. فاذا يد أخرى من ورائها تقبض على ذراعها. فالتفتت. فاذا الدكتور يوسف المعني يمنعها وقد حال بينها وبين ماري. ثم اومأ الى ماري ان تنصرف بسلام فانصرفت تحامياً للشر

* * *

وكانت زكية لاتزال تتنفض تهيجاً وهي بين يدي الدكتور يوسف المعني وهو ينظر فيها باسما. ثم قال بصوت خافت كأنه الهمس: سكن روعك ياسيدتي العزيزة. تباً لصروف الزمان التي تحرج الكريمة النبيلة أن تخرج من دائرة لطفها ووداعتها

وكادت زكية تترنح من شدة التأثر ومن وهي قواها فتلقاها الدكتور يوسف بذراعه فمالت اليها والقت مرفقها عليها وكادت تسمع خفقان فؤاده. ولولا تهيجها حينذاك لسمعته جلياً وفهمته: فقالت: تباً لهذه الملعونة كأنها خلقت لكيدي

فقال الدكتور مبالغاً بالتلطف: رفقاً بمزاجك اللطيف ياعزيزتي. أنك لمسرفة في الغيرة من هذه الفتاة الوضيعة المسكينة.

ـ هذه الشيطانة أمامي أمامي حيث أروح وأجيء. وكلامها الثقيل يزعزع الجبال

ـ لا بدع اذاً ان يزعزع كلامها هذا القوام اللطيف. ان الغصن النضير يميل مع الريح الشديدة ولكنه لاينقصف. فلا تغضبي

ـ لاأستطيع أن أرى هذه الافعى الرقطاء الا يهيج غضبي يادكتور

ـ مهما كانت الافعى خبيثة ومهما تلوت وتقلبت فلا تجزع الملائكة منها

فتنهدت زكية وتقدمت الى المقعد وقعدت وقعد الدكتور الى جنبها وقال: اجل أن الملاك الطاهر متى حضر انسلت الحية جزعة. فطيبي نفساً وقري عيناً ياعزيزتي

ـ تنسل الحية من هنا وتعود من هناك للفتنة والغواية

ـ لاتستطيع الفتنة والاغواء حيث يكون ملاك روحك مرفرفاً

ـ لقد أخرجتني مكرهة من طبعي. وهي

تسعى الى سلب راحتي

— ليس الذنب ذنبها ياعزيزتي . فماهي غريمتك بل فريد غريمك

— آه من فريد . لقد ضعف لدى هذه الشيطانة ففتنته حتى أصبح لها كالظل للشبح. ونفد صبري وعدمت كل حيلة باستمالته الي عنها

وأحس الدكتور ان الفرصة سانحة للعب دوره الغرامي فانتهزها مستمداً من قلبه كل فصاحة وقال : ذلك حكم القضاء الازلي ياعزيزتي وليس لهذا الحكم من نقض. ونحن لم ندخر سعياً ونصحا فى رده عن غيه ولكن نصحنا له كان كالثلب بحبيبته . وكلما جادلناه ازداد تعنتاً حتى أصبح بحسبنا خصوماً له . فلا أدري لماذا هذا الالحاف في وعظه العقيم . هذا قضاء الله ولا مرد له

— ولكن خالي لايفهم حكم القضاء بل يوجب علي أن اظفر بقلب فريد . وقلب فريد يعدو من امامي عدو الظليم حتى كل قلبي من اللحاق به . ليس في وسعي ان اعتقل قلبه بالرغم منه

ورأى الدكتور ان الامل يتسع امامه فاسترسل في دوره قائلا كفى ماسعيت ياعزيزتي وحسبك ما بذلت من قلبك لفريد وهو لا يدرك قيمة هذا القلب الثمين . ولو كان يستحقه لتعبده . ولكن الظاهر لنا انه لا يستحق هذه النعمة التي يكفر بها. لذلك لا اعتقد ان خالك يلومك اذا خبت سعياً . اني عالم ان فؤادك كل سعياً. فكفي ان تقرعيه السوط بعد السوط وراء فؤاده الفار من امامه والا كبا اخيراً وتعذر انهاضه

فتنهدت زكية وقالت : نعم يادكتور لقد كل قلبي وكبا جواده

وهنا رأى الدكتور ان الفرصة لرمي السهم الصائب سانحة فان اضاعها أضاع حظه ولكنه بقي متخوفاً من ان يطيش السهم أو ان يرتد إلى قلبه فيدميه فتشجع وقال متلجلجاً: نعم وقد كلت القلوب التي تجري وراء قلبك ياعزيزتي وكادت تكبو

فتنبهت زكية لما وراء هذا المقال من المعاني وقالت : لاعلم لي بقلوب تجري وراء قلبي. فماذا تقول ؟

فتردد الدكتور في الكلام قائلا : من سوء حظ هذه القلوب انك لاتعلمين بها

— كيف هذا واراني في صحراء قاحلة ليس فيها خضرة ولا ماء يروي غليلا

— بالطبع لاترين قلباً يعدو وراءك اذا كنت لاتلتفتين إلى الوراء

فاخلجت زكية كانها تغالط نفسها فيما تسمع وقالت : اني تحت سلطة خالي كالتائه في البيداء بل أراني كالسهم المرمي إلى هدف ولكنه لايصل إلى الهدف

— لو رجع السهم كرجع الصدى لاصاب هدفاً آخر

فاقشعرت زكية اذ كادت تفهم مايعني وقالت

— اذا ارتد السهم كليلا عادا الى كنانته يادكتور . لان خالي وهو يصر على ان

يكون فريد هدفي فلا يقف لدى هدف آخر .

— بل انت لا ترين الهدف الآخر مادام نظرك مسدداً الى ذلك الهدف الذى كالسراب

— آه ويلى . لا ارى في ساحتي عيناً اخري ترمقني بنظرة عطف مادام خالى يوجه نظري الى هدف معين

فشعر الدكتور ان الدور الذي يلعبه ناجح فاسترسل فيه قائلا :التفتي يا عزيزتي الى جنبك تري العين الرامقة دامعة شوقاً الى لحظة من هاتين العينين الوامضتين اشعة السعادة التي تحيي القلب الدنف في هواك

فنظرت فيه نظرة استغراب محملقة وقالت : دكتور يوسف : لا انتظر منك وانت صديق بيتنا الحميم تهزأ بي

فوجف فؤاد الدكتور خشية الفشل ولكنه تشدد مؤملا وقال : عذراً وعفواً يازكية . لقد نطق فؤادي بعد ان كمت فمه دهراً طويلا . فان كان قد ساءك نطقه فاصفحي عنه . وان شئت معاقبته فعاقبيه ولو بالموت . انه ميت على كل حال

فقالت وقد اضطرب بحر ضميرها : يوسف يوسف . لا تغوني فاني مولودة فى سجن . فلا تغرني على أن اهدم السجن وافر منه

فقال الدكتور وقد قوي امله : تفرين من سجنك المظلم الى فضاء قلبي الفسيح حيث تجدين فيه فردوساً لم يفتح لسواك .

— يوسف يوسف : بربك لا تغرربي ان قلبي حمامة في قفص مقفل . فلا تكسر القفص لئلا يفر فؤادي الى غابة الضلال

— بل يفر الى حديقة غناء له فيها كل ثمار السعادة وزهور السرور

— لا لا . بربك لا تعترض فى مجرى حياتي لئلا يتدفق على الصخور والاشواك ويتبعثر هنا وهناك

— بل يتدفق على المروج الخضراء ويسقي دوحات السعادة والهناء

— لالا . رحمة بي . ولا تضلني في مصير مجهول بل هو المصير المعلوم المعقول ياعزيزتي ان كنت فى شك من حبي فامتحنيه بنارتري قلبي يحترق فيه حتى يطير شعاعاً بلا رماد

— رباه . انك يا هذا تحرق حشاشتي بلهبات لسانك . عني ايها الشيطان

فانتفض الدكتور جزعاً . ولكنه لم يعد يستطيع النكوص بعد هذا الاندفاع فقال بحكم قوة الاستمرار : لقد وقعت في هاوية حبك ولا استطيع النهوض وها انك اطللت على الهاوية ورأيت قلبي يحترق فيها . فان اعرضت فلا يعود العالم يرى لى اثراً .

حينئذ يذيع بين الناس ان الدكتور يوسف المعنى قضى في حب زكية . حينئذ يتقول الناس فيما لا يسرك

فانتفضت زكية روعة وقالت : ويحك هل رأى احد لهبات قلبك

— بل لسعتهم هذه اللهبات . سلي ساره . سلي تجلاء تخبرك الخبر اليقين

— ويحي واذا درى خالي .

— اني اتلقى ضربات غضبه بترس الحجة التي لا تنقض

فارتجفت زكية واغرورقت عيناها بدموع الخوف والوجل وقالت . ويلي . انك تنقلني من ويل الى ويل اعظم

فامسك الدكتور بذراعها واحس بانتفاضها وقال : زكيه . ان حبي يقيك من كل ويل . اني أضمن سعادتك . استطيع أن اقنع خالك بعقم عناده في امر فريد : كلمة منك تجعاني سحراً يلعب بلب خالك ومغنطيساً يمغنط ضميره : فلا تحسبي حساباً لعناده ولا لغضبه . إني اطفيء ذلك الغضب قبل أن يلتهب . قولي كلمة . كلمة حب . كلمة واحدة يازكية . كلمة واحدة تفتح باب السعادة لك ولي . ولفريد وللجميع

فبقيت زكية صامتة كالذاهلة او كانها في غيبوبة او بحران . فقال بعد هنيهة قولي قولي ... تكلمي .. كلمة واحدة فقط

فتنهدت وقالت . ويحي : إن هذه الكلمة التي تبتغيها تقلب عالمي الذي انا مركز دائرته رأساً على عقب

— أجل يجب أن ينقلب لانه قلوب فاذ انقلب إعتدل . قوليها يا زكية فيقع الحق في نصابه وحينئذ يدور فلك عالمك في مداره الطبيعي

— ويلي اخاف ان يطبق بعضه على بعض فيتحطم

— بل هو متلاطم الآن لانه ليس في مداره ويكاد يسيحق بعضه بعضاً . فاذا قلت كلمتك وقفت شمس بهائك في مكانها ودارت سياراتها حولها بانتظام وكنت انا أقربها اليك وقلبي يستمد نوره من ضياء روحك المتألقة سعادة وحبوراً

— بل يسير خالك في فلكه راضياً اذا رأى انتظام الافلاك حوله ان قوة الحب التي تسير في مداراتها تحفظ كل جرم في مداره فلا تخافي . اعتصمي بقوة الحب فهي اقوى ما في الكون . افلا تحبين

— آه . اليست في شرارة الحب

— بلى اني اراها تلمع في عينيك فسددبها الى حيث تريدين

— انها لمسددة يا هذا فكفي

— الى أقرب سيار اليك اذاً . اليس هكذا

— لك ان ترصدها .

— بل اني احس بلهبات حرارتها . شكراً يا مصدر النور والحرارة والحياة الذي به أحيا واتحرك واوجد

وادنى فمه من معصمها وفيما هي تختطف يدها من يده دخلت تجلاء فبغتت اذ رأتهما في حال تدل على احتدام ثورة عواطف وقالت باسمة : اتلهوان هنا بقمار القلوب ونحن مشغولون باطفاء نيران الخطوب

فقال الدكتور معمياً . ويحك لقد بترت البرتيته (الدق) .

فقالت باسمة . من الغالب ومن المغلوب

فقال الدكتور . وهل فى قمار القلوب يخفى الغالب والمغلوب . فماذا تعنين بالخطوب؟ هل فريد يشكو ألماً

—لا. هو بخير . وانما أمه الاميرة وطفاء متأثره الآن من جراء ما كان . ولعلها في حاجة اليك

— اذاً يجب أن أراها . اذنك ياسيدتي زكيه

وذهب الدكتور مع نجلاء لمقابلة وطفاء وبقية زكية تحدث نفسها . ويلاه أحقيق ان قضاء الله الازلي غير مايفتكر الانسان . أحقيق أن الدكتور يوسف يحترق حباً . أم انه شغوف بثروة عمي . ان عمي لايجود بثروته لغير فريد . تباً للمال الذي يقيد القلوب . المال اذن يخلق العشق ويشتريه ويبيعه . ولكن . آه . لم يستطع المال أن يشغل فؤاد فريد يحب لي . رباه ان احكامك أسرار غوامض عن عقول البشر . أيمكن أن يكون الدكتور يوسف متصنعاً مصانعاً . اني أعرفه طيب السريرة دمث الخلق حر الضمير . لاأظنه يخدعني بحبه . لعلى أظلمه اذا اتهمته باستخدام التحبب إلي لقنص مال عمى . واذا كنت أتهم كل من يتحبب إلي هذه التهمة فلن استلخص محباً . ربي اليك نفسي وعقلي فارشدني إلى الصواب

***

ثم مشت متوجهة إلي غرفة فريد ودخلت فاذا هي خالية . فقالت في نفسها . اذاً هو عند امه. لاأدري كيف يستقبلني اذا دخلت. أأنتظره هنا

عند ذلك دخل فريد فتلقته ببشاشة . وقالت . أهلا حبيبي فريد . لم أنم فلقاعليك مع أنهم طمأنوني ان الجرح بسيط. لاأظنك حاقداً علي

أما فريد فبقي واقفاً في قلب الحجرة أمامها متجهما . ولكنه مالبث ان تعمل الابتسام وقال : بالعكس . لقد سررت لان الحادث انتهى بلا جناية والحمد لله

فقالت مغرورقة العينين بالدموع لقد ضاع صوابي يافريد. ألا تعذر زقي وطيشي؟ أتيت لكي أستغفر منك أفلا تغفر لي . ان قلبي لهو الجاني فاصفح عنه .

—لاأتهم قلبك بجناية. انها الجناية الظروف العمياء

— فريد . ان الجناية جناية حبي . فلك ان تعاقبه ماتشاء

—أتأسف جداً يابنت عمتي انك ابتليت بهذا الحب العقيم ورجائى إلى الله دائماً ان يشفيك منه ويحول قلبك إلى قلب يكن لك سعادة وهناء لانجدينهما في فؤادي

فوهت زكية قوة وارتمت على المقعد وقالت: ويلاه . لاأجد سعادة في غير قلبك يافريد . لقد كتب لي الشقاء. فلا يستطيع أحد في العالم أن

ينقذني منه. فريد الارحمة. الاشفقة. الاعقل يرى ؟ اني أضحي بكل شيء لاجل سعادة نفسك وسرورها وهنائها اكون لك في نظر الناس زوجة وفي نظرك عبدة أأتمر بامرك اذا امرتني ان ارتمي في البحر ارتمي واقف كل قواي ومواهبي لخدمة هنائك . فريد افتكر أنك تسيطر علي وعلى ثروة بيت الرحابي كلها وتعيش اميراً في نظر الناس وفي بيتك الهاً معبوداً

- فخير لك ياز كية ان تعيشي في ظل هذا الجاه والثراء سيدة معبودة لا عبدة متعبده

— لا لا . لا اجد السعادة الا في العبودية لك

— بل تجدينها فى قلب آخر يتعبد لك . اني أنصح لك ان تقبلي السعادة التي اعدت لك : فهي قضاء الله الازلي أما أنا فقد وجدت سعادتي المعدة لي

- تنبذني نبذ النواة

كلا لست أنبذك وانما أبسط لك حقائق الاقدار ياز كية فا لافضل ان ترعوي

- آه لقد فرغت جعبة رجائي ياعزيزي فلامت فى يأس .

وطفقت تبكي فامسك بذراعها قائلا : لماذا تبكين يا عزيزتي. أن الله قد خلق لكل قلب قلباً وقد عين لقلبك قلبا يتمتع بالافتكار به كما خلق لقلبي قلباً آخر فلماذا تخالفين أرادة الله وتحمليني على مخالفته أيضاً ؟ أني أتوقع لك سعادة عظمي كسعادتي يا زكية فلا تبكي : أعتصمي بارادة الله واسأله أن يمتع قلبك بحب مقدس سعيد

عند ذلك دخل الدكتور ليكشف على ذراع فريد وما خفي عليه ماكان

الفصل الثالث عشر

ديناميت حب

في اليوم التالي ورد الى فريد الخطاب التالي من ماري .

عزيزي فريد

الحب الاسمى هو الحب الروحاني الطاهر . والحب الذي لا يستطيع ان يتمرد على الشهوات الجسدية ليس حباً روحانياً طاهراً بل هو حب دنيء أجلك عنه وأعيذك منه . الحب الروحاني مقره النفس العاقلة لا القلب الاسير للعواطف والشهوات . ولذلك اثق انك تحكم عقلك لا عواطفك في الظروف المحيطة بحبنا الروحاني هذا وتتروى خطاي هذا

اني واثقة كل الثقة ان اندفاعنا بالحب في هذه الظروف يحط حبنا من اوج مقامه الروحاني الى درك الجسدانيات الدنيئة .

مهما كنا روحانيين فا دمنا بشراً فلا يمكن ان نتجرد من الماديات الارضية. ولذلك لا يمكن ان يتخلص حبنا من الظروف

المحيطة به

ان زرواجنا يجعل حبنا محفوفا باشوك المحن والمصائب . فلا سعادة فيه غير السعادة الخيالية ولكنها مهما عظمت لا تزيل آلام التعاسة الجسدية .

لسوف نكون مضطهدين منبوذين وقد نكون مطاردين بل سنكون عرضة للانتقام قد نقضي أمداً من الزمان في متاعب وهموم ونغصات . وربما قضينا الحياة كلها هكذا

اني احبك الحب الذي احبه المسيح للناس ، الحب الذي يستلذ التضحية . فاضحي بقلبي لافتديك من النكبات التي تتهددك . هذا التضحية . ترتاح نفسي اذ اعلم انك ناج من هذه النكبات

فارجو منك ان تعتصم بالحكمة وان تقمع هذه الثورة النفسية ، وان تخضع لاحكام القدر الذي قضى بان تبقى في منزلتك بين اهلك والنصيب الذي كتب لك والسعادة المهيأة لمستقبلك .

تريث رويداً عسى ان تخمد هذه الثورة ولا تجد عناء في العدول عن غلوائك

وثق يا عزيزي اني اكون سعيدة بالتزهد في الدير والصلاة لاجل سعادتك .

لا اطلب منك الآن الا التريث . ولي ثقة عظمى بانك تسلم من هذه الثورة النفسية . وحينئذ اذا نسيتني تزيد سعادتي وتسر ضميري فيتفرغ قلبي للدعاء لاجلك

كن يا عزيزي المحب العاقل الذي يتروى لا المحب الفاشم الطائش . فان لم تكن كذلك فلا اعتقد بحبك ولا اثق به بل اتخوف منه فلا تخيب ظني فيك .

اني انتظر منك خطابا يبرهن على ان ذلك القلب المشتعل حباً يشتمل على عقل مشتعل حكمة ايضا ، وعلى ان هذا الحب الذي ملأ قلبك انما هو حب روحاني سام لا حب جسداني دنيء

اذا ترويت مقالي وارعويت لنصيحتي فثق اننا نبقى حبيبين متعانقين في عالم الارواح الى ان نلتقي في غير عالم المادة

اقرأ خطابي غير مرة مستعبراً

ماري

فما قرأ فريد هذا الخطاب حتى طار صوابه وجاشت في صدره نفسه وكاد يختنق من شدة الغم وقال ويلي ! العذال وماري ايضا ؟ هذا أصعب ما في الحب

وبكى بكاء مراً . ثم عاد يقرأ الخطاب ثانية وثالثة وهو كلما قرأ اشتدت لوعته . ثم تناول القلم وكتب .

يا هذه

اكاد اشك بحبك . لعلك كاذبة فيه . لعلك مرائية . لعلي مخدوع . لعلي فريسة نفاقك . نعم اخاف ان اكون مخدوعا بحبك . لانه اذا كان حبك روحانيا كما تزعمين فلا تفسرين احكام القدر كما فسرتها .

ان الحب الروحاني صادق وقوي اذا قال لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك

فينتقل كما قال مسيحك . فاي تعاسة يا هذه تقف لدى الحب الذي يقلقل الجبال . وأي المصائب والنكبات تستطيع ان تصل الى عالم الارواح وتشوه سعادتها.

اني منفصل عن أهلي وقومي وعالمي لكي أوجد في عالم الارواح حيث تقترن روحي بروحك . وهناك لا سبيل للتعاسة الينا ولا يمكن ان تصل النكبات .

اجل اني في شك الآن بحبك . وليس لخطابك الا احد تفسيرين ، اما انك عديمة الثقة بقوة حبي التي تزعزع الجبال وتمهدها لتجعلها روضة سعادة غناء أوانك منافقة في الحب

فان كنت صادقة في حبك تتوقعي اني أضمن سعادتنا مهما كانت مطامعك فيها. وان صح شكي وكنت كاذبة فاني لا أزال أشكر للاقدار ابتلائي بحبك وابقى اتمتع بهذا الحب في عالم الخيال الى ان اصبح خيالا فانتقل الى عالم الارواح حيث ابحث من روحك لعلي أجدها

ماري . مارى . ليس في الكون قوة تستطيع ان تخمد هذا الحب سواء صدقت أو كذبت

اني اشكوك لضميرك يا جائرة . ولضميرك ان يقض مضجعك ويبلبل أفكارك ويجعل صلاتك تجديفاً . والله لا يغفر لك يا ظالمة

لا لا . لقد قسوت يا ماري . والحب لا يقسو . اني اتوب عن هذه القسوة . سامحك الله . واتوسل الى ضميرك ان يرحمك واسأل الله ان يطيل عذابي في حبك

فريد

كان فريد بعد ان أرسل هذا الخطاب الى ماري يتوقع ان تسرع اليه نائبة عن اعراضها . ولكن مضى يومان وهي لم تأت فكاد يجن أو هو جن . التهب فؤاده جزعا خاف ان شكه بحب ماري في محله . فهل يتوقف عند هذا الشك ؟ لا بل يجب ان يقابل ماري آخر مقابلة فاما الخيبة فالانتحار أو الامل وتحققه . لذلك قصد الى الدير

في الدير استقبلته الام اغناتيا باسمة وقد راعها جحوظ مقلتيه وازمهرارهما وقالت ماذا بك . أراك لم تزل عليلا . فلماذا تركت سريرك قبل ان تبرأ .

ـ لان علتي من سريري . وعلاجي في يدك

ـ في يدي

ـ نعم في يدك . فان شئت برئت

ـ لماذا لا اشاء . اني واقفة نفسي لكل مبرة . فما هو علاجك

ـ ان تسمحي لي بمقابلة مارى ولو في حضرتك دقيقة واحدة

ـ ماذا تريد منها.

اتمنعيها عني .

ـ لا . والا لمنعتها من قبل

ـ اذاً استدعيها

ـ أود ان اعلم ماذا تريد منها

فتململ فريد وقال . ستعلمين حين تتقابل

ـ أود أن أعلم قبل أن تتقابلا .

ـ عجباً ؟ لماذا هذا التحكم

فقالت مبالغة بالابتسام : ولماذا تحسب هذا تحكماً ؟ لماذا لا تحسبه حكمة

ـ اذاً لا تمنعينها عني ؟

ـ لا . لا . ستراها . فأخبرني ماذا تريد منها

فتردد فريد في الجواب ثم قال : أريد ان أتحقق أمراً

ـ ما هو ؟

ـ أريد أن أعلم ان كان ظني في محله

ـ ما هو ظنك . افصح

ـ أجل افصح . فلا حياء في الحب . أود ان أتحقق ان كانت صادقة أو كاذبة

ـ ماري لا تكذب لاني ربيتها على الصدق

ـ هل انت واثقة انها اذا أحبت صدقت

ـ بلا شك

ـ لقد كنت موقناً انها تحبني كما أحبها . وأمس خالجني شك بحبها

ـ لماذا خالجك الشك ؟

ـ لانه ورد لي منها هذا الخطاب

ودفعه الى الام اغناتيا فتناولته ونظرت فيه نظرة ثم قالت : وماذا في هذا الخطاب ؟

ـ اقرئيه

ـ قرأته وفهمته

ـ عجباً ! لم أرك تقرأينه

ـ بل قرأته . فماذا تلاحظ فيه ؟

ـ اذا قرأته وجدت فيه ما يحملني على الشك بصدق حبها . فاقرأيه

ـ قلت لك اني قرأته . قرأته قبل ان تقرأه انت ، فما وجدت فيه شيئاً مما تقول

فحملق فريد فيها وقال : اذا كنت قد قرأته ولم تجدي فيه ما يحمل على الشك فلانك لا تفهمين لغة الحب

فقهقهت قائلة : لعلي لا افهم لغة الحب فأخبرني كيف فهمت انت ما فهمت

فتململ فريد وأخذ الخطاب منها وقرأه وفسر بعض معانيه بأنها تحمل على الشك بالحب . فقالت : انك سيء الظن لا تحسن التفسير . انك مخطيء

فقال : لقد جاوبتها على خطابها بخطاب يزعزع الجبال . فلو كانت صادقة في حبها لكانت قد جاءت بنفسها اليّ لتطرد الشك من نفسي .

ـ لو اطلعت على جوابك لفعلت

ـ عجباً : اما وصلها خطابي ؟

ـ لا . لاني استلمته وامسكته عنها

ـ ويك ! لماذا امسكته عنها ؟

ـ لاني خفت ان يزعزع الجبال ويقلبها على رأسها

فبهت فريد ثم قال محملقاً فيها : لله منك حكيمة . هل أنت واثقة انها لو قرأته ....

ـ اجل لو قرأته . . . لا ادري ماذا يكون . اذاك جواب لهذا الخطاب يا أهوج

وقرصت اذنه باسمة . فقال منتعشاً : لله منك فيلسوفة في الحب . اشكر امساكك

الكتاب عنها . والآن هل تسمحين لي بمقابلتها

— لماذا

— لكي أرد على خطابها رداً آخر

— ماذا تريد ان تقول لها ؟

— اريد ان اقنعها اني تريثت يومين وفكرت فلم اجد في طاقة على العدول عن حبها

— هي تعلم ذلك جيداً

— اذاً لماذا كتبت هذا الخطاب ؟

— هذا امر لا يعنيك

— عجباً . الا يعنيني ان تحاول اقناعي بالعدول عن حبها

— لا . وانما يعنيك ان تعلم انها واثقة انك لا تعدل عنه . وكفى

— اذاً هي تذعن لوجوب زواجنا عاجلا

— نعم . وانما بعد استرضاء عمك

— عمي لا يرضى . ولا ارضي .

— يجب ان يرضى . ولا بد ان يرضي

— يستحيل ان يرضى . لا يهمني ان يرضى

— يهمني ان يرضى . ولا بد ان يرضى

— استغرب جزمك هذا

— واستغرب مستحيلك

— لا تعرفين عناد عمي . مستحيل ان يرضى

— ليس في قاموسي مستحيل

— من يقنعه ؟

— ماري تقنعه

— يستحيل

— قلت لك ان المستحيل عندي ممكن . يجب ان يرضى صاغراً

فتحير فريد في جزم الام اغناتيا واصرارها على قولها ثم قال : واذا لم يرض أفلا نتزوج ؟

— بل يرضى وتتزوجان

— اخاف ان تكوني هازئة بي

— لا . بل اني اعنى ما أقول .

— اذاً اسمحي بمقابلة ماري

— لا داعي الآن لمقابلتها . فعد الى بيتك مطمئناً .

فازدادت حيرة فريد . ثم قال : حاذري ان تكذبي علي

— الام اغناتيا لا تكذب

— لعلك تريدين ان تصرفيني معللا نفسي بالآمال الكاذبة

— لسوف ترى

فنظر فريد الى الراهبة ضارعاً وقال وعيناه مغرورقتان بالدموع . لا أظنك يا سيدتي تدعينني أتدهور في هاوية اليأس . ان كانت ماري تحبني فلا تظلمي قلبين طاهرين ظلماً لا يغفره الله لك وان كانت كاذبة في حبها فاشكر لك تعليل نفسي بالامل ولو كان كاذباً . اني أعود بين موجتين من اليأس والأمل الى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا

فمدت الام اغناتيا يدها اليه تصافحه وقالت . عد يا ولدي الى امك وصل الى الله ان يحقق أملك . فالله خير ملجأ . ناج العزة الالهية بتعبد تجد هناك تعزية وفرجاً وراحة نفس

وانصرفت الام اغناتيا . وبقي فريد هنيهة يسمع خطواتها ثم انصرف والامل غالب على اليأس والفكر سابح في ما اقامه حديثها من التخيلات والاحلام

القسم الثالث

اضطرام المعارك

الفصل الرابع عشر

مناوشات

في تلك الاثناء كان الدكتور يوسف المعني في مجلس الامير نعيم الرحابي . وقد اصبح كثير التردد اليه أولا لأن له فيه فؤاداً دائم الخفقان . وثانياً لأن مبالغته في ملاطفة الامير ومسايرته جعلت الامير كثير العطف اليه وعظيم الثقة باخلاصه

قال الامير في سياق الحديث وهو يبش للدكتور و يبسم له : كأنك يا عزيزي الدكتور رصد على ذلك الشبح . فلم يلح قط في الامساء التي كنت ترصده فيها . ولما مللت ترصده وعدلت عنه ظهر

فأجاب الدكتور مستغرباً : عجباً ! أحقيق ظهوره

ـ نعم ظهر أمس في نفس الميعاد وفي نفس الشكل الذي ظهر فيه اول مرة . فنهضت لكي ألحق به ففر متغلغلا بين المنازل

فأجاب الدكتور مبتسما : يظهر ان لا حيلة للبشر في الخيالات يا سيدى الامير

فتجهم الامير وقال : لله من مكابرتك يا دكتور : لا تزال تعتقد ان ما رأيته كان خيالا وهمياً . لا لم يكن شيئاً وهمياً البتة . انه شخص تزيا بهذا الزى ويظهر لي بهذا الشكل وفي هذه الحال لغرض الى الآن لا افهمه . فحاذر يا دكتور ان تحاول اقناعي بشيء اسمه وهم يتجسم لعصبي المزاج الذين يعتل جهازهم العصبي . فما انا منهم . اني أرى الحقائق وأميز بينها و بين الاوهام

فقال الدكتور وهو متحير لا يدري كيف يفسر هذه الظاهرة سواء كانت وهماً أو حقيقة : عجباً ان لا يظهر هذا الشبح في الامساء الماضية التي كنا نترصده فيها ، ولا يظهر الا حين يئسنا من ظهوره وسئمنا ترصده

ـ لعل لهذا الشبح أو هذا الشخص الذي يمثل دوره السمج هذا جاسوساً يطلعه على دخائل بيتي فيبلغه يوم نكون مترصدين ويوم لا نكون

فأجفل الدكتور لهذه الملاحظة مخافة

ان يكون سوء ظن الامير يتناوله هو ايضاً. فقال . ان كنت تشك بأحد ممن في دارك أو يترددون اليها فلا يبعد ان يكون فيها جاسوس أو جواسيس . فليتك تحقق في المسألة

فأجاب الامير بقلة اكتراث قائلا : لا. لا اهمية لهذه المسألة عندي . ولا سيما لاني قد اهتديت الى طريقة للظفر بذلك الشبح

فقال الدكتور مبغوتاً : عجباً ان تهتدي الى طريقة وانت في بيتك لم تخرج منه . فالى ماذا اهتديت وكيف

ـ علمت ان شخصاً يملك صورة كالصورة التي رأيتها عندي في مخدعي . وأؤمل ان التقي بذلك الشخص واعلم منه كيف آلت الصورة اليه : والأرجح ان اعلم منه من هو الشبح الذي ظهر لي الى الآن مرتين وما غرضه

ـ حسن جداً يا سيدي الامير عسى ان ينجلي لك سر هذه المداعبة وتجد فيه راحة لضميرك

ـ مهما كان هذا السر يا عزيزي الدكتور فان لم تكن فيه راحة لضميري فلا بد ان استرشد به الى سبيل هذه الراحة . وانما الذي يزعجني الآن كثيراً هو امر فريد هذا فما كنت اظنه عنيداً الى حد ان يرفض نصحي رفضاً باتاً دائماً و يتمادى في غيه حتى يخسر كل شيء

فأبرقت اسرة الدكتور اذ سنحت له فرصة للتلويح الى موضوعه اوجس نبض الامير فيه او على الأقل لتمهيد السبيل اليه ما امكن وقال : ان عناد فريد يا سيدي الامير ازعج كل واحد منا واذاب قلب امه حتى انه ايأس فؤاد المسكينة الآنسة زكية . وكاد يتحول حبها له الى كره . اني ارى ان زكية يا مولاي مظلومة في مسألة فريد وقد اصبحت يضحى بها على مذبح اعراضه وجفائه

فأجفل الامير واعتدل في مقعده قائلا متجهماً: هل شكت زكية لك شيئاً من ذلك؟

فتردد الدكتور في الجواب ثم قال. شكوى غير صريحة يا سيدي الامير . ولكن تألمها الشديد من صده في حين تحببها اليه لم يعد يخفى على احد . وقد ملت هذه الحالة وسئمتها . فليت سعادتك تعفيها من هذا الفرض الذي اصبحت تبذل جهدها للقيام به احتراماً لارادتك المقدسة عندها ، لا تعشقاً لفريد لانها ملت هذا التعشق حتى كاد ينقلب الى كره واصبح احترامها لارادتك اعظم جداً من حبها لفريد

فتجهم الامير ومرت غيبوبة غم على نفسه وقال . أن أسلوب كلامك يا دكتور يدل على أنك مكلف بهذا الكلام

فاختلج الدكتور وقال متحذراً : كلا يا مولاي لم يكلفني أحد ببلاغ وليس أحد غيري مسأولا عن هذا الكلام . وانما فهمته من فحواه من خلال أحاديث زكية وتنهداتها. ولم يبق الا أن تصرح بكل حرية أن في الدنيا كثيرين غير فريد يليقون

لخطب ودها . و بعضهم يضارعون فريداً مقاماً . ولا بد أن ينالوا رضى سيدي الامير اذا تقدموا اليه. ولكنهم لا يتقدمون ما دام مولاي يضع فريداً حجاباً بينه و بينهم

فامتقع وجه الامير وتقلبت ألوانه اذ سرت في مخيلته أمجاد الأسرة الرحابية وكتلة اتحادها الممثلة في زواج فريد وزكية وعلى راسيهما تاج الامارة وتحت أقدامهما ثروة آل الرحابي وصرح الامير نعيم يحفظ ذلك التاج وتلك الامارة في سفر الخلود ـ مرت هذه الصورة في مخيلته فوجدها تتفكك أو تذوب لدى حديث الدكتور عن عناد فريد وملل زكية . فكاد هو يذوب غماً . ولعله خامره ظن بما يلوح في ذهن الدكتور فقال متصلباً : اذا كنت يا عزيزي تود المحافظة على ودادي تفهم زكية أن ارادتي انما هي قضاء الله الازلي ومقاومتها مقاومة لمشيئة الله . نعم أرجو منك أن تفهمها ذلك اذا بدا لك منها شيء من التذمر . وعليها أن تعتصم بالصبر الى أن تخمد ثورة فريد النفسية و يعود الى تعقله

فتهلل الدكتور اذ وجد الفرصة سانحة لرمي أول سهم من كنانته وقال: مولاي أن ثورة فريد لا تنطفىء قبل أن تفني لبه وقلبه احتراقاً وقبل ان تلتهم نيرانها كل ما حوله .

فقال الامير مكفهراً : انها ثورة الشباب يا دكتور ولا بد ان تخمد . وان رايت انها ستطول التهاماً فأجد وسيلة لفصله عن تلك الفتاة المخبيثة ربما تبرد ثورة نفسه

ـ لقد اصبح فريد متمرداً يا سيدي فلا يخضع لأمر أحد ولا يبتعد عن الفتاة مهما اقصيته عنها وانما أمرته بالذهاب

فقال الامير متكلفاً الابتسام : لا لا يا دكتور لا آمره ولا أتعرض له ولا اعرض اوامري لعصيانه . وانما في وسعي ان أجد وسيلة لابعاد الفتاة ولو الى جهنم

فضحك الدكتور وقال: ان ما يلوح لك ان تفعله يا سيدي الامير لقد فعلته الفتاة نفسها

فحملق فيه الامير قائلا : كيف ماذا ؟

ـ لقد حبست الفتاة نفسها في الدير وارسلت خطاباً لفريد تنصح له ان يتناساها الى أن يعود الى بنت عمته

ـ عجباً : لا اصدق

ـ بل صدق يا سيدي الامير . وهاك خطاب الفتاه

ودفعه الدكتور اليه فتناوله الامير وهو يقول ، كيف حصلت عليه

ـ الاميرة وطفاء علمت به واطلعتني عليه فأخذته لكي اطلعك عليه

وجعل الامير يقرأ الخطاب بامعان نظر الى ان انتهى منه وهو ينتفض انفعالا وقال : تباً لهذا المنافقة المماذقه . ان خطاباً كهذا كله افك و بهتان يلقي بترولا على ثورة نفس فريد . فماذا فعل فريد ؟

ـ كاد يجن . فذهب الى الدير هائماً ولا ندري ماذا فعل هناك سوى انه عاد وهو اكثر تدلهاً ووله واكثر املا ورجاء بالفتاة.

ـ بالطبع لأن تلك الخبيثة لم تكتب له هذا الخطاب لكي تقصيه عنها بل لكي تثير غرامه . لذلك سأدبر تدبيراً ابعد به هذه

الفتاة من هذا القطر كله لانها ما دامت هنا فهي لا تكف عن فتنة فريد واللعب بلبه وقلبه . ولكن متى ابتعدت عنه ولم يعد يجتمع بها تخمد ثورة نفسه وينتبه لحمقه ويندم على طيشه

فتململ الدكتور وقال : اني ارى عكس ما تراه يا سعادة الامير . لا امل في ارعواء فريد . وحيثما تبعد الفتاة يتبعها . فحرام تضحية زكية المسكينة لاجله

فامتعض الامير شديد الامتعاض وقال: عذراً ياعزيزي الدكتور. ارجو منك ان تبقى على الحياد في هذه المسألة . وعليّ تدبيرها

فاكفهر الدكتور كاسف البال وقبل ان يفوه بكلمة دخلت سارة الطباخة وقالت : المطرزة هنا يا سيدي . تود ان تتشرف بالمثول الخاص اذا اذنت به

فنهض الدكتور وودع الامير ومضى يفكر في العواقب والمقدمات الجديدة

* * *

دخلت مريم نعمة الله أو ماري الراهبة الى حجرة الامير فاستقبلها ببشاشة متكلفة لانه كان لا يزال متأثراً من الحديث الآنف. وكان الى تلك الساعة لا يعرف انها هي مفضوبته حتى ولا الدكتور ولا زكية كانا يعلمان ان المطرزة هي ماري بعينها بل كانا يظنانها فتاة اخرى . ولا خطر لهما ان سارة الطباخة تلعب دوراً بتقديم ماري للامير بصفة كونها مطرزة

قبل ان تقدم ماري قدمت للامير ديباجة يبهر جمالها الناظر ويبهج الخاطر . وقد ظهرت فيها عنايتها وبان نبوغها في الفن كأنها وشت كل ذوق جميل في تلك الديباجة لكي تحصل على اعجاب الامير وتتذرع الى استمالته واسترضائه .

أما الامير فجعل يتأمل الديباجة معجباً مبتهجاً بجمالها واتقانها ثم تناول الصورة من موضعها ووضعها في وسط الديباجة فجاءت كأنها قطعة منها . فنظر الى ماري باسما وقال : تفضلي اقعدي يابنيتي. لا ريب ان الذكاء يتدفق من بين الانامل التي طرزت هذه الديباجة التي هي اميرة الديباجات

فقعدت ماري وقالت متهللة حية الامل: ما اسعدني في توفقي الى تطريزها حتى وافقت ذوق الامير امير الذوق الجميل

— ولا ريب ان وراء هذا اللسان اللطيف قلباً نبيلا . هل تعلمت هذا الفن في دير الراهبات فقط ؟

— نعم . ولكنني الآن ابذل جهدي في ان أصنع افضل مما تعلمت. كيف لا واني اقدم اجمل تحفة من عملي لسيدي الامير . فلا ريب ان رضى الامير اوحى اليّ ان اتقن هذا الصنع

وكان الامير لا يزال يتأمل الديباجة والصورة في وسطها هنيهة بعد اخرى . فقال : ان لهؤلاء الراهبات فضلا عظيماً في تعليم الفتيات . وبالطبع كما يزين ذوقهن بجمال هذا الفن يزين اخلاقهن بخير الفضائل والآداب

— ان هذا التزيين الاخلاقي والادبي يا سيدي هو الغرض الاول من خدمتهن للانسانية

— شكراً لهن . لو كان لي بنت لكنت اضعها في ذلك الدير لكي تبقى حمامة طاهرة مثلك . ما اجمل اخلاقك يا بنيتي . اني لسعيد بأن ازين غرفتي بديباجتك هذه

فخفق فؤاد ماري لهذا الاطراء وقال : بل انا اسعد حالا بأن يكون عمل يدي لائقاً بأن يوضع في غرفة سيدي الامير . فعسى ان يذكرني بحلمه ورضائه كلما نظر اليه

— ان مثل هذا الوجه الملائكي السمح البشوش اللطيف لن يبرح من مخيلتي ايتها الحمامة الطاهرة . ليت لي بنتاً مثلك فلا شك انها تكون موضوع سعادتي . آه لقد قضي عليّ ان احرم هذه النعمة يا بنتي . من يدري لو . . .

وهنا اغرورقت عينا الامير بالدموع وقال كأنه يخاطب نفسه وهو يمسح دموعه : . . . . آه . . . لو . . . اني لمحروم نعمة اغدقها الله على السواد الأعظم من الناس . . ولكن الذنب ذنبي . . والله عادل . .

فاستغربت ماري تأثره وفهمت انه يتنغص لأمر . لعله رزيء ببنت له : فقالت: حبذا ان اليق خادمة لسيدي الامير فأكون اسعد فتاة

— معاذ الله . بل اتمنى ان تكوني بنتي العزيزة . ولكن . . . . آه . . . دعينا من هذا الموضوع . هل وجدت الصورة التي وعدتني بأن تبحثي عنها ؟

— وجدتها

فقال الامير بلهفة : اين ؟ مع من ؟

— مع راهبة صديقة لي

— مع راهبة ؟ كيف وصلت اليها ؟

— هذا ما لم استطع ان اعلمه . لعله سر مكنون في صدرها

— يا للعجب ! وهل حول الصورة اسرار عند غيري ايضاً ؟ هل جئت بها ؟ لعلها ليست اياها

— بل هي بعينها وجمالها وبهائها يا سيدي الامير . ولكن الراهبة لم ترد أن تعطيني اياها

— بربك ! هل يمكن أن اقابل هذه الراهبة ؟ من هي ؟

— لقد بذلت جهدي في اقناعها بمقابلتك

— هل اقتنعت

— اقتنعت اخيراً . وهي تنتظر ان تعين لها ميعاداً للمقابلة

— اقابلها اليوم . بعد خروجك من هنا انتظرها . فهل يمكن ان تأتي حالا ؟

— ابذل جهدي في اقناعها ان توافيك حالا

— الف شكر لك ياعزيزتي . ما ألطفك واجمل شمائلك . اسمحي لي ان اقبل رأسك كقبلة أب

وتقدم اليها وقبل اعلى جبينها وهي لا تكاد تصدق انها حصلت على هذا الرضى منه كما انها ما زالت تخاف ان تنقلب هذه العواطف اذا اكتشف انها عشيقة فريد.

ثم قال لها : تستحقين يا عزيزتي مكافأة لا طاقة لي على ادائها . هاك شيئاً منها .

ثم فتح الدرج وسحب ورقة عملة بعشرة جنيهات وقدمها لها قائلا . وسأقدم لك مثلها كلما سررتني بزيارة وأريد ان تزوريني كل شهر بل كل اسبوع لأني اشعر ان السرور يأتي الى نفسي عن يدك

اما ماري فأحجمت عن قبول الورقة وقالت ان من يقدم خدمة لسيدي الامير نعيم الرحابي يكفيه ان ينال رضاءه . فرضاه نعمة اعظم من كل نعمة ومكافأة

— لله منك كريمة عفيفة النفس . ولكن رضى الرحابي يا بنتي لا يطعم خبزاً

— الخبز من فضل الله وافر يا سيدي وأما رضى الامير فمن فضل الامير . ولا اطمع الا برضى الأمير ولا اظنه يبخل به

— لك يا عزيزتي الفاضلة المحبوبة كل رضاي . هل من خدمة استطيعها فأقضيها لك؟ اني ابذل كل مافي وسعي لاجل مسرتك

— شكراً جزيلا لفضلك العظيم يا سيدي . اني ارجو فضلا أو جميلا لا يستطيعه احد سواك يا مولاي . فاذا تفضلت به لا تسر نفسي فقط بل تسر نفساً اخرى . ورجائي ان يسر نفسك ايضاً

فاضطربت افكار الامير لهذه المقدمة وانطلقت الى كل صوب حائمة لا تدري اين الهدف الذي يرمي اليه هذا الكلام . وقال : ماذا تريدين ؟ اني وقف على عمل كل ما يسرك

فقالت ماري بكل تخشع و بوجل كأنها تتكيء على جدار مزعزع تخاف ان يقع : مولاي . ارجو حلمك اولا لأني لا استطيع ان امتثل لديك اذا لم تكن حليما

فاستغرب الأمير تضرعها هذا وتحير فيما ذا يكون بعده من طلب أو اقتراح وقال : لا استطيع ان اكون الا حليما لدى هذا اللطف الساحر . فماذا تبتغين

— ابتغي ان ابقى مشمولة بنعمة حلمك حتى بعد ان تسمع طلبتي

فازداد استغراباً وجعل يوجس فيما يعقب هذا التوسل من رجاء . بل كادت الريب تخامر ظنه . وقال : الى الآن لم اعلم ماذا تبتغين يا بنيتي . فلماذا هذا الحذر ؟ قولي بصراحة ماذا ترومين

— اروم رضاءك على فريد

وكأن هذه العبارة نزلت كالصاعقة على نفس الأمير اذ اقامت كل ظنونه وريبه واقعدتها . وقال عابساً : ويك ! ما شأنك بفريد ؟

ورأت مارى انها نزلت الى المعمعة فلم يعد في الامكان التنكص عنها بسلامة . فاعتصمت بحبل الشجاعة والحق وقالت : فريد مريض بداء لا براء منه له الا برضاك وقد حاولت ان اشفيه منه فلم استطع . فبربك ساعدني على شفائه

فاضطرب الامير أي اضطراب ووضع كفه على وجهه مرتعشاً وقال بصوت خافت كأنه يخاطب نفسه : ويلاه ! اني أحس ان احشائي تلاطم بعضها بعضاً كلجج البحر الثائر . اهذا من جملة دينونتك يا رباه !

ثم نظر في الفتاة نظرة امتعاض وقال : ألعلك يا هذه ماري الراهبة ؟

— اني عبدتك الطامعة بحلمك والراجية رضاك . ولن يكون أمر الا بحسب ارادتك .

فأجاب متمرمراً ! لله منك ماكرة . تخدعينني ثم تبتغين رضاي ؟

— معاذ الله أن أخدع أحداً يا سيدي بماذا خدعتك ؟

— أما خدعتني اذ قلت في زيارتك الماضية ان اسمك مريم نعمة الله

— كلا يا مولاي لأن هذا هو اسمي الحقيقي . وانما الناس سموني ماري الراهبة على غير ارادة مني : فان كان في تسميتي خداع فهو من الناس لا مني يا مولاي

فتململ الأمير متمرمراً وقال : أما كنت تعلمين اني لم اكن اعرف انك هي الفتاة التي تغرر بابن أخي وتغريه وتغويه لاقتناصه ؟ اما كفى هذا خداعاً .

ـ مولاي لست مغررة بابن أخيك ولا مغوية له والا لما كنت التمس رضاك . وثق يا سيدي ان مشيئتك هي القضاء المبرم إن سعادة أو شقاء .

فتجهم الامير وابتدأ الغضب يجيش في صدره وقال : لله من دهائك . تثيرين ثورة هائلة في اسرتي ثم تبتغين رضاي . لا تدرين يا هذه ان مكرك ودهاءك يدكان صرح المجد الرحابي و يقوضانه الى الاساس . لله منك داهية فقد كنت منذ هنيهة متقمصة في جسم حمامة .

فشعرت ماري ان المعمعة حامية وان الجهاد يحتاج الى قوة عظيمة فاستنجدت بفصاحتها وحكمتها ودماثة خلقها وقالت : مولاي ان صرح المجد الرحابي لأقوى وأرسخ وأمتن من أن تقلقل فيه حجراً فتاة ضعيفة مثلي . على اني بعكس ما تظن . اني أبذل كل شيء حتى حياتي لأجل سلامة بيت الرحابي الشريف . ولست أطلب منك رحمة بي بل رفقاً بفريد

وبدأ البركان يثور . فقال : ويحك يا فتاة لقد مثلت لديّ دور دهاء غريب وكذبت ظني فيك . شرعت أرى الحمامة الوديعة ثعلبة مكر . اني أنذرك من عقبى علائقك بفريد . أجود بكل شيء الا بالرضى على فريد ما دام متصلا بك . فان كنت تبتغين مني رحمة ورفقاً بفريد فبابتعادك عنه يحصل عليهما . لا تطرحي شباكك عليه فيسلم

فوجفت الفتاة اغتياظاً وقالت متجلدة متضرعة : مولاي . لست أتعرض لفريد بشيء ولا بيني و بينه الا كل علاقة طاهرة شريفة حسب سنة الله الأزلية ؟

فقذف بركان غضب الامير قذفة سخط . وقال : ويحك ! أتحسبين مغازلته والتحبب

اليه والتدلل عليه سنة الله الأزلية ؟

فلم تجد الفتاة بداً من مقابلة القوة بالقوة ومقارعة الحجة بالحجة فقالت: نعم ياسيدي ان الله جعل الحب الطاهر سنة للزواج المقدس . أما تزوجت يا مولاي بحسب هذه السنة ؟

فصاح بها الامير زاجراً : صمتا ياوقحة. ألا تخجلين ان تتلفظي بالحب ؟ أم ان الدير الذي ربيت فيه ألقى عليك دروساً في الحب يا قليلة الادب .

ـ لا تجهل ياسيدي ان الله أمر بالحب الطاهر . وهو حب سائغ للفتيات الطاهرات كما هو سائغ للفتيان الطاهرين

ـ الفتاة الطاهرة هي التي تصد الفتيان عنها . وأما الفتاة التي تغازل الفتى وتستهويه وتتبذل لديه فهي فتاة دنسة وحبها رجس

فقالت ماري محاورة : لا أدري ياسيدي ان كنت قد أسأت التعبير. وصريح ما أريد ان أقول لسعادتكم هو اني لا أتزوج فريد الا زواجاً شرعياً برضاك ورضاك أولا .

فنزق الامير وقال محتدم الغيظ : ويحك ! وهل بلغت منك القحة أن تذكري الزواج أيضاً ؟

ـ قلت يا مولاي انه لا يكون الا برضاك . فهل أسأت بهذا الاستدراك ؟

ـ حسبك قحة أن يلوح في بالك أمر الزواج بفريد فكيف بك وأنت تتلفظين به

ـ لا أدري أين القحة هنا يا سيدي والزواج سر قدسه الله وأنا جعلت رضاك شرطاً له . فأين القحة

ـ حسبك غروراً وقحة انك تطمعين بزواج فريد وأنت تعلمين انه من أسرة نبيلة سيكون هو كبيرها بعد عمه

ـ أحس بنفسي ياسيدي اني فتاة حسنة السيرة طيبة السريرة مخلصة في الولاء مستوفية معظم الصفات التي تؤهلني للزواج بفتى كفريد . فلماذا أعد مغرورة أو وقحة اذا كنت اطمع بزواجه ؟

فحمي غضب الامير وقال : كأنك تتجاهلين من أنت ولا تدرين ان فتاة مثلك لا تطمع بزواج فتى من أسرة شريفة

ـ بل اعرف جيداً من أنا يا مولاي . ولا بد ان سعادتك تجهلني فسل عني المدرسة التي تعلمت فيها والدير الذي ربيت فيه والناس العديدين الذين يعاملونني

فاجاب الامير مزدريا : لا مدرسة ولا دير يستطيعان ان يمحوا الدنس الذي ولدت فيه . اتأسف ياهذه ان هذا قضاء الله عليك وليس لقضائه مرد . فلست اسأل احداً عنك بل اياك اسال: هل تعرفين من اي نسب أنت ؟ فكيف اذاً تطمحين الى الزواج بابن الرحابي .

فعظم الامر على الفتاة وشق عليها ان يصرح الامير بما يحسبه سبباً لمنع زواج ابن اخيه بها وقالت بحزم: الانسان يامولاي باصغريه : قلبه ولسانه ، لا بابويه . فهل لسعادتك ماخذ على شخصيتي

ـ انك فتاة بمناقشتك تستدرجيني الى

بسط حقيقة امرك لك ونظر الناس اليك . فاعذريني اذا قلت لك ان الناس يعرفون جيداً انك خياطة. وابن الرحابي لايتزوج خياطة

— الخياطة ياسيدي مسترزق شريف. والانسان لا يعاب الا اذا كان عالة على غيره او يسترزق بعمل غير شريف

واسترسل الامير في خشونته وقساوة خطابه وقال : ولا تزالين تحرجينني الى ان اريك نفسك بمرآة الرأي العام. فالناس يعرفون جيدا انك لقيطة اعني انك مجهولة الابوين . فهل تعرفين ابويك ؟

فوقع هذا السؤال في نفس الفتاة وقع السهم السام. ولكنها استجمعت حزمها وشممها وقالت : حسبي فخراً اني ابنة الدير ربيبة الفضيلة والطهر والعلم والقداسة . هل تستطيع ياسعادة الامير ان تدلني على بيت مجيد نبيل اقدس مقاماً من الدير ؟ وهل تستطيع أن تدلني على ابوين اطهر حجراً من راهبات الدير .

— حسبك أن يقول الناس انك لقيطة فهل تفهمين ما تحت لفظة اللقيطة من معنى دنس ؟ اتاسف ان لحاجتك تحرجني ان افسر لك ما يفهمه الناس عن منبتك وما يحف جولك من العار

— ولكنك ياسيدي لاتجهل ان تسعة اعشار هؤلاء الناس الذين يفسرون معنى اللقيطة بالرغم من وضوح انسابهم ومعلومية اصولهم وفروعهم ليسوا اطهر منبتاً ولا اقدس مبيتاً ولا افضل تربية من اللقيطة. واللقيطة تمتاز عليهم بانها ليست مسألة عن دنس منبتها كما هم مسألون

فقال الامير متضجراً من هذه المناقشة التي كادت تخرجه من صبره : بالرغم من هذه الفلسفة الباردة يضع الناس اللقيطة في منزلة الهوان مهما تجملت بالمحامد والمحاسن . ولذلك اذا كنت تطمعين بان تتزوجي فتى شريف المحتد تكونين مغرورة والغرور يفضي بك الى الخيبة . فاقصري عن المحاجة في هذا الموضوع لان محاجتك لا تنقح نظرية الناس ولا تعدل الرأي العام

فضاقت ماري ذرعاً بما رأته من عقم المناقشة في الموضوع ورأت ان تحول المعركة الى جهة اخرى فقالت : ولكن فريقاً كبيراً من الناس يرى عكس هذا الرأى وفريد منهم

فانتهرها قائلا : كفى يا فتاة ان تغرري بالفتى والا فانت قاتلته وقاتلة مستقبله وهادمة بيت الرحابي . انصح لك أن تقلعي عن غيك هذا وأن تبرحي هذا البلد الى أي مكان مجهول لا يدري به فريد . وان كنت في حاجة الى معونة مالية فاقدمها لك . لا تتعبي نفسك في أمر عقيم . لا يمكن ان أدع فريد الرحابي ان يتزوجك . فهل فهمت موقفك !

وكان يتكلم بحدة وشدة ولهجة تهديد

حتى جزعت الفتاة وخافت سوء العقبى ولكنها لم تستسلم للياس فقالت متضرعة : مولاي . اني امتثل لأمرك وأرحل الى عالم مجهول ولكنني واثقة ان رحيلي لا ينقذ فريداً من ثورة نفسه .

فقال ساخطاً مهدداً : لا يعنيك أمر فريد . سافري لئلا تتعرضي لنقمتي الهائلة

ـ اسافر . ولكن يجب ان تعلم انك قاتل قلبين قتلا أبدياً لغير ذنب يجترحانه سوى خضوعهما لسنة الله تعالى . لست احسب حساباً لحكمك الجائر عليّ يا أمير بل اخاف سوء عقباه على فريد . فهل تستطيع ان تصون حياة فريد من شر يأسه . اني انتقم لك من نفسي وأغنيك عن ارتكاب جريمة الانتقام . ولكن فريداً ! آه فريد ! من يحميه من نقمة نفسه ؟

وهنا لم تتمالك الفتاة من البكاء ولكن تدفق دموعها لم يكن ليلطف قساوة ذلك الشيخ المتصلب فقال : لا تهتمي بفريد . اني أعرف كيف اشفيه من حماقته . انه ينساك بعد حين اذ يعود الى رشده و يفهم اني وقيته من الانتطاح بعارك

ـ اذا كنت تظن هكذا يا أمير فأنت مخدوع بنسبك مغرور بكبريائك . ان فريداً ينتحر قبل أن يعتقد بالحماقة التي تنسبها اليه

ـ خير لنا أن ينتحر من ان يلوث بيت الرحابي بعار . الافضل ان تنتصحي بنصيحتي ـ سافري ولا تدعي فريداً يعلم بمقرك وانا اعلم كيف اشفيه من داء طيشه . حاذري أن يعلم بمصيرك والا نزلت نقمتي عليكما معاً ـ نقمة هائلة لا تقف في سبيلها قوات الحكومة ولا قوانينها

وهنا نهض كانه يريد أن يقطع الحديث عند هذا الانذار . وأما ماري فبلغ الياس منها اشده فانقلبت ضراعتها الى الوقاحة وقالت بصوت اجش عنيف : لا تهولنا نقمتك ايها الامير العاتي مهما كانت هائلة فهي برد وسلام الى جنب ويل انفصالنا الواحد عن الآخر . واعلم يا امير ان النار مهما كانت شديدة الحرارة لا تستطيع ان تفصل عنصري الماء المؤتلفين الفة كيماوية الواحد عن الآخر . وجل ماتفعله انها تحول الماء الى بخار ثم يبرد البخار فيعود ماء . هكذا قلب فريد وقلبي مؤتلفان بقوة الحب الفة كيماوية . فمهما حمي غضبك لا يستطيع ان يحل هذه الالفة . يستطيع ان يفرق عناصر جسدينا كما تفرق الحرارة دقائق الماء ولكن عناصر قلبينا تبقى متحدة . فمتى برد غضبك تعود عناصرنا المتبخرة فتتجمع . ليس غضبك ياسيدي الامير الا البوتقة التي يتمحص فيها حبنا الخالص

وكانت ماري تتكلم بحدة غير مبالية بغضب الامير لانها قطعت الامل من استرضائه فلم تعد مضطرة الى مداراته . اما هو فلما جرؤت هذه الجرأة فى الرد عليه انفجر مرجل غضبه وصاح بها : صمتاً

يافاجرة : ما اخطأ ظني فيك ياساقطة . لقد توقعت ان تكوني بنت الفساد مسلسلة من دم فاسد أعيذ دم آل الرحابي من الامتزاج به . واذا كان فريد ابن اخي يصر على حماقته والانخداع بمكرك فلا يكون ابن اخي. ويسرني ان ينفصل عن الاسرة الرحابية لئلا يمزج بها دما غريباً مجهولا . وان اصر على الانتماء الى اسرتي النبيلة الطاهرة الدم اقطع علاقته بك فلا اتردد في بتر حبل حياته وحياتك معاً وان اختصرت معهما البقية الباقية من حياتي. فثقي ياوقحة اني لن استعظم ارتكاب جريمة القتل فيكما . هل فهمت ما اقول ؟ .

وكان ينتفض غضباً وماري واقفة امامه وقوف الصخر أمام السيل الجارف فقالت: اغضب ياهذا ماشئت فليس غضبك الا ليزيد الفة قلبينا مناعة ومتانة . لا تظنني احسب حساباً لنقمتك مهما كانت هائلة لانك اضعف من أن تنال مني ومن فريد قلامة ظفر . وما ابتغينا رضاك لحاجة بنا اليه بل لكي نبقيك منا في مركز مبجل محترم . فاذا كنت تصر علي الاباء فنحن لانبالي ايضا .

حينذاك افلت من يد الامير عنان طبعه فهجم عليها وقبض على ذراعها قبضة شديدة وأصرَّ اسنانه وحرق الارَّم وصاح: ويحك يادودة التراب بل باجرثومة الفساد . لا يمنعني عن اقتضاب حياتك الا معرة استقوائي على دودة وتلوث يدي بدم رجس دنس قذر وتلطيخ بيتي بهذه الرجاسة

فصاحت به منتفضة مفلتة من يده : اعلم ايها الانسان الترابي الضعيف : ان الله يخلق دم كل مخلوق منذ يولد طاهراً نقياً مقدساً مهما كان أبواه فاسدي الدم . ولكن بعض الناس المتبجحين بنقاوة دمائهم وشرف سلالاتهم هم الذين ينجسون تلك الدماء الطاهرة المقدسة ويفسدونها . لقد ضقت ذرعاً من مبالغتك في التبجح بشرف اسرتك. فهل تستطيع أن تبرهن نقاوة هذه السلالة من الفساد ؟ هل تستطيع أن تثبت ان جميع آل الرحابي كانوا أطهاراً بررة ؟ هل تستطيع أنت ان تبرهن طهارة سيرتك ؟ انك يا هذا تدينني باثم غيري . فان كنت بلا خطيئة فارمني بحجر

فترنح الأمير من شدة الانفعال كأن الفتاة كانت ضميره متجسداً أمامه ومحاكما له . ووضع كفه على وجهه كأنه يحجب رؤيا عنه، ثم قعد على الكرسي واهي القوى وقال متجلداً : ويحك يا فاجرة . حسبك ان سواد الناس يقولون انك بنت زنى نابتة في حمأة الفساد . ولكنهم ماذا يقولون عن آل الرحابي ؟ كفى كفى . لست أنا الذي يحكم عليك هذا الحكم بل هو حكم الهيئة الاجتماعية . فاخرجي من هنا وابتعدي عن آل الرحابي . وثقي اني لا أدعك تنتسبين اليهم بحال من الأحوال

فوهت عزيمة الفتاة لما رأت ان ذلك الشيخ العنيد يزداد صلابة وتعنتاً ويؤكد لها وعيده فاستسلمت الى اليأس والتحسر والبكاء وقالت : ويلاه . أحقيق ان الناس ينظرون اليّ هكذا ؟ رباه ! احكمك هذا أم هو عتو عبادك ؟ انت تعلم اني نظيفة من عار أبوي ان كانا قد ولداني بعار فهل تسمح أن يدينني الناس بجريرة أبوى أم تريد ان يصدق فيّ قول كتابك المقدس « الآباء يأكلون الحصرم والبنون يضرسون »

فقال الامير في ابان تأثره ووهي قواه كانه يزكي ذلك القول : الحمد لله انك وجدت في كتاب الله المقدس برهانا مقنعا لك بحطتك . فمقاومتك قضاء الله وحكمه انما هي تمادٍ في الفجور . فاخرجي يا هذه لقد هدمت قوتي واوهنت عزيمتي بوقاحتك

فخرجت ماري في حالة من الانفعال تدك الجبال وبقي الامير واهي القوة مستلقيا على المقعد يبتغي أن يملك روعه ويسترد قوته . وبعد برهة نادى سارة فوافت اليه مسرعة فقال : اما عادت زكية ابنة اختي بعد من زيارتها .

— لم يحن موعد عودتها يا سيدي الامير . فهل تأمر بشيء ؟

— كلا . وانما أود ان اعلم يا ماكرة اما كنت تعلمين قبلا من هي هذه المطرزة الساقطة؟ فكيف تدعينها تدخل الى بيتي لكي تحتال عليّ مستوهبة شرف حسبي ونسبي

فوجفت سارة جزعة وقالت: يامولاي انت طلبت مني ابرع مطرزة وهي ابرعهن في هذا القطر

— لماذا لم تقولي يا خائنة انها هي خليلة ذلك الاحمق ابن اخي فريد! إم انك كنت تمهدين الطريق لها عسى ان تستمر بمكرها ودهائها وتقنعني ان اقبلها زوجة لابن اخي . ألم تعلمي يا غبية انه ما من قوة تحت السماء تستطيع ان تلين قلبي على فريد وهو ذو صلة بها . اني في ابان شيخوختي والشيخوخة موصوفة بالصلابة والعناد . لقد رأيت من وقاحة هذه الفاجرة مازادني عناداً في جحدها واستنكارها كل صلة لها بفريد . لست أقبل في بيتي اثراً من هذه الساقطة . خذي ديباجتها ورديها اليها مع هذه الجنيهات اجرة لها . تباً لها من سليطة . لقد زلزلت هيكل فؤادي بتأنيبها وكادت تجدد حرب ضميري . آه ! لقد ضاعت الفرصة السانحة للحصول على الصورة التي مع الراهبة وعلى اسرار تلك الراهبة ولاغرائها لكشف اسرارها لي . اني اسمع جرس الباب يقرع فانظري من القادم لعل زكية عادت . لا تدعيها تعلم ان تلك الفتاة المنحطة كانت هنا

— كلا يامولاي!

وخرجت سارة

الفصل الخامس عشر

دينامیت

ما لبثت سارة ان عادت مكفهرة وقالت بصوت متهدج : هنا يا مولاي راهبة تتوسل ان تقابل سعادتك

فنظر فيها نظرة النمر الثائر وقال : لا عيب في هؤلاء الراهبات الا انهن يطفن على بيوت الاغنياء مستعطيات . امس جاءت راهبة فاعطيناها ماسمحت به النفس واول امس جاءت اخرى فما بخلنا عليها . والى متى ! خذي اعطي هذه

ومد يده الي جيبه فقالت سارة : ليست هذه الراهبة مستعطية يا سيدي بل هي تريد ان تقابل سعادتك مقابلة خاصة

فقال الامير يكلم نفسه : العلها الراهبة التي ذكرتها تلك الفتاة المنبوذة ولكنها ما تمكنت بعد من مقابلتها . وهبها تمكنت فلا بد ان تغير عزمها عن مقابلتي . ترى ماذا تريد هذه الراهبة الان ؟ دعيها تدخل

وما ان خرجت سارة حتى دخلت الام اغناتيا والامير لا يعرفها . ولكن ما في محياها من جلال وفي عينيها من سحر جعلاه يقف لديها مرحبا باشاً برغم انفعاله . وتقدم لمصافحتها مصافحة متجهمة عابسة شامخة الرأس خيلاء حتى كاد عنفوانه يضأل لديها . وقال : اهلا وسهلا بالاخت المحترمة

فاجابت برصانة : ادعى الام اغناتيا رئيسة الدير يا سعادة الامير

— على الرحب والسعة . ولقد حلت البركة والطهارة

— شكراً يا سعادة الامير . عسى الا تغير يقينك بحلول بركة الله وطهارة خادماته هنا

— معاذ الله يا حضرة الام اغناتيا أن يتغير يقيننا بطهارة قلوب البتولات القديسات خادمات الله . انهن ينبوع الفضيلة والاداب وعلى يديهن تتلقن البنات الآداب والفضائل وتتدمث اخلاقهن

فقالت بلفظ حازم وكلام جازم : شكراً لهذا اليقين الشريف يا سعادة الامير . واذا كان هذا يقينك فلا اظنك تشك بان الفتاة التي نربيها في ديرنا منذ رأت نور الشمس الى أن صارت ترصد المريخ ، ونعلمها ما امكن من العلوم وندمث اخلاقها ، تعد فاضلة طالما لم يبد منها امر شائن .

فاستغرب الامير هذه المقدمة وهذه اللهجة وادرك ان وراءها اشياء فقال متردداً : لا شك في ذلك يا حضرة الام اغناتيا ولكن . . .

فقاطعته قائلة : لم اجيء اليك لكي

نتناقش في فضائل الدير وتعاليمه وتربيته وانما جئت لاخبرك اني ربيت فتاة منذ ولادتها الى هذه الساعة تربية صالحة بحسب تعاليم كتاب الله المقدس وما زالت عيناي ترعيانها حتى الساعة . فكانت ولا تزال نموذج الطهارة والعفاف والفضائل والاداب والاخلاق المرضية

وهنا ادرك الامير من تعني فوجف واضطرب وبدأت سؤرة الغضب تبدو على جبينه وقال : اظنك تعنين . . .

فقاطعته متغطرسة وقالت : نعم اعني الفتاه التي كانت تسمى عندنا في الدير نعمة الله وخارج الدير سماها معارفها ماري الراهبة لان سلوكها بين الناس وفي العالم المملوء من التجارب والمحفوف بالسنة الشرور سلوك راهبة صالحة معلمة مرشدة الى الصلاح

وهنا عاد الامير ينتفض وقال : انك مخدوعة بهذه الفتاة ايتها الجليلة . لم تبق كما ربيتها طاهرة عفيفة . وعينك التي تراقبها وتسهر عليها لا تراها في خباياها ولا تنظر مخازيها

فاجابت الام : اغناتيا على الفور : بل اثق ان عيني تراها بلا انقطاع . تراها وهي بين عموم الناس وتراها وهي في وسط التجارب وتراها وهي مع ابن اخيك خاصة وهي هي كما ربيتها نموذج الطهر والعفاف

فقال الامير مفصحاً عن غضبه بحدة . اذاً تعلمين انها تغازل ابن اخي وتستهويه وتتعشقه وتعشقه بنفسها

— اعلم أن قلبها وقلب ابن اخيك تلبيان نداء الطبيعة التي هي ارادة الخالق والهامه ووحيه

فانتفض الامير وصاح : ويحك من مهتكة ماسمعت مثل هذا القول الفظيع من عامي بعد . فما افظع ان اسمعه من راهبة تدعي الطهارة والقداسة . لله منكن مرائيات . اهكذا تربين الفتيات ؟ اعلى هذه المبادىء تدربنهن ! اتلقنهن لغة الحب ايضا ؟ أهذه الغاية اذا تعلمنهن الرقص ؟

فصاحت به زاجرة . كلا يا امير لسنا نعلمهن لغة الحب بل الله تعالى جعل الحب لغة القلوب . ونحن نبذل جهدنا ان نقي الفتيات من اللحن بهذه اللغة . نبذل جهدنا ان نصونهن من الزيغان عن نقاوة هذه اللغة وقداسة فصاحتها . نبذل جهدنا في حفظ قلوب الفتيات في حظيرة الحب المقدس الطاهر المستمد من الحب الالهي . نبذل جهدنا ان نقي حبهن من التحول الى دعارة . الحب قوة الهية مقدسة فلا تستطيع قوة بشرية ان تصدها . وانما تستطيع القوة البشرية ان تحولها من القداسة الى الرجاسة وان تصونها من هذا التحول . وهذا ما نبذل جهدنا فيه في الدير . فاعلم يا حضرة الامير ان ماري تحب فريداً وفريداً يحبها وكلاهما يبتغيان الزواج المقدس . فلا تستطيع قوة تحت الشمس ان تقاوم هذا الحب او تنقضه

لانه شريعة الله الازلية وسنته المقدسة الطاهرة . وانما نحن نستطيع ان نقي الفتاة ونقي الفتى أيضاً من افساد هذا الحب . وقد جعل الله الزواج سراً مقدساً صائنا من الفساد وجعل الحب هيكلا مقدساً له . فان كنت تحول دون هذا الزواج كنت مقاوماً شريعة الله ومرتكباً جرماً لا يغتفر في هذه المقاومة . لانك تدفع كلا قلبي الفتى والفتاة الى افساد لغة الحب ، بل الى الفساد بعينه . فجئت لكي احذرك من عقبى معارضتك وابلغك ان الفتاة لاتزال حتى الساعة ملاكا كريماً وحمامة طاهرة . فان سقطت كنت انت المسأول امام الله عن سقوطها .وان لم تبال بنقمة الله فاحذرك من شر نقمتي

وكان الامير وهو يسمع خطاب الام اغناتيا البليغ هائج النفس جائش الصدر قلق الفؤاد واوتار جهازه العصبي المتوترة تنتفض ثوارنا فقال مجاهداً في ضبط نفسه : اذا كنت ايتها الام الراهبة تعترفين ان ديركن مدرسة للحب والغرام فجدير باسرتنا ان تتجنب كل من له صلة بهذه المدرسة . نحن نحافظ على شرف حبنا ونصونه من التلطخ بادناس الحب والغرام لاننا نعلم انه ما تسود الحب مرة الاظهرت من ورائه يد شيطان الفساد . فاستغرب ان اسمع من فم راهبة حديث الحب . اكاد اعتقد ان التي تخاطبني عاشقة متنكرة في ثوب راهبة وهي خبيرة في فنون الحب

فاستشاطت الام اغناتيا غضباً وتكلمت بحزم وحدة وقوة ارادة : لا تدعني ايها الامير اتوهم اني لدى شخص من العوام يتذرع بتأويل الكلام الى رد الحجة والبرهان . لقد بسطت لك ماذا يعلمه ديري للفتيات واي المباديء يبثها فيهن . فلا تحرجني لاعادة كلامي بحروفه لان احراجك هذا لي يثبت عليك المماحكة والمراوغة من امام وجه الحق . ارجو ان تتفهم كلامي كما تدل عليه ظواهره التي لا تختلف عن بواطنه وان تصارحني كما اصارحك . قلت لك ان فريداً وماري متعاشقان حسب سنة الله التي استنها لادم وحواء وذريتهما .وما زالا طاهري القلب وزواجهما سر الهي مقدس يصون طهارتهما . فاذا منعته بأي الوسائل كنت تهدم حصن طهارتهما وترمي بهما في حمأة الدعارة والدنس

— لست انا الذي امنع هذا الزواج وانما تقاليد اسرتنا المتوارثة التي صانت شرف حسبنا ونسبنا الى اليوم هي التي تمنعه

— اعلم يا امير ليست التقاليد الا بقايا عادات متحجرة والتمسك بها انما هو تقهقر الى القديم ورجوع الى الوراء وتدهور في سلم الارتقاء في درك الانحطاط . وليس بدعا ان يتشبث الشيوخ بتلك التقاليد لان عقولهم متحجرة مثلها . ولو كان العالم يعتمد

دائماً على حكمة الشيوخ هذه، حكمة التمسك بالتقاليد، لما تقدم خطوة في رقيه . فيقينك بشرف الاحساب والانساب تقليد قديم لم تبق له قيمة الا في عقليات الشيوخ المتصلبة . واما عقلية الشبان فتجعل القيمة للشخصيات العظيمة بنفسياتها لا باحسابها وانسابها . . .

فقاطعها الامير قائلا. يكفي الاحساب فخراً ومجداً انها ترتفع عن ادناس الحب والغرام ياراهبة . .

فصاحت به جاحظة : صه : اذا كانت تقاليد الاحساب والانساب تقف عثرات في سبيل الحب الطاهر الذي هو شريعة الله الابدية كان التمسك بها معصية لمقاومة الشريعة الالهيـة . فاعلم يا امير ليست تقاليدك الحسبية النسبية هذه الا دخان سخـافات البشر الذي يتلبد ويحجب ضياء شمس الحق الالهي . يجب ان يتبدد هذا الدخان وان تسطع اشعة الشمس

فنزق الامير قائلا : تضلين اي ضلال ياخادمة شريعة الله في تفسير التقاليد. ليست التقاليد الا الوراثة الاجتماعية التي تصر على سلسلة الشرف والنبل في مواليد السلالة لكي تحفظ للنوع ذاتيته وتصون له خواصه . فبالتقاليد نستطيع ان نحافظ على شرف نسبنا الذي نرتفع به عن تبذل العوام . ولولا ساطة هذه التقاليد لضاعت الانساب وانحط الاشراف الى ضعة العامة وما بقي في الهيئة الاجتماعية عنصر يرتفع بها الى جهة الـكمال

فقالت الراهبة في ابان تحمسها متضاحكة هازئة : زه . زه . زه . انك يا امير تعلق اهمية عظيمة على تسلسل الانساب والمحافظة على نقاوة دم السلالات كانك تظن ان الشرف والنبل من عناصر الدم . ويلوح لي انك تجهل ان الدم الذي يجرى في عروقك هو كالدم الذي يجري في عروق الزنجي المتوحش . كلاهما شكل واحد في المختبر الكيماوي. واما الحسب والنسب اللذان تتباهى بهما فلا يتسلسلان في الدم ولا شأن للدم فيهما بل هما يتسلسلان في الحياة الاجتماعية بتأثير التربية والعشرة فقط . ولا اظنك تجهل ان في طبقة العوام من نبلاء النفوس وشرفاء القلوب وانقياء الضمائر اضعاف اضعاف من في طبقات الذوات والاعيان، وان بين هؤلاء من اخساء النفوس ونجمي القلوب وفاسدي الضمائر من لا تجد مثل حطتهم وخساستهم في طبقات العوام . فكفى ياهذا تبجحاً بالحسب والنسب وهما كالخيالات الوهمية في مخيلات ذوي العقول المختبلة او كصور الاحلام التي تصبح في اليقظة اشباح أوهام . فلا تظن يا امير ان بين فريد وماري فرقاً من هذا القبيل فهي بلا شك انبل نفساً واشرف خلقا واطهر ضميراً من جمهور كبير من ذوي الاحساب والانساب وحملة الالقاب حتى من بعض الامراء الرحابيين

فانتفض الامير غيظاً وصاح : ويحك يا امرأة يكفي انها خياطة . وآل الرحابي لا يضمون الى نسبهم خياطة كانت تطوف بابرتها على البيوت لكي تحصل على القوت

فاجابت الراهبة بحدة : واي عيب في هذا يا امير ، واي حقارة او ضعة في حرفة الخياطة ؟ اليست من فروع الفنون الجميلة؟ اي سيدة من سيدات منزلك او من ذويك أو من اقاربك تستطيع ان تبدو في ابهتها وجمالها وجلالها اذا لم ترتد ثوباً خرج من بين يدي خياطة بارعة ؟ بل اي ملكة او اميرة تستطيع ان تخرج من حجرتها اذا لم تكن في ثوب خاطته امهر خياطة . فجانب عظيم من جمال الناس وجلالهم وابهتهم انما هو من فضل فن الخياطة . فللخياطة يا امير فضل على المجتمع وأبهته يتفوق جداً على فضل الامارة وأبهتها . وأي عار في العمل يا امير ؟ اليس عمل العوام النافع اشرف من لهو الاعيان وطيشهم وحمقهم؟ لقد كان المسيح يشتغل في النجارة مع يوسف خطيب امه ، وكان تلاميذ المسيح صيادي سمك . وقد كان جد جدك فلاحاً ، وربما كان جده بدوياً غازياً كقطاع الطرق

فاشتد حنق الامير وقال متغيظاً : ربما كان جدي أو جد جدي كما تقولين ولكنه لم يكن مجهول الابوين كفتاتك ماري اللقيطة . وانت تعلمين ان اللقيطة لا تكون الا بنت زنى

فاجابت الام اغناتيا بحدة وشدة : ربما كانت كما تقول ولكن الله خلقها طاهرة نقية ـ خلقها الله في وحلة فساد وشبت في الفساد . فلا تضم الى بيت الرحابي جرثومة فساد

ـ ان حرارة الحب الالهي رفعتها من بؤرة الفساد كما ترفع حرارة الشمس الماء من الوحلة نقياً ثم تقطره على الازاهر العطرة قطرات ندى نقية

ـ ولكنها تبقى في نظر الناس بنت فساد وضيعة منحطة كما ان فريداً في نظرهم ابن شرف ونبل

ـ لا ينظر هذا النظر يا امير الا الناس الذين لا قيمة عندهم الا للظواهر الكاذبة . واما الناس العاقلون الذين تهمنا نظرياتهم فيعلمون جيداً انه ليس في شرائع الدنيا ما يجعل ذنب ابوي الفتاة في عنقها

فقاطعها الامير قائلا : بل هي نفسها تعرف جيداً قول الكتاب المقدس الذي هو شريعة الله المقدسة « ان الاباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون »

ـ وانت تعرف جيداً قول المسيح : « من كان منكم بلا خطية فليرمها بحجر »

وهنا انتفض الامير جزعاً وترنح بريد الكلام وكانه لا يستطيعه . فحملقت فيه الراهبة وقالت مؤنبة : هل انت واثق ان ابويك لم يأثما . انت تعرف ابويك فهل تعرف بنيك ؟ هل تستطيع ان تدلني على اولادك؟

هل تقدر ان تقول لي كم ولداً لك ؟ كفى تبجحاً بشرف محتدك وانت تعلم ان هذا المحتد ملوث بالمخازي . كفى افتخاراً بطيب عنصرك وانت تشم رائحته المنتنة . لقد قتلتنا بدعوى نبل الحسب والنسب وما هما الا كالبرج المبني في الهواء او كالصرح المهندس على امواج الماء . كفاك غروراً ياهذا . طهر قلبك من قاذورات الدنس وحطة الاثام وضعة الرذائل لكي يستطيع لسانك ان يتلفظ بالفاظ الشرف والنبل

فازداد انتفاض الامير ووضع كفه بين وجهه ووجه الام اغناتيا كانه يصد عنه نظرها الذي يقع على قلبه كالسهم المارق أو على عينيه كشعاع الشمس الباهر. وصاح: ويحك ياهذه ! هل انت الديان يدينني الآن؟

فقالت بانفعال شديد : حاشا . الدينونة لله وحده . وانما الله جعلني ضميرك الان الماثل امامك. فقل لي ايها الانسان هل أنت بار حتى تطلب أن يكون ابوا الفتاة بارين ؟ اما يكفي أن تكون الفتاة بارة؟ الا تعلم أن الانسان ليس ابن ابويه بل ابن الله وحده والله يخلقه طاهراً. والناس يدفعونه للاثم . فاذا اثم فالله وحده يدينه وقد يرحمه ويغفر له . واما انت ايها الانسان الاثيم فبأي سلطان تعاقب اخاك الانسان بجريرة والديه وانت اكثر من والديه اثماً ؟

فتململ الامير وحاد من مواجهتها كانه يهرب من امام وجه الديان وصاح : عني ايها الضمير القاسي . عني ايها الديان العنيف اني مختار للاثم . فاتركيني يا امرأة استقبل عقاب ربي على مهل. لا تعجلي بي الى الهاوية ولا تصبي جام غضب الله علي دفعة واحدة

واستمرت الراهبة بتقريعها : ان الله رحوم يغفر للتائبين . واما انتم ايها الناس المصرون على خطاياهم فلا تغفرون بعضكم اساآت بعض . ترفعون رؤوسكم من قاذورات آثامكم وتطلبون الطهارة في غيركم . وتختلسون من النساء عفافهن ثم تعاقبون بنيهن بجريرتكم . ايها الاثمة انزعوا الاخشاب التي في عيونكم لكي تروا القذى التي في عيون غيركم

فاشتد انفعال الامير وهاج غضبه وقبض على ذراعيها وصاح : صمتاً يامرأة والا قتلتك . لا احتملك ضميراً لي . والله ما انت ضمير بل أنت ديان يغتصب حق الدينونة من يد الله . ان الله رحوم غفور وأما انت فقاسية . عني

ودفعها وهو لايزال يتكلم: أنت الدينونة والعذاب . انت الديان والجحيم . ابعدي عني . ما اقامك الله وكيلا عنه . اني افزع من قضائك العادل الى رحمة الله

وهنا وهت قوة الامير من شدة انفعاله وقال بصوت متهدج . نعم . الى رحمة الله. والله يرحمني . رباه ! ارحمني ولا تجعل دينونتي مثل هذه الدينونة

فصاحت به : لن يرحمك الله ايها الطاغية اذا لم تتب وتقرن توبتك بكفارة لا بمعصية شريعة الله المقدسة . لقد

افتريت ياهذا على الفتاة وهي ابر منك نفساً واطهر قلباً واشرف من سلالتك عنصراً . ان ابن اخيك يكتسب شرفاً وطهراً اذا اقترن بها . واما هي فلا تكتسب الا لوثة عار برذائلكم ولطخة دنس من ادناسكم . ولولا ان تكون ارادة الله قد زكت حب الفتى والفتاة و باركته لكنت انصح للفتاة ان تعرض عن ابن اخيك .

فحاول الامير ان يتكلم ولكنه تلعثم فاستمرت الراهبة تقول . لقد حذرت الفتاة من شر نقمتك يا امير . واما انا فاحذرك من شر نفسك ومن عقاب ضميرك الماثل امامك

فتشدد الامير وصاح متغضباً : لقد خبت سعياً يا امرأة . تتذرعين باثارة نفسي لكي تنالي منها وطراً . لقد فشلت حيلتك . جئت تحرضين ضميري لكي ينصب ميزان الدينونة لي عسى أن اجعل قضاء وطرك كفارة لآثامي . فقد طاش سهمك لا تزال عندي بقية من الحكمة والتعقل . ان قضاء وطر فتاتك لا يعد عند الله كفارة انا اعلم منك ماذا تكون الكفارة المقبولة عند الديان . فارجعي ياماكرة عن غيك ولا تنوبي عن الله في دينونته

فصاحت الراهبة محتدة متهددة . الا تزال ياهذا تصر على عنادك وتعتصم بصلابتك؟ اماوجدت في ماضيك نذيراً لك من شر مستقبلك ؟الا ترى في حياتك واعظاً لك وناصحاً بتوبتك؟ اذاً توقع الساعة بعد الساعة بل الدقيقة بعد الدقيقة ان ترى ميزان الدينونة منتصباً امامك تبصره بعينيك وتلمسه باصابعك فيرتجف له فؤادك و يزلزل هيكل عظامك . انتظر ايها الرجل الأثيم القضاء الالهي الذي سينزل عليك نزول الصاعقة فيسحق فؤادك الصواني حتى يجعله هباء ثم يجبله بماء رحمته حتى يجعله طينة لينة . حينئذ تتوب اليه تعالى وتكفر عن آثامك بان تضع يد تلك اللقيطة المجهولة الابوين في يدابن اخيك:وتقول هذه ارادة الله تعالى ولا وسيلة لنيل غفرانه الا بهذه الكفارة

فصاح بها : عني ياساحرة لا تطمعي يا ماكرة باستثمار ماضي حياتي . فقد اكتشفت حياتك وما كان تنكرك بثوب راهبة ليخفي مكرك

— لا تعلل نفسك بالاوهام الخداعة . فقد قدمت لك نفسي باسم الام اغناتيا رئيسة دير الراهبات . واسمي معروف جيداً ولا بد أن يكون قد طرق مسامعك. فلا يخدعك ظنك باني متنكرة بثوب راهبة واكرر لك القول اني الام اغناتيا رئيسة الدير وقد ربيت الفتاة مريم نعمة الله تربية صالحة . و بصفة كوني كام لها احذرك من عقبى عنادك وانصح لك ان ترعوي وان تسلم بزواج ابن اخيك بها . والا . . .

وكان غضب الامير قد بلغ اشده فلم يعد التهديد والوعيد الا ليزيده هياجاً الى حد الجنون فصاح : والا فماذا يا امرأة . .

كوني من شئت ان تكوني فما كانت مناقشتك لزحزح قراري قيد شعرة عن مكانه . فابن اخي لن يتزوج فتاتك . وان لم تتوارَ فتاتك عن نظره كانت مغامرة بحياتها

— فقالت الراهبة وهي شديدة الانفعال ايضا : اعلم ياهذا ان رضاك لا لزوم له لعقد هذا الزواج بتاتا . والزواج سيعقد رغم أنفك . وما ابتغيت رضاك الا محافظة على كرامتك وعلى سيادتك الادبية . فاذا لم تشأ أن تعلن رضاك فلا شئت . هل فهمت .

— تبا لك ياشريرة

— واما الثروة التي تهدد ابن اخيك بفقدانها اذا خرج من تحت طاعتك فلا نفوذ لها ولا تأثير الا في مخيلتك . ومع ذلك فستنقاد انت وثروتك صاغرين الى ابن اخيك وزوجته . هل فهمت ؟ والا فستفهم

فكاد الأمير يلطمها لشدة تأثيره وانما نظراتها الحادة كانت تصده وترد كيده في نحره فصاح محرقاً الأرم : عني يا شيطانة . لا أدري باي سلطان تتكلمين .

فقالت مهددة : اني منطلقة ياأثيم فاستعد للقاء الديان وفي يده الميزان . عما قليل ترى أمامك صفحة ماضيك مرسومة بخطوط من لهيب نار . حقاً أن غرورك عجيب غريب . تكون مجبولاً بالآثام ومصوغاً من طينة الحقارة وتتبجح بنسبك القذر وتدين غيرك . فاستعد للدينونة يا مجرم

وخرجت وهي تنتفض انفعالا . أما الأمير فوقع على مقعده واهي القوي وقد اخذ الانفعال منه كل مأخذ لان هذه المناقشة الحادة قتلت صبره وجلده وأوهت أرادته فلم يعد من سلطان عليه الا انفعالاته . فوقع صريع ثورة عواطفه . وهو من طبعه سريع الغضب قريب الانفعال وقد زاده الكبر وتأثير المرض قابلية للتأثر . وأقل مؤثر يثير انفعاله

بعد برهة أخذت ثورة نفسه تسكن واشتدت عزيمته فنادى ساره . فدخلت ملبية فقال لها : أستدعي الدكتور يوسف المعني حالا . أطلبيه بالتلفون . أشعر أن قوتي وهت وعزيمتي انحلت وأظن أن منيتي قربت

— سلامتك ياسيدي الامير . لاباس عليك يا مولاي . لا يزال الدكتور هنا في الحديقة جالساً يقرأ .

— عجباً ! ألا يزال هنا ؟ أليس عليه واجبات .

فقالت ساره ملمحة . لعل هنا أهم واجباته يا سيدي الأمير

— ماذا تعنين يا هذه

— أظنه ينتظر عودة سيدتي الأميرة زكية . سأدعوه حالا

وخرجت سارة متهربة من جواب الأمير لئلا تكون فيه حمم غضب . وبقي الأمير يخاطب نفسه : يالله أخاف أن تردد الدكتور يوسف علينا يقيم عقبات في سبيل خطتي .

أخاف أن وجوده من جملة أسباب الجفاء بين فريد و زكية وأظنه يزيد هذا التجافي توسعاً . ولكن لا . لم ألاحظ شيئاً من هذا ألا مؤخراً حين قطعت زكية الرجاء من فريد. اجل أن الدكتور يوسف جامع لكثير من الخصال الحميدة . ليت فريداً ابن أخي مثله . ولكن برنابجي .... آه برنابجي الذي رسمته منذ بضع سنين فلا تقر عيني ولا تطيب نفسي الا بتحقيقه . فما العمل اود أن أرى بعيني سلالة بيت الرحابي متصلة محفوظة بمجدها وفخرها . وهذا الأحمق فريد يخيب ظني . أخاف أن ينقرض هذا المجد عند حمقه وطيشه

وهنا دخل الدكتور

* * *

وكانت أمائر التأثر والانفعال الشديد واضحة في وجه الأمير . وكذلك ماخفي وهي قواه وروعة نفسه . فقال الدكتور بلهفة : ماذا جرى يا سيدي الامير

— إليّ يا دكتور . أني في وهي لا مزيد عليه . أخاف أن تكون منيتي قد حانت

— سلمت . ماذا بك وماذا طرأ عليك

فقال الامير بصوت مهتدج : إن فؤادي يصطدم باحشائي اصطدام الكرة المقذوفة بعنف . أن هيكل عظامي يتزلزل تزلزل الجبل الذي تقلقله البراكين . إن أوتار أعصابي تتقطع كما تتقطع أمراس السفينة الراسية التي عصفت بها الرياح الشديدة في مرساها ولاطمتها الامواج الثائرة . وأما نفسي . . . نفسي يا دكتور فاني اراها تفرفر في قفص جسدي محاولة الفرار وضميري يطردها بمشعال مندلع اللهيب محاولا احراقها بربك الي يا دكتور أنقذني من ثورة نفسي

فارتبك الدكتور اذ رأى الأمير في حالة وجل ولم يدر كيف يقابل ثورة نفسه فقال ملطفاً مسكناً ، مولاي سكن روعك ولا تجزع لغضبة ضميرك . إن الضمير الغاضب كالكلب النابح كلما هرولت امامه جرؤ على التهجم عليك وعلا نباحه . هول عليه بعصا التعقل وتعليل الأعذار فيرتدع . تجلد يا مولاي ولا تخف . وأخبرني ما الذي آثار نفسك

— ليتك كنت هنا يا دكتور فتسمع صوت ضميري الذي كان يقرع في اذني قرع الطبول . ليتك كنت هنا فترى ميزان دينونتي منصوباً وتنظر لوحة أثامي مكتوبة باحرف من نار أمام عيني. لقد ضاع صوابي يا دكتور فلا أدري هل لم أزل في الدنيا الدنية أم انتقلت الى عالم الابدية ووقفت أمام القضاء الاعلى ؟

ففهم الدكتور أن الامير منفعل من تذكارات قديمة تبدو في مخيلته مجسمة فقال له : مولاي ما زلت في عالمك وفي بيتك وفي تمام سلامتك . إن الصوت الذي سمعته

والميزان الذي رأيته واللوح الذي قرأته — ماهي كل هذه الاختراع المخيلة. فلا تجزع بل تشدد واقلب ذلك اللوح تجد تلك الحروف النارية نوراً من مبراتك وأعمالك الصالحة فاذا وضعتها في كفة الميزان رجحت على اثامك والله يغفر لك . وأي القديسين لم يكن أثيما فتاب وغفر الله له . وما الله غفور الا لان قديسيه أثمة ان الله الرحوم صديق الاثمة يا سيدي . فسرّ عن نفسك

وهنا تحركت عواطف الامير الطيبة فبكى وهو يقول : ويلاه . لقد ارتنى صورة نفسي كما في مرآة . ارتني نفسي مجرماً هاتكا للاعراض قاتلا للارواح ويدي ملوثتين بالدم . ارتني غضب الله الديان قتاماً متصعداً من جميع الافاق حولي . ارتني الجحيم بلهيبه المتسعر

فاستغرب الدكتور كلامه هذا وظنه هاذياً وساله: من هي ياسيدي هذه الساحرة الماكرة التي كشفت لك عالم الغيب وارتك الاوهام في اشباح الحقائق

فحملق الامير جاحظ العينين وقال: هي الطيف المعهود يادكتور . ذلك الشبح الهائل الذي كنت تترقبه ولم تعثر عليه

فبغت الدكتور وتيقن ان الامير يرى خيالات وهمية وقال : اهنا ظهر لك ذلك الطيف يا سيدي

— نعم . امارأيته أنت داخلا وخارجاً؟ سارة رأته . سل سارة

فقال الدكتور مبهوتاً : لعلك تعني راهبة رأيتها خارجة من المنزل

— هي هي . هي الشبح الهائل بعينه يا دكتور بل هي الضمير القاتل . هي الشيطان الرجيم المخيف . هي نار الجحيم المحرقة . سكبت جام غضب الله على رأسي

وهنا كان صوت الامير يرتجف كارتجاف اوتار اعصابه فقال الدكتور : تباً لها . ماذا فعلت ؟ ماذا قالت ؟ .

فقال الامير مشرّد الفكر : اذا صدق ظني يا دكتور فهي الشبح الذي تراءى لي مرتين . وأن لم تكن بعينها فلا بد ان يكون الشبح شخصاً آخر صنيعة لها . والغالب انه مرأة كانت تظهر لي بذلك المظهر الغريب المخيف لكي تجمع جمر الندم على رأسي . ويلي يا دكتور ان هذه الراهبة تحمل سفر دينونتي وقد قرأت فيه خلاصة تاريخ حياتي الفظيع . وارتني كل حرف منه لهبة تندلع من لسانها وتلسع نفسي الجزعة . لقد رسمت هذه الراهبة باصبعها شكل فريستي تلك الفتاة الطاهرة التي دنست عرضها. وارتني جثتها صريعة مهتوكة مضرجة بدمائها . لقد ارتني يدي مخضبة بدمها . اسمعتني صوتها يصرخ مستغيثاً من شري وطالباً من الله الانتقام مني . لقد رفعت بيدها ميزان دينونتي فاذا في احدى كفتيه

جبال من آثامي ونهر من العقاب يتدفق على الكفة الاخرى وهي لا تهبط لان الاثام اثقل من كل عقاب. ويلي من العقاب الهائل يا دكتور! اني افزع الى رحمة الله ولكن الله يحجب وجهه عن توبتي. ارشدني يا دكتور

واسترسل الامير في البكاء. واستغرب الدكتور ان يتيقظ ضمير الامير هذه اليقظة. فاذا عسى ان تكون هذه الراهبة قد كلمته حتى اثارت ضميره فقال: هون الامر على نفسك ياسيدي الامير. ما شان هذه الراهبة حتى تحاسبك على تاريخ حياتك؟ وباي صفة تدينك والدينونة لله وحده والله رحوم غفور يستحيل ان يحجب وجهه عن التائبين.

— بل يحجبه لاني ضاعفت آثامي بالاصرار عليها وعاندت انذاره بلسان تلك الراهبة وكفرت بنعمته التي رام أن يسديها عن يدها. فاغلظت القول لها واهنتها وكابرت واصررت وأبيت التوبة

فبقي الدكتور متحيراً بشأن الراهبة لانه لا يدري باي صفة كانت تخاطب الامير فقال: ولكن يا مولاي هل ابرزت لك صكا بامضاء الله تعالى انها وكيلته على الارض ولها أن تدين عباده. لها شأنها؟

— اجل يا دكتور. انها كانت تتكلم بالهام الله وتذكرني باثامي في عرض احتجاجها عليّ بمسألة تلك الفتاة اللقيطة التي جن ابن اخي بحبها. لقد رسمت هذه الراهبة صفحة ذنبي العظيم امامي وهي تحجني بامر الفتاة لتقنعني ان الفتاة تليق زوجة لابن اخي وتخرجني الى الرضى عن زواجهما

فزال استغراب الدكتور اذ فهم سر مجيء الراهبة وموضوع مناقشتها الامير وقال: لقد فهمت يا سيدي الامير قصد الراهبة. فلا تحسب لها حساباً. ما هي وكيلة الله على الارض حتى تنطق بغضبه. ما هي الا انسان كسائر الناس. وقد تذرعت باستعراض تاريخ حياتك لكي تبرر علاقة فريد بفتاته. فلا تجزع. ولكني استغرب كيف عرفت هذه الراهبة تاريخ حياتك واطلعت على اسراره حتى تستعرضه لك وتحجك به؟

فتململ الامير وقال: لا ادري يادكتور لا ادري. لعلها صاحبة النسخة الاخرى من الصورة التي ذكرتها لي تلك الفتاة اللقيطة الخبيثة التي جاءتني بصفة كونها مطرزة. وقد وعدتني بأن تجمعني بالراهبة التي رأت عندها النسخة من الصورة. واذا كانت الصورة عندها فلا بدع أنها تعرف شيئاً عن جريمتي. ولعلها كانت ذات صلة بتلك الحمامة الوديعة التي افترستها.

فقال الدكتور كانه اكتشف سر السر: لم يبق عندي شك يا سيدي الامير ان هذه الراهبة هي نفس الشبح الذي كان يظهر لك ليروعك بمنظر الصورة. ولا بد انها

تعرف السر وهي تروم ان تهول عليك به لكي تقنعك بتبرير علاقة فريد بالفتاه وتحرجك الى الرضى بهذه العلاقة

ـ اجل لقد طابق ظنك ظني يا دكتور ولكن تلك الماكرة زعزعت نفسي في مقرها وقلقلت قلبي في مكانه بهذه الحيلة. لقد رسمت لي صورة يوم الدينونة وانا واقف أمام الديان ولا استطيع أن اعتذر عن الجريمة التي ارتكبتها. ولكن تلك الماكرة قد ضلت سعيا وخابت حيلة. لان ندامتي على جريمتي الماضية لا توجب عليَّ ان اترك ابن اخي يتهور في غيه. اني ابذل جهدي في ان اقي ابن اخي من الوقوع في مثل تلك الغلطة التي وقعت انا فيها.

فقال الدكتور متحايلا: اجل لقد خابت تلك الراهبة حيلة. فلا الراهبة ولا الفتاة تهمانك يامولاي لان المسألة متوقفة على رغبة فريد. وقد ضقنا ذرعاً في اقناعه فلم ننجح. فحتى متى يا مولاي تعرض نفسك للغضب والغيظ بسبب فريد؟...

فقاطعه الامير قائلا ساخطاً وعاوده هياجه وقال: اني احول دون كل علاقة لفريد بتلك الفتاة. أصر على ابقاء سلالة بيت الرحاني نقية الدم. لا اسمح ان تنقرض السلالة عن يد طيش فريد وعناده. لا يشأ فريد أن يتزوج بنت عمته فلا يشاء. وانما لا اسمح له ان يتزوج تلك اللقيطة. بل يجب أن يتزوج فريد زكية اليوم. الآن. يجب أن تبلغه ارادتي الاخيرة هذه يا دكتور فان لم ينفذها فاني اكمل حياتي بجرائم أخرى. انا الغريق فما خوفي من البلل

وهنا اشتد هياج الامير الى حد الجنون وكاد صوابه يضيع او ضاع وقام يطوف كالمجنون في الغرفة وهو يقول الي بمسدس الى بمدية. اني قاتل اني سفاك.

فعانقه الدكتور وجعل يطيب خاطره ويسكن روعه ويقول: حلماً ياسيدي الامير وتؤدة. لا يكون الاّ ما تروم. سكن روعك الآن. طب نفساً وقر عيناً. ساقابل فريداً واقنعه

— بل جيء به الى هنا وانا اعرف كيف اقنع هذا الاحمق. اجعله يسبقني الى الابدية قبل ان ينزل شيبتي بهوان الى الهاوية

— سكن روعك يا مولاي. واسترح في مقعدك. ولا تتمادَ في غضبك لانه يضعف جسمك ويثلم صحتك.

فقعد الامير وهو يلهث من شدة التأثر وقال: لقد ضقت ذرعاً من حادثة فريد هذه واود أن انهيها على وجه اليوم ولو بجريمة

ـ مولاي اعتصم بالحلم. أن شخصاً حكيما مثلك اعقل من أن يرتكب جرائم وانت الان في دور التوبة. اني استغرب

تناقضاً فيك يا مولاي الامير . منذ برهة كنت تندم على الاثام الماضية وتفزع الى رحمة الله والان تبتعد عن رحمة الله متوخياً الاجرام . حيرتني . اذكرتني بفرعون موسى الذي لايلبث ان يتوب حتى يعود فيقسو قلباً . عليك بالصبر يامولاي والله مع الصابرين

* * *

وقبل ان تخمد ثورة الامير الجنونية دخلت ماري الراهبة مفاجئة كانها جاءت لتذكي ثورة نفس الامير . فبادرها الامير قائلا ويحك يا شيطانة ! اما رحلت حتى الآن الى العالم المجهول الذى امرتك ان ترحلي اليه ؟ لماذا عدت الى هنا ؟

— مولاي . اني ارحل لا طاعة لامرك بل برغبتي واختياري .

— أرحلي . ارحلي يا خبيثة . لقد عكرت صفاء حياتي . فلماذا انت باقية هنا . ولماذا جئت ؟

— لقد جئت لاسلمك هذه الامانة يداً بيدقبل ان ابرح من عالمك هذا واترك فريداً لرحمة الله عسى أن ينقذه من عواقب جورك

وقدمت له ظرفاً يدل حجمه على أنه يحتوي على أوراق كثيرة فدفعها بيده قائلا : عني ياساقطة ! لست اقبل رسائل شفاعات بك ولو كانت من ملائكة الله . عني يا لعينة الى الجحيم الذي تستحقينه . لقدهدم وجودك حصن سعادتي . لقد افسدت اسرتي . لقد كان اتصالك بفريد شؤماً عليّ وعلى اسرتي

وكانت ماري تحاول ان تضع الرسالة فى يده فلطمها فعادت ووقعت الرسالة منها على الارض وهو يقول : خذيها من هنا ياساقطة ولا تدنسي باثر منك ارض بيتي

وقذف الرسالة برجله وانقض على ماري يريد ان يضربها فحال الدكتور بينهما وهو يقول : مولاي رفقاً وحلماً

فقال الامير وهو في شديد الانفعال : اطرد هذه الشيطانة من هنا لقد هصرت غصن هنائي وقلقلت سرير راحتي

وانقض عليها ثانية وصفعها صفعة شديدة بالرغم من حيلولة الدكتور بينهما . فادرك الدكتور أن الامير اصبح لا يملك عنان نفسه كانْ لا ارادة له . وخشى سوء المغبة فقال زاجراً : كفى يا سدي الامير سخطاً . الافضل ان تلجأ الى مخدعك وترتاح

وغمز ماري ان تخرج بسلام . اما ماري فما تمالكت عواطفها . وبكت اذ كان الامير يقول : اطرد هذه الشيطانة طرداً . لقد سببت لي مصيبة في آخر حياتي لم اعلم قبلا ان فى العالم مصيبة مثلها . يجب أن أقتلها أو تخرج من هذه المدينة ومن هذا القطر كله .

فقالت ماري . لقد تحققت سوء بختي يا سيدي الامير وفهمت أن هذا العالم لا ينصفني . فها انا ذاهبة الى ربي في العالم الثاني حيث انتظرك واشهد محاكمتك لدى الديان العادل هناك يكون الحساب بيني و بينك . واما دمي فسيظل هنا صارخاً في اذنيك الى ان تحمد انفاسك وتهمد جثتك. وداعاً ايها العاتي الظالم . وداعاً الى الابدية الهادئة . ولسوف تقضي ايام العذاب في هذه الدنيا حتى يقرع تقريع العالم اذنيك باخبار هلاك جسدي . وداعاً ياظالم

فهجم الامير عليها وصفعها صفعة اخرى فوقعت الصفعة على الدكتور. وقال: اجل . اذهبي الى حيث القت رحلها يا فاجرة . فقد انقطع كل امل لك بفريد. يستحيل ان تتصلي به بعد الان فقد دبرت تدبيري بشأنه . فخير لك الا تبقى فى الوجود لئلا تقتلك الغيرة ياخبيثة .

فخرجت ماري وارتمى الامير على المقعد واهي القوى كالسكران

الفصل السادس عشر

ميزان الدينونة

بقي الامير برهة يلهث وهو مستلق على المقعد. واستدعى الدكتور ساره وامرها ان تأتي بكاس من الشراب المنعش فاتت وسقت الامير . و بعد هنيهة قال الامير :هل خرجت هذه الملعونة ؟

فقال الدكتور . خرجت يامولاي ولن تعود . لقد اسرفت في الغضب والسخط ياسيدي والمسألة لا تقتضي اقل اهتمام منك .

— لقد افسدت هذه الملعونة عليّ خطتي وسببت نقض برنامجي وكانت فتنة بيني و بين ابن اخي . اخرجتني من طبعي . لقد تركت هذه الملعونة شهادة حطتها ودنسها هنا . بربك يادكتور . خذ هذه الرسالة التي تركتها هنا واقذفها الى زبالة الشارع . لا تدعها هنا رجساً وقذارة في بيتي . يا للفجور ان رهطاً من الشياطين والابالسة يحتالون على قهر ارادتي . ان ادعهم ينالون في وطراً

فتقدم الدكتور الى الظرف المطروح على الارض وتناوله وقال : ارى الرسالة ثقيلة واحس ان فيها ورقا قاسياً. الافضل ان تفضها يامولاي وترى مافيها

— ويحك : لا امسها

— اذاً لا تغضب يامولاي فانا افضها بنفسي

— لا تدنس يدك بها

وكان الدكتور يفضها فقال له : تغسل يديك بعد ذلك لتطهر من دنسها

— فيها يا سيدي رسالة وصورتان احداهما صورة رجل وامرأة

— لعلها صورة هذه الشيطانة مع فريد

— كلا ياسيدي . انظر

وعرضها الدكتور على نظر الامير فما وقعت عينه عليها حتى انتفض جازعاً . ثم حملق فيها كأن فيها مغنطيساً مغنط حدقتيه وجذب بصره اليها . وبقي برهة محدقاً فيها ذاهلا حتى خشي الدكتور من خبل عقله فقال له : لعلك تعرف هذين الشخصين

فقال بصوت خافت متهدج : ويلاه يا دكتور اني ارى في هذه الصورة الامير نعيم الرحابي الفتى المجرم مع فريسته الفتاة. رباه . الهي اهذه رسالة منك ام من عالم الغيب ؟

ثم وجه الصورة الاخرى الى نظر الامير وقال . الا ترى ان هذه الصورة الاخرى تشبه الصورة التي عندك ؟ لعلها هي الصورة التي ذكرتها لك هذه الفتاة المغضوب عليها

فجزع الامير واشتد روعه ! وقال إنعم يادكتور . نعم . اني ارى ميزان الدينونة ينتصب الان . لا استطيع أن احتمل الدينونة . بربك انقذني يا دكتور . اني ارى تلك الفتاة التي هتكت عرضها ثم نبذتها نبذ النواة — اراها ماثلة امام الله تشكوني اليه . اني اسمع صوتها تطلب العدل — العدل يا دكتور معناه النقمة . الى اين اهرب من نقمة الله يا دكتور ؟ الى جهنم حيث تأكلني النيران المتقدة . نعم الى جهنم يادكتور

وهنا وقف الامير كانه يريد الهرب وقد بدت عليه مثل دلائل الجنون فقبض الدكتور على عضده وقال : طب نفساً ياسيدي الامير ولا تستسلم لهذه الاوهام

— بربك يا دكتور . ما هذه اوهام يا دكتور . ما هذا الا ميزان الدينونة . الى اين اهرب . انجدني يادكتور بمسدس بسكين باي آلة قاتلة لكي اهرب من أمام الميزان .

— لا تجزع يا امير . ما هذه الا ورق من صنع البشر والله يتعالى عن ان يخاطبك بورق وصور ورسوم

وكان الدكتور قد فض ايضاً الورقة التي كانت مع الصورتين فاذا هي رسالة مخطوطة . وكان الامير ينظر فيها من بعيد فقال : وهذا الورقة يا دكتور ؟ هل هي صنع البشر ام هي حكم القضاء الالهي علي

— مهما تكن فما هي الا ورقة من صنع البشر وفيها خط يد بشرية ايضاً .

فليس فيها ما يخيف . الافضل ان نطلع عليها

— بربك يا دكتور لا تروع نفسي بنصها . لا ريب انها تشتمل على حكم الديان علي

واصبح الدكتور شديد الشوق الى الاطلاع عليها فقال : ما هي الا رسالة بسيطة الافضل ان تقرأها ياامير لعل فيها ما يهمك

— لا لا يا دكتور . لا استطيع ان اقرأ الحكم علي اقرأها انت بكل خشوع اتل حكم الديان علي

فجعل الدكتور يقرأ :

« يا امير . سألت الفتاة ماري الراهبة عن اصلها وفصلها . وطلبت اليها ان تبحث عن ابويها لكي تعلم ان كانت ثمرة طهر أو حنظلة دنس . أعلم أنت ايضاً . أما أم الفتاة فامرأة أحبت وأخلصت . ووثقت باخلاص حبيبها لئلا يحسب تمنعها شكا في صدق من احبته حباً كالعبادة . وقد حرمها الله نعمة الشك بصدق الرجال وامانتهم فوقعت تلك المسكينة فريسة لمن أحبته »

فانتفض الامير انتفاض العصفور بلله القطر وجعل يطوف في الغرفة كالمجنون وكان الدكتور يطوف امامه مترصداً حركاته حذراً من أن يأتي امراً أداً بنفسه ولكنه شعر ان هناك دوراً هائلا تمثله يد خفية ذات علاقة على الاقل أو ذات اطلاع على تاريخ الامير . وصار يود أن يشاهد هذا الدور وقد استدل على اهميته من شدة انفعال الامير بسبب ذكرياته القديمة بالرغم من صلابته وعناده في مسألة ابن اخية . ولذلك لم يشأ ان يترك تلك الرسالة قبل ان يطلع على كل حرف فيها مهما كان تأثيرها على الامير ومهما كانت عاقبة هذا التأثير . وكان يجول في ظنه امر لا يستطيع تفسيره وهو ان هذا الدور الذي يلعب على الامير قد يفيده (أي يفيد الدكتور) في نيل أمنيته من زكية ؟ فقال: مهلا يا امير وتؤدة وصبراً . ما هي الا كلمات كتبها بشر مثلنا فلماذا تنسب لها قوة الهية . فاسمع بقية الرسالة

فابى الامير ان يرعوي لكلام الدكتور وقال : كفى كفى يادكتور . لا استطيع سماع الحكم العادل. اني للهلاك. لقد كنت اردف الجريمة بالجريمة . ويحي ان هذه الفتاة بنت فريستي يا دكتور

واشتد هياج الامير ودهش الدكتور لقول الامير ان الفتاة ماري بنت فريسته ولكنه رام ان يغالط الامير تسكيناً لثورة نفسه وقال . مهلا يا سيدي الامير . لا تعبأ بكلام البشر فما هم رسل الله . ان الله لا عظم واعلى من ان يتنازل في ابلاغ حكمه الى عباده عن يد بشر مثلهم. لا يخدعك كلام افك و بهتان . سمعاً :

واستمر الدكتور يقرأ الرسالة :

« واما ابو الفتاة فرجل اغرى واغوى ووعد وتعهد ولكنه حنث وخان وغدر غدر الافعوان

وهنا صاح الامير قائلا كانه الثور يجأر . هذه « حيثيات الحكم » الهائلة يا دكتور فلا تروع نفسي بها . اعترف واقر اني اغويت واغريت ووعدت وتعهدت ، ونكثت وخنت . ثم صببت جام غضبي على ثمرة اثمي . ربي لا تغفر لي بل اجعل عذابي كفارة عن اثمي »

ثم وقع الامير على المقعد واهي القوى كالمغمى عليه . فتقدم اليه الدكتور يؤاسيه ويشدد عزيمته قائلا: حلماً يامولاي وصبراً وتجلداً . لا تستسلم لنص رسالة قد تكون كلها ملفقة يقصد بها التهويل عليك. فدعنا نطلع على نصها حتى آخره لنرى ما هو شأنها

واستمر الدكتور يقرأ :

« فلما رأت المرأة انها خينت وان اثم خائنها وقع على رأسها وحدها وان الغادر بها قد عاد الى عالمه نافضاً عنه كل عار وقد قبله العالم قبول الزهرة الجميلة النضيرة كانها لم تتلوث بقذارة اثم — لما رأت ذلك اذاعت انها رحلت الى الابدية هاربة من وجه اثمها ومتقدمة الى الهها بالتوبة ودفنت شخصيتها في هذه الاذاعة »

وما انى الدكتور على هذه العبارة الاخيرة حتى هب الامير من مقعده وجعل يطوف مترنحاً ويقول : دكتور دكتور . أتقول اذاعة ! هل هي اذاعة كاذبة أم صادقة . بربك اقرأ . اني صابر على سماع الحكم الى النهاية . بربك قل . ثم ماذا ؟

فقال الدكتور وقد اصبح مستلذا الدور الذي يشاهده بعين خياله ؟ مهلا يا سيدي الامير . ليس هنا حكم ولا قضاء . ان هي الا رسالة من شخص نجهله . دعنا نطلع عليها لنرى ماذا يقصد هذا الشخص . تفضل اقعد واسترح

— دكتور دكتور . لا استطيع الراحة وانا ارى الماضي حاضراً والذكريات ملموسة . اكاد يا دكتور اشعر ان القضاء يجدد لي عمراً جديداً ليمتحن توبتي ان كانت صادقة . اصدقني يا دكتور هل ترى انت المرأة التي أنا خنتها ؟ اني اراها ماثلة امامي تطالبني بطهارتها . تطلب روحي ثمن عفافها الذي دنسته . رباه ارحمني . اغفر لي يا الهي سامحيني يا مظلومة

واسرع الى الصورتين وامسكهما ثم ركع وجعل يقبلهما ويضعهما على رأسه ويبكي . فتقدم اليه الدكتور واخذ بيده قائلا : اقعد على المقعد يا سيدي ولا تستسلم لثورة عواطفك . صبراً الى ان ننتهي من تلاوة الرسالة فلعل فيها مسامحة وغفرانا وتعزية .

وعاد الدكتور يقرأ :

« ولما انفصلت عنها ثمرة عارها طرحتها

لدى ملجأ اللقطاء . ثم دخلت هي الى الدير بشخصية اخرى جديدة لا يدري الا الله بهويتها الحقيقية . وهناك انفصلت عن العالم الشرير الدنس وعاشت في دير الله تائبة قديسة »

فعاد الى الامير هياجه وهب من مقعده وقال : دكتور دكتور . هلم الى الدير حيث اتوب الى تلك القديسة التي خنتها واقدم كفارة . حيث اتعبد الى تلك القديسة عسى ان تغفر لي . هلم الى الدير يادكتور الى هناك افزع من غضب الدين العادل . وهناك ارجو شفاعة فريستي لديه هلم معي يا دكتور الى الدير وكن شاهد علي صدق توبتي ورقيباً على كفارتي

واتجه الى الباب يريد الخروج فصده الدكتور قائلا : مهلا يا سيدي . الدير موجود الان وغداً ولن يهرب من امامنا صبراً الى أن نستتم قراءة الرسالة وثم نقرر ماذا يجب أن نفعل . اني ارى في هذه الرسالة فرجاً لك ياسيدي الامير واحياء لآمالك .

نعم نعم يا عزيزى . اني ارى فى هذه الرسالة « بساط الرحمة . اقرأ . اقرأ .

فاستمر الدكتور يقرأ .

« الفتاة طاهرة وقد ربيت في حضن الطهارة والعفاف تحت رعاية أمها وهي لا تدري انها امها بل تعتقد ما يعتقده الناس انها لقيطة وانها مجهولة الابوين عاشت بارة تائبة الى الله والله غفر لها . وابوها وحده أثيم لم يتب . »

فقاطعه الامير قائلا : اجل اجل يا دكتور انه اثيم غريق في الاثم . ويله من اثيم . ثم ماذا يادكتور . ما هو الحكم الاخير

فاستمر الدكتور يقرأ :

« أما ابوها فهو أنت الذي كان ولايزال يضطهدها . وأما أمها فهي ضميرك الذي مثل أمامك منذ برهة قصيرة . ولا يزال يمثل لديك في صورة شبابها يوم افترستها وصورتك الى جنبها شاهد عدل على جريمتك »

وهنا ترنح الامير حتى ارتمى على المقعد وهو يقول : ويلى . بنتي . ويحي . قتلتها

أما الدكتور فلما انكشف له السر العظيم ادرك ماذا تكون العواقب ورفض فؤاده في صدره طرباً اذا استوثق من ايلولة زكية اليه لان مارى اصبحت بحكم الطبع أعز مكانة عند الامير من زكية فقويت نفسه وقال للامير بصيغة الامر : عجباً يا أمير تبتغي ان نسمع الحكم فلماذا لا تسمعه؟ دعنا نتم الاطلاع على الرسالة . فاسمع

« فاعلم أيها الطاغية الاحمق ان العار الذي تلطخ به الفتاة انما هو عارك والدنس الذي تعزوه اليها انما هو دمك وشخصيتها التي تحتقرها انما هي خلاصة شخصيتك . ومجد

السلالة الرحابية الذي تتبجح به انما هي بنتك . فحين تنبذ هذه الفتاة تكون نابذاً جوهرك . وحين تقضي عليها بالهلاك تكون قاضياً على سلالتك . فأنا ضميرك الذي يشكوك ، وأما ميزان الدينونة ففي ذكرياتك وأما حكم القضاء عليك فبين شفتيك . فاحكم على نفسك ما تشاء

اغناتيا اليوم ولمياء بالامس

وهنا صاح الامير : دكتور دكتور . لقد تعاظم اثمي وتفاقم شري وتراكمت الذنوب على رأسي . ويحي . لقد قتلت طهارة المرأة التي عاهدتها فخنتها . والآن قتلت ابنتي . دكتور بنتي بنتي لقد قتلتها قتلا فظيعاً . بربك يادكتور بنتي

فانذعر الدكتور من شدة تفجع الامير وحار لايدري ماذا يفعل وماذا يقول فقال حلماً ياسيدي الأمير . دعنا نفكر

فصاح الأمير : ويحك . لم يبق وقت للتفكير . لقد أصبح الحلم جريمة ياهذا . ان بنتي خرجت من هنا لكي تنتحر . فمن يدري ان كانت تجد أو تهزل . بربك أدركها اتبعوها ياناس . امنعوها ، انقذوها . ياسارة ياحبيب . ياعلي . أسرعوا جميعاً

فدخلت سارة ثم دخل حبيب وعلي وقالت سارة : مولاي ماذا تريد . ماذا جرى يادكتور ؟

— أسرعوا ياحمقى . انقذوا ماري الراهبة لقد خرجت من هنا لكي تنتحر . بربكم أسرعوا أنقذوها من نقمة نفسها . أبذل حياتي ومالي لانقاذها . بربك يادكتور أسرع اليها . رباه رباه . لقد قتلتها . ربي رحمة ورأفة ، ألهمها الصبر . عز نفسها . ردها عن قصدها . أسرعوا يا لمداء ما بالكم حائرين . أسرعوا . أنقذوا ماري الراهبة قبل أن تنتحر . هاتوها الى هنا

وكان الخدم متحيرين في استغاثة الأمير وهم ينظرون بعضهم الى بعض والى الدكتور والدكتور مرتبك لايدري ماذا يفعل

ثم صاح بهم الامير : هلموا معي يامجانين تالله من بلادتكم . هلموا معي

وخرجوا وراءه وهم يظنون انه قد جن . وانما لحق الدكتور به خفف من روعهم .

ولكن ماخرج الامير الى الشارع حتى صار يترنح لضعفه وانفعاله فأسنده الدكتور وقال : لاتستطيع يامولاي أن تفعل فعلا نافعاً وأنت واهي القوى فعد الى مخدعك واترك الامر لي . اني أكفل لك ارجاع الفتاة الليلة سليمة . عودي معه ياسارة وليتبعني علي وحبيب

— بربك يادكتور أسرع . تبيء فريداً فهو يساعدكم

وعاد الامير مع سارة وهي تطيب خاطره وتلطف مزاجه مستغربة ماحدث من الانقلاب في نفسه نحو ماري . واضجع الامير في سريره وهو يتمتم كأنه يصلي

الفصل السابع عشر

المعركة الفاصلة

وكأن الصلاة والتوبة والاستغفار عزت نفسه وهدأت روعه وقوت آماله فجعل يناجي نفسه :

« ويلاه يالمداعبة الأقدار ! ابنتي كنت اضطهدها اضطهاداً أشد من التعذيب حتى دفعتها الى الانتحار ! ويحي أبيدي أدفعها الى الهلاك ؟ وهل عقاب أعظم من أن أقتل بنتي بيدي . رباه ما أعجب دينونتك !

ربي حقاً ان عدلك رحمة ، ونقمتك شفقة وغضبك رضى . وضعت سعادتي العظمى بين يدي وتركتني أدوسها بقدمي ثم أريتني عقابي في ذنوبي

ربي ما أعجب حكمتك . كما خلقت العالم من كاف ونون خلقت لي سعادة من العدم فلماذا لم تفتح لها قلبي إلا بعد أن دفعتها بيدي الى العدم

ربي رحمة ورأفة . انك خلقت المغفرة للمعصية والصفح جزاء التوبة . أحمدك اللهم لانك فسحت لي مجالا للتوبة فاغمرني برحمتك ورد لي بنتي رمزاً لغفرانك

لقد وضعتني يارب لدي بابين متجاورين باب الغبطة التي لا تفوقها غبطة النعيم وباب الشقاء الذي لا يضارعه عذاب الجحيم . فارحمني يا الهي وادخلني في باب النعيم . انقذ بنتي من شر نقمتي وصنها من جريمة الانتحار

وفيما هو في مثل هذه الصلوات النجوية دخلت سارة وقالت : بشرى ياسيدي

فاجاب بلهفة : ماذا ! هل سلمت ؟

— تلفن حبيب الآن أن أناساً أنبأوا أنهم رأوا فتاة ترمي بنفسها في النيل فانتشلوها في الحال . والارجح أنها ماري فاسرع الدكتور وفريد بسيارة الى تلك الناحية من النيل

— ويك . أريد أن أذهب الى هناك بسيارة

— مولاي . صبراً وحلماً . لا فائدة من ذهابك . الدكتور وفريد يكفيان . أما قال لك الدكتور ان خروجك من المنزل الآن يعرض صحتك للخطر

— رباه . عسى أن يصدق الظن انها ماري عسى أن يكونوا قد أدركوها قبل أن تختنق . ويلي اني أراها تجاهد في الماء أراها تغوص ثم تطفو . رحمة يا ناس أنقذوها . أدركوها قبل أن ...

وهنا غص الامير بالكلام وشرق بدموعه . فقالت سارة : صل يا سيدي والله يستجيب . انه رحوم رؤوف

ثم سمعا جرس الباب يقرع فقالت : مهلا ياسيدى . عسى أن يكون الطارق مبشراً

وأسرعت سارة وفتحت الباب فاذا الام اغناتيا داخلة وهي في اضطراب شديد وقالت : أين ماري . لقد استبطأتها

— مولاتي لا تجزعي . انها بخير

— أين هي الآن . ماذا فعل بها سيدك

— مولاتي . لا أدرى ماذا أقول . لك . هل جئت لكي تطفيء النار التي أضرمتها ؟ لقد قلبت كيان الامير رأساً على عقب

— ماذا فعل ؟

— كان ناقماً فأصبح نادماً وكان غاضباً فاصبح تائباً . لله من دهائك

— ويحك قولى ماذا فعل الامير بها

— لا أدري ياسيدتى . كاد يقتلها ففرت من أمامه الى رحمة الله . ثم ما لبث أن صاح بنا أن نلحق بها ونردها . وهو ينتحب نادماً ويبكي مستغفراً

فادركت الراهبة أن الامير اطلع على رسالتها واكتشف السر الذى كان غائباً عن ظنونه ورأت ان المعركة الفاصلة قد حانت فقالت :

اذاً دعيني أهاجم شيطان غوايته واندفعت تواً الى غرفة الامير فوجدته ملقى على سريره يتمتم ناحباً وصاحت به ويحك ياشقي . أين الفتاة ؟ ماذا فعلت بها؟

فنهض الامير من سريره وحملق فيها حملقة الابله وتأملها وقال بصوت خافت خاشع : ألمياء أنت جسداً ونفساً ؟ أم أنت الراهبة اغناتيا تتقمص فيها روح لمياء ؟

فسخطت به قائلة : ويحك ياتعس ! لا شأن لك بي الآن . اخبرني ماذا فعلت بالفتاة . لقد استبطأتها فحسبت انك غدرت بها . علمت انك قضيت عليها بالهلاك ياشرير فلماذا ؟ قتلت حياتى الدنيوية ثم تريد أن تجهز على بنتى . ان الله يحلل لى دمك أيها الطاغي . فقل أين الفتاة

فاجاب بوجل وضراعة : انها في يد خالقها الآن فان كان يروم لى غبطة يردها ويفسح لي أجلا للتوبة والكفارة والا فيكون قد أخذها وقد اختارنى منذ الازل من أبناء الهلاك . وقد أرسلك الى هنا لكي تتولي معاقبتى بيدك القادرة . نعم ان الله يحال لك دمي وأنا أقيك من دينونة محاكم البشر . اكتب كتابة صريحة انى انتحرت وما من أحد يكون مسؤولا عن موتي . فانحريني . أو لك أن تختاري أشد وسائل القتل تعذيباً لجسدي . اقتليني يالمياء

— دعنى من حقارة نفسك الآن واخبرنى أين الفتاة : لقد انخلع فؤادى اذ علمت منك انك قسوت عليها حتى دفعتها الى اليأس

— قلت لك انها الآن في يد باريها . فان شاء أن يرحمني ويردها لسعادتي أمر النيل المبارك أن يلفظها حية كالفظ الحوت يونان والا ...

— ويحك ياقاتل . دفعتها الى النيل ؟ يجب أن أسرع الي انقاذها . أين

— مهلا . مهما أسرعت فلا تدركينها قبل فريد والدكتور والاخرين

— ويلاه ! في النيل . ويحي . تلك الحمامة الطاهرة تيأس من رحمة ربها وتطرح نفسها في النيل . لماذا ؟ لانك قسوت عليها ياظالم . يجب أن أسرع لانقاذها.

وما انثنت لكي تخرج حتى دخلت ساره قائلة: بشرى . لقد سلمت . تلفن لي على الآن انهم ادركوها سليمة

فقال الامير : اذاً تنتظرين هنا رحمة ربنا ياسيدتي . سيأتون بها الى هنا. أخرجي ياساره واعدي لها معدات راحتها.

فخرجت ساره واغناتيا تقول: ويحك اتقبل عندك اللقيطة الدنسة ياطاهر؟

— دعي التقريع الآن بالمياه وامنحيني هذه الفرصة القصيرة لكي أتعبد لقداستك وأقدم على مذبح عبوديتي لك الكفارة التي تفرضينها ، وان كانت ذنوبي لك لاتوازنها كفارة بشرية مهما عظمت

وكانت اغناتيا قد اطمأنت على الفتاة فقالت : لم تأثم لي ياهذا بل لله تعالى أثمت فمنه تستغفر واليه تقدم كفارة واياه وحده تعبد وهو أرحم الراحمين

فقال بضراعة : اني كافل رحمة ربي وغفرانه لانه وعد بهما التائبين . ولكني يائس من رحمتك وغفرانك لاني لا أستحقهما فاياك بعد الله اتعبد ومنك استوهب الرحمة والمغفرة .

— ثقي ياهذا اني لم أحقد عليك ولا استخطأتك . وما لمت الا نفسي لانه كان يجب علي أن أعلم أن أبالسة الجحيم حول كل واحد يتجسدون باجساد البشر لكي يغووهم . فكان يجب أن أتقيهم . لقد صفحت عن اساءتك لي لكي يقبل الله توبتي ، ووقفت سائر حياتي لنصح الفتيات لكيلا يقعن في احابيل الفتيان الاشرار

فركع الامير لديها متضرعا وقال : لله منك قديسة يالمياه . ان قلبك الطاهر يمثل قداسة الله . فاسمحي لي أن أسجد لقداسته في شخصك .

وسجد الى الارض وحاول تقبيل قدميها فنفرت منه وقالت : للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد . لاتجربني أيها الانسان ولاتتسفل الى اقدام العبد مبتعداً عن معبد الديان

مولاتي اني أتوق الى قبلة ذرة منك تطهر دنس شفتي . ولما كنت لا أستحق أن أنالها من يدك فأحرزها من موطىء قدميك

فتراجعت مشمئزة وقالت مخاطبة نفسها

لله ما أقبح أن نرى شرف النسب والحسب المزعوم مبتذلا هكذا !

ثم وجهت الخطاب الى الامير قائلة : هل نسيت ياهذا انك ابن الرحابي ورأس أسرة الرحابى النبيلة ذات الدم الشريف.

ـ كلا لم انس يالمياء . ولكن الحسب النبيل مهما تعالى وتعاظم فلا يطاول جلال قداسة الله الممثلة في شخصيات مختاريه الذين اصطفاهم منذ الازل للبر والقداسة فاسمحي لي أن أعبد في شخصك قداسته يالمياء

وحاول تقبيل حاشية ثوبها. فزجرته قائلة : لاتنس أن اسمي الام اغناتيا . أما لمياء فقد اندفنت في اذاعة انتحارها وغرقها فى النيل . فلا تذكرها بعد الآن . وأما قداسة الله فتجدها حيثما تشاء أن تعبدها ان كنت صادق التوبة . وفي الكنيسة تتقبل روح الله وأسراره المقدسة

ـ حاشاك يامعبودتى . لااستطيع أن أتذكر الاسم « اغناتيا » وأنسى الاسم (لمياء) المطبوع في قلبي بميسم من نار. فان كان اسم لمياء قد دفن فى اذاعة الانتحار فما دفن في زاوية النسيان. وان كان قد غرق في النيل فلا تزال سفينة حبي عائمة في بحيرة ذكرياتي وطائر آمال سابحا في فضاء تخيلاتي

فقالت غاضبة : كفاك مماذقة وافكا ياهذا . ليس من يصدق أن من كان في بحيرة ذكرياته سفينة حب كهذا يصدمها بصخرة من الخيانة فيغرقها، وان من كان فى فضاء تخيلاته طائر آمال كهذه يقذفها بسهم من نكث العهد فيصرعه الى الحضيض . ان بحيرة ذكرياتك لاتحمل الا سفينة طيشك وعنفوانك ، وفضاء تخيلاتك لايسع الا طائر غرورك وانخداعك ، بأباطيل حسبك ونسبك ، ويحكم ايها الذوات أولاد الافاعي ان غروركم هذا يزين لكم انكم من طينة البشر وان حياة سائر الناس مخلوقة لتبذل لاجل شهواتكم كما تبذل الفراخ والنعاج لغذاء الانسان . وان اعراض العامة اذا هتكت لاجل ملذاتكم فما هي الا كالنجلات التى تسحقونها تحت نعالكم وأنتم لاتدرون بوجودها . هذه هي السفن التى تعوم في بحيرة ذكرياتكم وهذه هي الطيور التى تسبح في فضاء تخيلاتكم . فكيف اذا اقترن بهذا الغرور الاريستوقراطي نزق الشباب وطيشه وهما مشبعان بالعقيدة الخبيثة الشائعة وهي ان حياة الشاب مطلية بشحم الامتياز لاتلصق بها ادران الدنس التى تلصق بحياة العذراء ، أو ان سمعة الشاب مصنوعة من الحديد وسمعة الفتاة مصنوعة من الزجاج . فاذا اصطدم الحديد والزجاج تكسر هذا وبقي ذاك سليما . فغرور الارستوقراطية وطيش الشباب اذا تحالفا دكا حصون العفاف وهدما قلاع الطهارة . هل رأيت ازار العفاف ممزقا الا في قصور الاعيان ؟ وهل شهدت حمامة الطهارة مذبوحة الا على موائد شهوات الذوات ؟

وهل أبصرت دماء العذروية مسفوكا الا في مخادع النبلاء ؟ وهل يستسهل نكث العهود والاخلاف بالوعود الا الامائل ذوو الطريف والتليد ؟ وهل يفاخر بالخيانات كأنها ضروب من الدهاء والحنكة الا كانزو الاموال ؟ لقد فعلت ياهذا فعلتك بحكم تقاليدك الخبيثة وبقوة نزق شبابك وأنت لاتحسب انك فعلت الا مايفعل الناس وما قضت به الطبيعة وماسوغته الاريستوقراطية وفي يوم وليلة خرجت من كوخ جريمتك خروج الشعرة من العجين أوخروج الوزة من الماء وكأنها كانت تسبح في جاف الهواء. والآن لاتخجل أن تزعم كذبا ان (اسم لمياء) مرسوم في فؤادك بميسم من نار وان سفينة حبك تعوم في بحيرة ذكرياتك وطائر آمالك يسبح في فضاء تخيلاتك

وكان الأمير يسمع كلام الراهبة مطرقا إطراق المجرم أمام القاضي يستوعب كلامها وقد غشى الخشوع نفسه وتملك التورع فؤاده فتنهد وقال : صدقت يا سيدتي . إن نزق الشباب وحش ضار وطيشه شيطان رجيم وإنما نعيم الرحابي الشيخ التائب يقرع الآن نعيم الرحابي الشاب النزق الطائش الذي خان وحنث وغدر ونكث . ونعيم الشيخ يبتغي الآن أن يكفر عن شرور نعيم الشاب

فاجابت : أي نعم إنها توبة العجز وندامة الضعف . والاثيم لا يفطن الى رحمة الله إلا متى أخذ نذير المنية يتهدده. ولا يعرف قيمة التورع إلا متى اقترب إلى يوم الدين . ولا يتبرع بالكفارات إلا حين تكون جعبة قواه قد نفدت ومورد مستطاعاته قد نضب . وماذا يجدي تقريع الشيخ بالشباب إذا كان الزجاج قد انكسر . وماذا تنفع الكفارات وعهد السعادة المتوخاة قد انقضى . فتقريع الشيخوخة بالشباب لا يمكن أن يجعل الماضي مستقبلا ولا أن يجعل ماحدث كأنه لم يحدث . فاذا كنت يا هذا تقول ليت الشباب يعود فانصح لك أن تقول ليت الشباب لم يكن . لأن بذخ الشباب ذاك أفضى الى شقاء الشيخوخة هذا

— بل إن بذخ الشباب اصطحب معه آلام شروره يا سيدي وما كانت للشباب الطائش إلا الحلاوة المكتنفة بالأشواك السامة . فثقي يا سيدتي إن عثرة الشباب أودت الى هوان العمر كله . ولو كانت مظلومتي قد أخفت سرها إلا عني ودفنت حياتها الماضية في إذاعة انتحارها على سائر الناس دوني لغنمت ثواب تدارك شقائي وكان لها الفضل كله في توبتي ، وكانت العامل الأعظم في تحويل حياتي من شباب أرعن طائش الى كهولة حكيمة طيبة . فاذا كنت يا سيدتي تفكرين هنيهة في أن الشباب مهما كان أرعن طائشا فلا بد أن يعقب تسرعه ونزقه الندم أدركت أنك

لست خلواً من المسؤلية في احتجابك عني كسائر الناس . فلو بقيت تظهرين لي بعد ذلك لأثرت ثورة ضميري علي الى أن يحملني على الارتماء بين قدميك مستغفراً تائباً بعد عهد قصير من ارتكاب جريمتي . وحينئذ كنت أنقذت حياتنا من الشقاء الطويل .

فقالت مزمجرة — إذا كنت في أثناء إجرامك وحنثك وخيانتك لم ترهب ثورة ضميرك فهل ترهبها بعد أن لا يبقى من الجريمة إلا أثرها ومن الخيانة إلا خبرها . أما كفى أن ضحيت بسري المقدس على مذبح شهوتك حتى ترغب مني أيضاً أن أضحي بسمعتي الطاهرة وأشهد عاري وأبصر الناس يشيرون اليه باصابعهم — كل ذلك لكي أنتظر ندامتك وأعلل النفس بتوبتك وأتوقع عودتك الى كتوقع السمك في البحر . وربي لولا فشل آمالك في الحياة ولولا خيبتك من السعادة العائلية لما لاح في بالك خاطر الندم . فما توبتك هذه توبة النفس النادمة التي أقلقها الضمير الثائر ، وإنما هي توبة الخائب الفاشل الذي أشعرته خيبته بان ماضيه كان مقدمة لمستقبل أسعد لولا إنه نقضه وغير وجهته . فكأنك ياهذا كنت تريد أن أبقي ضحية على مذبح شهوتك الى أن تختبر ضحايا أخرى وترى أيها أطيب وأدسم . فهل رأيت أنك كنت ولا تزال تجعل أنانيتك سمط عقد حوادث حياتك ؟ لقد خاب فالكم أيها الرجال بما طبعه كتاب موسى في أذهانكم من أن المرأة ليست إلا ضلعاً ثانوياً منكم . ومانسبة قيمتها الى قيمة الرجل الا كنسبة قيمة الضلع للجسم كله . فانكرتم عليها كرامة النفس وعزتها واستقلال الشخصية وحرية الارادة وقيمة العرض . وجهلتم أو تجاهلتم أنها العنصر الجوهري لسعادة الحياة . فحيث ينبذ هذا العنصر أو يسحق أو يضغط أو يبذل يقض المضجع ويتقلقل الفؤاد غماً ويثور الضمير إرهاباً وتضطرب النفس روعة . فليس لك الآن أن تتذمر مما تقاسيه من روعة النفس ولوعة الفؤاد لانه ماجنى عليك إلا نفسك

وكان الامير يسمع هذه المرافعة البليغة أمام قاضي الضمير صاغراً حتى أفحم ولم يحر جواباً . فبقي برهة صامتاً الى أن قالت الأم اغناتيا : ليس لك إلا أن تبقى متناسياً ضحيتك لمياء لأن الفسحة الواسعة بين الحاضر والماضي قطعت كل صلة بينك وبينها . ولم يبق لك إلا أن تستغفر الله وتسترحمه على نفسك . وأما اغناتيا فراهبة ورئيسة دير ولا علاقة لها مع القوم إلا بعمل المبرات المفروضة على الراهبات

فعاد الامير يتضرع قائلاً : إذاً يامعبودتي الأرضية أتصرين على حرماني نعمة قبولك كفارتي عن خيانتي لك . أرى نفسي أشد ظمأ لهذه النعمة منها لكل غبطة . فبربك

يالمياء انقلي ديرك الى فؤادي حيث أقمت لك فيه عرشاً سامياً وهيكلا لعبادة الخالق فسيحاً . دعينا نستأنف في الشيخوخة الحياة المقدسة التي بدأنا بها في الصبى والشبيبة فتمحو سعادة المستقبل مهما كانت قصيرة شقاوة الماضي الطويلة . بربك يالمياء فكري بسعادة جديدة

وارتمى على قدميها يقبلهما فنفرت منه وصاحت ساخطة : ويحك ياغبى ! ألايزال الغرور يزين لك أحلاماً سعيدة ويريك الاوهام آمالا محققة ؟ هل جننت أم عاد اليك شيطان الشهوات حتى تحاول أن تقلقل سلام نفسى الذى أتمتع به في ديرى . ألا تزال مخدوعاً بأوهامك حتى تظن انى تعسة النفس وفي حاجة الى سعادة الحياة معك ؟ دعنى في سعادة عفافي وهناء تبتلي . وابق أنت متوخياً ملذاتك في مجد شرف سلالتك . أنت من عالم الحياة الجسدية وأنا من عالم الحياة الروحية فلا وسيلة لامتزاج العالمين

فأجاب الامير متوسلا : اني أعيش معك في عالمك الروحانى يالمياء . لاأبتغى لذة جسدى فقدمات جسدى مثقلا باثقال آثامي . وانما سلام نفسى أبتغى ولا أجده إلا في الحياة الروحانية في صحبتك . فاختارى لنا ديراً يقبلنا معاً . فان لم تجدى ديراً كهذا فحولى هذا المنزل الى دير واجعلى فيه غرفة للعبادة وزينيها بالايقونات والصور والشموع وكلانا نسجد لله فيها ونصلى معاً عسى ان صلاة اثنين تكفى للحصول على مغفرة آثام واحد

فصاحت به : ويحك ! ألاتزال توغل في تخيل المستحيلات ! ألا تعلم ان البون بينى وبينك متسع وقد زدته اتساعاً فيما فعلته بشأن بنتى

فلطم الامير جبهته وخديه بكفيه وصاح : ويلى بنتك وحدك ؟ أتحرمينى حصتى منها .

— لم تشأها بنتك حتى ولا زوجة لابن أخيك . فكيف تدعيها بعد أن نبذتها ؟ وماهو ذنبها حتى تنبذها ؟

— الذنب ذنبك ياعزيزتي . أبقيت السر دفيناً وخفياً حتى عنى . فلو كشفت السر لى يوم علمت ان التوبة صارت أقرب شيء الى نفسى لما تعرضنا للنكبات . ولكنك رمت أن تعدى لى نقمة هائلة اذ تركت جهلى يدفعنى الى اضطهاد ابنتى . ويلاه . لقد عظمت خطوبى كما عظمت آثامي ان قلبى يكاد يتقطع إذ يلوح في مخيلتى ان بنتى كانت تجاهد في النيل الجهاد الاخير لمفارقة الحياة الى الردى الذى دفعتها اليه ويحك يالمياء أما كفى هذا الروع الذى سببته لي انتقاماً منى ؟ فغفرة يالمياء وصفحاً ورضى على ظالمك النائب وانترحى الكفارة التى ترومينها . اذ وضع يد مارى بيد فريد ليس كفارة ماهو الا نعمة لفريد وسرور لشيخوخى فماذا تبتغين كفارة أخرى

فقالت وهي لا تزال متجهمة : قلت لك ان لمياء التى كانت تشكوك الى الديان قد مضت من العالمين وأما اغناتيا الراهبة فلا شكوى لها منك . فالى ربك أخطأت والى رحمته التجىء وهو يغفر لك

عند ذلك دخلت سارة متهللة الوجه وقالت : بشرى ياسيدى لقد جاؤوا بها سليمة والحمد لله . اختطفوها من فم حوت يونان

فقال الامير منتعشاً : رباه تبارك اسمك وتمجد . اذهب لاستقبالها

فقالت سارة : مهلا يامولاى الى أن تبدل ملابسها المبتلة فهى في حالة لا تستطيع أن تقابلك

وخرجت سارة فقال الامير للراهبة : لايزال الله واسع الرحمة مهما عظمت آثامى لقد أنقذها وأنقذنى من مسؤولية موتها فاطمئنى ياعزيزتي

فقالت أغناتيا : الم أكن شديدة القلق عليها لاني واثقة أن صلاتى وضراعتى لله كافيتان لحراستها وصيانتها من الاخطار وانما كنت ثائرة النفس اذ فهمت جورك عليها

— الحمد لله أن العاقبة كانت سلامة

— ويك . هل عرف أحد شيئا مما عرفته أنت الآن

— كلا لم يعرف أحد شيئاً سوى الدكتور يوسف المعنى

— تباً لك ! لماذا أخبرته ؟

— لم أخبره . وانما قضت جهالتى وحماقتى أن يقرأ رسالتك لى

— لله منك أرعن . كيف جعلته يعرف سراً لا يعرفه أحد غير الله ؟ اني أريد أن يبقى العالم جاهلا تاريخ حياتى الثانية بعد أن نسى العالم تاريخ حياتى الاولى الذي سودته برجسك

فقال الامير متذللا : لقد قضى علي أن تكون آثامي سلسلة متصلة . فبربك اغفرى ما تستطيعين أن تغفرى منها . اني تائب نادم

فقالت أغناتيا مضطربة : ولكن ما نفع التوبة وقد فضحت يا أحمق عاري الذى دفنته في تنكري . رباه . لقد تبت اليك وكفرت فلماذا تسمح بان يفضح اثمي

وهنا بكت أغناتيا أولمياء فحاول الامير أن يطيب خاطرها قائلا : رفقاً بروحك الطاهرة ياعزيزتى . ثقي أن الدكتور يحفظ السر . سأدفع له ثمنا غاليا يالمياء . فاطمئنى فسيبقي السر دفينا

— حاذر ياهذا أن تتسع دائرة الفضيحة لا أريد أن تعرف مارى شيئا الا متى شئت أنا

— ان أمرك شريعة مقدسة ياعزيزتى

الفصل الثامن عشر

مؤتمر الصلح

وهنا دخل الدكتور يوسف المعنى قائلا : مولاي اطمئنك أن مارى سليمة وأهنئك

والتفت الدكتور الى الام اغناتيا وفي نظرته عبارة طويلة من التهنئة لها . أما هي فاعرضت كأنها لا تريد أن يخاطبها شيئا بشأن الفتاة ففهم الدكتور انها تريد ان يبقى متجاهلا السر الذى كشفته له الاقدار مصادفة . فامسك عن مخاطبتها. أما الامير فتزحزح من مكانه قائلا : هاتوها الى هنا دعونى أقابلها بالاستغفار

— مهلا يا مولاى . ان سارة تبدل ملابسها المبتلة . يجب أن تقابلها بالهدوء لانها لم تزل لشدة انفعالها وروعها في شبه اغماء . لقد عالجتها بالمنعشات كفاية ولا بد من الصبر عليها الى أن تنتعش وتعود لها قواها

— شكراً لك ياعزيزى الدكتور . لك أعز شيء عندي بعدها جزاء لفضلك . ولكن حاذر أن يعلم أحد بفحوى ماقرأته في رسالة ملاك السعادة

وهنا انسلت الراهبة غير مودعة ولم تلتفت الى أحد في الدار كأنها غريبة عمن فيه وليس هناك أمر يعنيها . وبعد انصرافها قال الامير للدكتور بحزم وتاكيد هل فهمت يادكتور اني لا أريد ان يعلم احد بهذا السر . فهل تبيعنى صمتك عنه بأي ثمن ؟

— ليس لصمتى عن سرك يا مولاي أي ثمن . فهو لك وملكك في كل حال . ثق اني نسيته

— بورك بك يا عزيزى الدكتور . لك يد زكية مكافأة فقد أحسست أن بين قلبيكما رسولا

فتهلل وجه الدكتور جداً وان كان قد توقع هذه النتيجة منذ انكشاف السر له وقال : بل هي نعمة من يدك لاأستحقها ياسيدى الامير

— بل تستحقها فانت عزيز آل الرحابي؟ انظر ياعزيزي أما انتهوا من ابدال ملابس مارى هاتوها الى هنا

فخرج الدكتور وبقي الامير يرتب المقعد لاضجاع ماري فيه وهو يختلج مضطرب الفؤاد بين فرح النفس وتبكيت الضمير والخجل من مقابلتها وجعل يخاطب نفسه : رباه . ماذا أقول لها وكيف أقف

لديها وقد كنت منذ برهة صاعقة غضب تنقض عليها . هل يسوغ لي يا ترى أن أقبلها قبلة أبوية ؟ ماذا يقول هؤلاء الناس اذا رأوني أقبلها ولا سيما بعد اضطهادي الشديد لها ؟ حقا انه عمل مستهجن لاريب انهم يستجنونني . يالله كيف يحرم على أن أقبل بنتي . ان حمقي وطيشي الماضي قضيا بحرماني من تمتع شفتي بلثم وجنتي ذلك الملاك الطاهر . آه ما أقساني آه . ما أشد حماقتي . كيف تعاميت عن طهارة نفسها ورقة طبعها ودماثة خلقها وطيب قلبها يوم كانت تخاطبني متلطفة حين قدمت لي الديباجة . عجبا . كيف عميت عن سيماء اسرة الرحابي في وجهها وكيف لم أر ملامح لمياء في محياها وطهارة لمياء في ثغرها وذكاء لمياء في عينيها . حقا ان الغرض مرض

ثم دخلوا بها وهم يسندونها وهي لاتزال واهية القوى من شدة الانفعال والخوف والهلع وألقوها على المقعد والامير يحوم حولها ويمسك بيدها تارة وبذراعها اخرى الى أن ناداها الدكتور : ماري ماري تيقظي جيداً . انك بخير والحمد لله

فجالت ماري نظرها هنا وهناك ثم قالت وجلة : رباه أين أنا ! أما بلغت الى السماء بعد ؟ اني تائقة لمشاهدة ربي الرحيم الرحمان .

وكان فريد راكعا لديها فقال: حبيبتي ماري، انك في سماء سعادتك . لاتجزعي. ان الله ردك الى مابين ذراعي فريد حيث جعل فردوسك بين ضلوعه

وكان فريد قد علم ان عمه ندم الندم الشديد على اضطهاده للفتاة وجوره عليها وانقلبت افكاره بشأنها . وقد ظن أن هذا الانقلاب الذي طرأ على عمه كان بسبب جزعه على الفتاة حين علم انها انتحرت لاجله . أما ماري فكانت الى تلك الساعة لاتدري بالانقلاب الذي حدث . فلما سمعت كلام فريد وتحققت وجوده لديها انتعشت ونهضت قليلا وقالت وهي تجيل نظرها وتبكي . فريد هل خطفتني من فم الردى لكي تعود بي ثانية الى هذا المكان الرهيب الذي كان يصارعني فيه شيطان الغضب منذ برهة ؟ بربك ردني الى قبري

فاجهش الامير بالبكاء وتقدم اليها وجثا لديها وأمسك بمعصمها وقال متلهفاً: صفحاً وغفراناً ياعزيزتي . لقد طردنا شيطان الغضب وابليس النقمة وليبق حولك الا ملائكة الرضى والسرور . فاطمئني . أفديك بنفسي وحياتي وأنا وفريد وقف على سعادتك .

فاستهجنت ماري هذا الكلام وقالت: ماذا أرى ؟ هل يكمل هؤلاء القوم عذابي الدنيوي قبل ان ابرح الى نعيم ربي

واستلقت مغمى عليها فتقدم الدكتور قائلا : ويحكم انها في حالة يأس وضعف فاتركوها ريثما تشتد قوتها .

فتباعدوا كلهم الا فريد فبقى راكعا لديها يمر كفه على جبهتها قائلا • لاتجزعى ياحبيبتى • ان فؤادي حصن لك يقيك من كل شر

***

وهنا بغتهم دخول زكية فدهشها ذلك المنظر الغريب لانها كانت متغيبة فى زيارة احدى صديقاتها العزيزات كل مابعد ظهر ذلك اليوم • فلم تدر بشىء مما كان فلما دخلت ورأت خالها الأمير وفريداً ابن خالها جاثيين لدى المقعد وماري الراهبة مستلقية عليه والدكتور وساره وسائر الخدم واقفين يتوقعون الاوامر والكل منهمكين في خدمة ماري — لما رأت زكية هذا المنظر الغريب صرخت صرخة ألم شديد لان نبلا من الغيرة حاداً عبر في فؤادها ، وترنحت وكادت تهوي الى الارض مغمى عليها لولم يتلقها الدكتور يوسف المعنى بذراعه ويسرع اليها خالها أيضاً ويختصراها معاً ويأخذاها الى غرفتها الخاصة حيث اقعداها وقال الامير : لاترتاعى ياعزيزتي ستفهمين مما رأيت مايطيب خاطرك

فتنهدت وقالت بصوت خافت ملؤه الانفعال والتأثر : ويلى ماذا رأيت ؟ رأيت شوكة في عينى • أحسست بغصة في فؤادى • أبصرت تمثال نفسى منتصباً امام عينى أرى قومى يحتفون بشيطان شقائي في بيتى • رباه لا يستطيع قلب بشري أن يرى ما أرى

واستلقت كأنها أغمي عليها فقال الامير متهدج الصوت إذ وجد نفسه في أحرج مأزق • حاما ياعزيزتى لاتجزعى . أن حكم القضاء والقدر لايرد لقد قدرت لك سعادة أخرى غير السعادة التى رغبت فيها لك فما في غامض علم الله ليس في علم الانسان وما يدبره الله لايخطر في بال بشر

فهمس الدكتور في اذن الامير قائلا: دعها لى أنا أطيب خاطرها وأرد لها اطمئنانها •

— انها فى عهدتك منذ الآن ياعزيزي الدكتور وانما ارجو منك أمرين أولا الا تفاجئها بخبر ارادتى الاخيرة بشأنها ارجو أن تترك هذا البلاغ لي وثانياً ان ...

— لا أدعها تعرف شيئاً عن السر الذي اكتشفناه عن مارى • فاطمئن أن اقناعها بصواب مارأت أسهل علي من اقناعها بصدق رواية السر فيما لو انكشف لها عن يد غيري

— شكراً لك ياد كتور

وعاد الامير الى ماري إذ أصبح كل قلبه هناك أما الدكتور فجلس على كرسى لدى زكية وقبض على معصمها وقال: زكيه زكيه ماهذا الدور الذى تمثلينه ؟ أجلك عن أن تكونى بوجهين ولسانين ، أم تموهين على خالك •

فنظرت فيه نظرة اخترمت فؤاده وقالت لا هذا ولاذاك ياعزيزي ولكنك لاتجهل ما كان من مكايدة هذه الفتاة لي

في الماضي ونقمة خالى الامير عليها والآن أراه راكعاً لديها أفلا تثور في الغيرة . يقولون ان الغيرة ظل الحب والظل يشتد بقدر كثافة صاحبه فهل يسوؤك أنا أكون شديدة الغيرة

- بل تؤلمني شديد الألم غيرتك اذا كانت ظل حب لاحد غيري فهل يثير غيرتك أن يكون فريد راكعاً لدى ماري كما أركع لديك

— لم أقل لك إن ركوع فريد لدى ماري أثار غيرتي . وإنما اهتمام خالى بها غاظني . فاذا كان اهتمامه إثار غيرتي هكذا فما قولك باهتمامك أنت

فابتسم الدكتور متهللا وقال مقبلا معصميها: ما أنا المهتم بها بل وظيفتي يا عزيزتي أما أنا طبيب ؟ أوما هي في حالة اغماء ؟ أليس علي الاسعاف ؟

— وماذا جرى لها؟ وكيف وجدت وفريد هنا ؟

— جاءت لتقدم للأمير ديباجة كان قد أوصاها أن تطرزها له وهو لا يدري أنها هي عشيقة فريد . فلما اكتشف أمرها غضب عليها غضبا شديداً ورذلها وأهانها وقرع بها وتهددها حتى انها خرجت من عنده متعمدة الانتحار فخاف أن تفعله وان يحذو فريد حذوها وان تكون الطامة كبرى فاوعز الينا باللحاق بها وردها عن عزمها فادركناها بعد أن انتشلها من النيل من شاهدوها ترمي بنفسها فيه ، وعدنا بها الى هنا . ولما رأى خالك ان الحب الذي بينها وبين فريد حب للموت . أدرك انه قضاء من الله . فتاب عن مقاومتها وأعلن رضاه عنهما

فتجهمت زكية ولم يخف على الدكتور استياؤها وكآبتها فقال . هل ساءك يا عزيزتي هذا الرضى ؟

فنظرت فيه نظرة ساجية وقالت : اذا كان لا يسوؤك فلا يسوؤني

— بل انه سرني جداً اذ لولاه لما حصلت على نعمة رضى خالك على حبنا

فنظرت فيه متهللة وقالت . هل أعلن خالى رضاه هذا

— نعم أعلنه لى وانما رام أن يكون اعلانه منه لك رأسا فتجاهليه الآن ريثما يعلنه لك بنفسه

وبقيت زكية متجهمة مفكرة فقال الدكتور : لا أزال أقرأ في وجهك كآبة في نفسك فهل ساءك انى أبلغت اعلان خالك رضاه لى قبل أن يعلنه لك ؟

— كلا

— اذاً ماذا يسوؤك؟

فتنهدت وقالت : لا شيء

— بلى ، في نفسك شيء

— أخاف أن يكون اعلان خالى رضاه لى لا يرضيك

— عجباً لماذا؟

— أنت تعلم انه يريد أن يجعل فريداً خليفة له وممثلاً أسرة الرحابي وقد رضى عليه الآن فلا بد أن يجعل كل ما لبيت الرحابي فى يد خليفته

— فضحك الدكتور وقال . أما أنا فلا يهمنى هذا البتة . فهل يهمك أنت . أليست لك ثقة بان في قلب يوسف المعنى لك عرشاً أعلى وأمجد من عرش آل الرحابى؟ أولا تثقين أن مغنم يوسف المعنى من صناعته الشريفة ما يكفى اترفك ونعمائك

— اذا كان قرار خالى بهذا الشأن مهما كان نوعه لا يهمك فلا يهمنى سوى أمر واحد

— ما هو !

— أن يكون حظي منك كحظ ماري من فريد. فهذا كل نعمائي وترفي

— بل ثقي ان حظك منى كحظ فريد من ماري ـ حب للموت، للانتحار

فابتسمت وضغطت على كفه فقبلها بحرارة وقال : من كم عام كنت أتوق الى هذه القبلة، فما أسعدنى الآن وقد حصلت عليها برضاك

فابتسمت كثيرا وقالت متوردة خجلة ومنذ كم سنة كنت أتمنى أن لا أكون من بيت الرحابي حتى لا أبقى سجينة في قفص تقاليدها . فما أسعدنى الآن وقد علمت أنك تريد زكية لا بنت الرحابى، ولا جاه الرحابى ولا مال الرحابى

— أجل أريد هذا الاقنوم مهما تسمى أريده مجرداً من ماديات العالم لكي لا يصادف الحب أمامه حواجز من هذه الماديات

— اذا ثق انى لك روحا وحياة يا عزيزي يوسف.

وعانقها قائلا : هذه عناقة استدينها من العناقات المستقبلة

ولكنه قبل أن يظفر بقبلة بغتهما دخول سارة . فقالت ضاحكة .ويحي لقد نكدت عليهما . اعذرانى . وانما الأمير أمرنى أن أدعوك يا زكية فتفضلى الى غرفته الخاصة

دخلت زكية متوردة مضطربة فاذا خالها مستلق على مقعده باشاً فتقدمت وقبلت يده وهو قبل جبينها وقال .أظن ان الدكتور يوسف أبلغك شيئا عن ... ماذا أبلغك يا ترى ؟

ـ أبلغنى يا سيدي انك بذلت كل جهدك في الحيلولة بين فريد وماري فلم تستطع فصلهما وقد دفعهما جهادك هذا الى الانتحار فاقتنعت ان هذا الحب الذي يربطهما قضاء من الله فاعلنت رضاءك عنه

ـ أجل أعلنت رضائي عنه اذ علمت أنك أنـ راضية عنه أيضا.وأدركت ان إصراري على قراري الاول لا يكون ظلما لفريد فقط بل لك أيضا .ومعزتك عندي لا تقل عن معزة فريد

فابتسمت زكية وقالت : أشكر سيدي الخال على نعمه المتوالية وأقدرها حق قدرها

— ولذلك قسمت ثروتي بينك وبين فريد . وله البقية الباقية من ثروة أبيه

فتقدمت وقبلت يديه ثانية فقبل خديها ذارفاً الدمع عليهما وهي تغص بكلمات الشكر له . ثم قال باسما: وقد لاحظت ان بينك وبين الدكتور يوسف مثل مابين فريد وماري . فان كانت ملاحظتي صادقة فاني أبارك حبكما وأقرر أن يكون قرانكما وقران فريد وماري في وقت واحد . في هذا الاسبوع

فأطرقت زكية خجلا وقالت : لتكن مشيئتك ياسيدي الخال

— أود أن أعلم ياعزيزتي هل باق في نفسك شيء من الحقد على ماري . أما أنا فقد تغير قلبي عليها كل التغير منذ تقرر أن تكون زوجة ابن أخي ، وأصبحت لها منزلة عندي تقارب منزلتك

— ثق ياخالي ان من تحبه أحبه ومن تعزه أعزه أكثر

— أشكرك. إذاً أود أن أكون صلة الوئام والسلام بين بيتك الجديد وبيت ابن خالك ياعزيزتي فلا تدعوا شيبتي تنزل بهوان الى القبر بسبب خلاف بينكم . أود أن تكوني دائماً على وئام مع ماري

— انى منذ الآن أبرهن لك على صنعه قلبي عليها . هل تأذن أن أذهب اليها الآن وأصافحها وأقبلها ؟

— تسريني جداً بهذا الفعل

ومضت زكية الى الغرفة الأخرى حيث ماري وفريد يتحادثان باشين وانقضت عليها تعانقها وتقبلها وتقول لها : ثقي ياعزيزتي انك منذ الآن أختي العزيزة . ثق ياعزيزي فريد ان زوجتك ستكون أعز من أختي

فقال فريد : وثقي ياعزيزتي زكية ان زوجك سيكون أعز من أخ لي .

وكان الأمير يشاهد هذه المساجلة الودادية من الباب مبتهجاً فقال : وثقوا ان عمكم وخالكم يكون مبتهجاً بوئامكم هذا ويموت ناعم البال ، ويسرني أن أعلن لكم اني أضفت الى أسرتكم رجلا أفتخر بأدبه وعلمه كل الفخر

وأمسك بيد الدكتور ودفعه الى مابين الثلاثة فتصافح الجميع مبتهجين

***

في ذلك الاسبوع عقد زواج فريد وماري والدكتور يوسف وزكية في بيت الامير نعيم الرحابي وكانت الحفلة بسيطة جداً لم يحضرها الا الأخصاء لأن الأمير طمع بحضور لمياء (الام اغناتيا) فيه ولكن الام اغناتيا اعتذرت بأن الراهبات لا يقبلن دعوات للأعراس ولا لغيرها

وبقي الامير نعيم متنسكا في بيته وفي كل يوم أحد يدعو كلا من الزوجين لقضاء النهار عنده مبتهجاً بوجودهم معه . ولطالما

كانت تحدثه نفسه أن يعانق بنته عناق الأب فلا يجسر . وانما كان يختلس من شعر رأسها قبلة ونشقة حين تتقدم اليه لتقبل يده عند التحية والوداع . وبقيت هذه الحسرة في نفسه حتى يوم الممات

ومع ان الامير كان عائشاً متنسكاً في بيته كان يخرج كل صباح في مركبته ويمر أمام دير الراهبات معللا النفس بمشاهدة لمياء (الأم اغناتيا) ولكنه لم يظفر بطائل لأن اغناتيا نفسها بعد نيلها وطرها الذي كانت ترمي اليه منذ تهيت وسائل لقاء فريد بماري عكفت على العبادة والتقشف وقلات جداً من الخروج من الدير وانما كانت مارى تزورها في كل أسبوع يوماً كاملا طبقاً لرغبتها . فكانت هذه الزيارة تعزية لها

ولما يئس الامير من ظهور لمياء وإطلالها عليه صار يقف عند مروره لدى باب الدير بضع دقائق ويتمتم صلاة ثم يمشي . وبالطبع لم يخف خبره على اغناتيا ولكنها بقيت محافظة على نذرها الرهبانى الى أن بلغها ان الامير نعيم مريض يحتضر فذهبت اليه فاذا ماري وزكية تتنافسان فى تمريضه والدكتور وفريد وأم فريد منهمكون في علاجه وتخفيف آلامه

فلما رأى الأمير اغناتيا تساقطت آخر دمعات من عينيه وأجهش . فنظرت الراهبة بالدكتور نظرة استغاثة . والدكتور وهو عالم بالسر فهم مرادها فغمز زوجته زكية أن تتبعه فتبعته . ثم نادى فريدا وأمه انه في حاجة اليهما وشغلهم جميعاً بحديث ذى شأن لكي يخلي الجو للأم أغناتيا .

فلما رأى الامير الجو خالياً قال بصوت خافت : أشكر رحمتك يالمياء . ألا تأذنين الآن قبل أن أبرح هذا العالم؟

فاغرورقت عيناها . والتفتت الى مارى التى كانت مبهوتة من قول الامير للراهبة « يالمياء » وقالت بصوت أجش ونبرة غريبة : مارى

فأجابت مارى بذعر كأنها تتلقى أمراً مخيفاً : نعم يامولاتي

ـ قبلى أباك

— اني مقبلة يد الامير كل ساعة

— أقول لك قبلى أباك عانقيه عناق البنت للأب يامارى

فذعرت الفتاة وقالت : سيدتى . ماذا تعنين ؟

فقال الامير بصوت أجش : افهمي قول والدتك ياعزيزتى . أمك الجسدية تتكلم وهي تعنى ماتقول

فذهلت الفتاة إذ فهمت المراد فقالت لها أمها : هنا ينـدفن هذا السر يامارى فاغتنمى هذه الفرصة

فانقضت مارى على أبيها وعانقته ودموعها تتدفق . فغنم الامير تلك الفرصة وقبل بنته أول قبلة وكانت قبلة الوداع ، اذ وهت قواه بعدها . فانحنت الراهبة عليه

وقبلته قائلة : الله يغفرلك ويقبل توبتك . امض الى فرح ربك بسلام . ففتح الامير عينيه لآخر مرة كأنه شعر بتلك القبلة الحارة وسمع ذلك الكلام العذب وظهر في عينيه شعاع الابتهاج . ورأى ماري تعانق أمها وتقول لها : أماه . ألا تاذنين بفتاح هذه الاسرار ؟

– بلى يابنتي . بعدموتي تقرأين رسالتي لك . واعلمي أني بنيت ضريحا لى في التربة وجعلته وقفا عليك . فبعد موتي ودفنى فيه انقلى رفات أبيك اليه

وهنا سمعتا تنهدة شديدة من الامير . فالتفتتا اليه فاذا عيناه شاخصتان تبثان أشعة السرور كأنه سمع ذلك الكلام المنعش

فقالت ماري : أماه ! لماذا لا يكون هذا الضريح في عهدتي منذ الآن اذا كان وقفاً علي وسيكون مدفنى ومدفن أبوى؟

فسمعتا تنهدة أخرى من الامير كأنه يزكى هذا الرجاء . فنظرت فيه الراهبة وقالت لبنتها : ليكن ما تريدين يا بنتى منذ الآن . ادفنى أباك فيه .

وتقدمت الام اغناتيا الى الامير وقبلته القبلة الأخيرة وقالت وداعا يا عزيزي سنلتقي في السماء مطهرين من أوساخ العالم . سأكمل حياتي بالصلاة لأجلى وأجلك

وخرجت الراهبة من الحجرة . ودعت فريداً والبقية الى مخدع الامير . ثم خرجت بعد دقائق معدودة أسلم الامير الروح مأسوفا عليه مبكيا .

***

بعد بضعة اعوام ماتت الراهبة بين يدي مارى متعزية وأخذت ماري منها ظرفاً مختوماً معنوناً باسمها . ودفنت أمها الراهبة بحسب وصيتها في الضريح الذي بنته وجعلته في عهدة بنتها . وقرأت مارى رسالة امها التى اشتملت على موجز تاريخ حياتها وعلاقتها مع الامير . وبقى السر مكتوما عن سائر الاسرة الى أن أعلن في هذا الكتاب – كما قرأه القارىء . وقد تبدلت الاسماء حرصا على حرمة تلك الاسرة

انتهت

نصيحة

تجد فى الصفحات التالية بيانا عن روايات أخرى شيقة جداً لاتقل عن هذه الرواية حسناً وجمالا وتأثيراً فى النفوس – فاطلبها من ادارة مجلة السيدات والرجال في شبرا بمصر . وتمتع بلذة مطالعتها .

رواية ثورة عواطف تمثيلية

ذكرنا في صدر هذه الرواية أنها وضعت في الأصل تمثيلية . ثم أدمج في خلال محادثاتها ما تقتضيه من الوصف . فبدت قصصية كما تراها الآن . فاذا أزيل الحشو بتصرف قليل عادت تمثيلية . واليك بيان يسهل تحويلها من قصصية الى تمثيلية .

أما المناظر فيمكن استخراج وصفها بسهولة من وصف الوقائع والحوادث . والفنان متى فهمها جيداً لا يتعذر عليه بتاتاً أن يرسم خطط مناظرها .

يستغنى بتاتاً عن القسم الاول المشتمل على الفصول السبعة الاولى ، لانه أدخل على الرواية بغية تحليتها من الوجهة العاطفية . وكان ممكناً أن يجعل فصلا صغيراً كمقدمة (برولوج) لولا أن الرواية تطول وتمثيلها يستغرق وقتاً أطول .

أشخاص الرواية

الامير نعيم الرحابي — من سلالة بعض حكام سوريا القدماء

الاميرة وطفاء — أرملة أخيه الامير خليل الرحابي

فريد الرحابي — ابن وطفاء ابن أخي الامير

نجلاء مزهر — مرضعة فريد ومربيته

مريم نعمة الله — أو ماري الراهبة — عشيقة فريد

زكية — ابنة اخت الامير نعيم الرحابي

الدكتور يوسف المعنى — طبيب الامير

الراهبة أغناتيا — رئيسة الدير

سارة — طباخة الامير

حبيب صلاح — خادم خاص للامير

على — خادم دار الامير

* * *

الفصل الاول

في منزل الامير المحاط بحديقة في احدى ضواحي مصر — يبتديء من الفصل الثامن صفحة ٥٠

المنظر الاول — في رحبة المنزل . حبيب خادم الامير يدعو الامير بالتلفون الخ صفحة ٥٢ — ٥٣

المنظر الثاني — مكتب الامير . يدخل الدكتور يوسف المعنى اليه — صفحة ٥٣ الى ٦٤

المنظر الثالث — الحجرة نفسها . تدخل سارة وماري الراهبة — صفحة ٦٥ (فصل ١٠) الى أول العمود الثاني صفحة ٦٦

المنظر الرابع — الحجرة نفسها — تدخل ماري الراهبة ثم يأتي الامير لمقابلتها صفحة ٦٦ — ٦٨

المنظر الخامس — تدخل سارة لتلتقي بماري ثم تباغتهما زكية — صفحة

٦٨ ـ ٧٢ المنظر السادس — نفس الحجرة صفحة ٧٢ ـ ٨٤

الفصل الثاني

في منزل المرضعة نجلاء مزهر

المنظر الاول ـ في غرفة نجلاء . حديث وطفاء أم فريد مع نجلاء ـ آخر صفحة ٧٦ ـ ٧٨ المنظر الثاني — حجرة فريد . تدخل أمه اليه صفحة ٧٩ — ٧٣ المنظر الثالث — تدخل ماري . صفحة ٨٤ — ٨٧

المنظر الرابع — تلتقي ماري بزكيه فيحتدم الحديث بينهما — من آخر صفحة ٨٧— ٧٩

المنظر الخامس — يدخل الدكتور ويتلقى ماري . من عمود أول صفحة ٨٩ـ٩٣

المنظر السادس — غرفة فريد — لقاء فريد وماري — عمود ٢ صفحة ٩٣ الى نهاية (فصل ١٢) فى صفحه ٩٤

الفصل الثالث

في حجرة الامير نعيم الرحابي

المنظر الاول — الدكتور والأمير (الفصل الرابع عشر) صفحة ٩٩ الى وسط العمود الاول صفحة ١٠٧

المنظر الثانى — تدخل ماري الراهبة بالديباجة صفحة ١٠٢ الى ١١٠

المنظر الثالث — تدخل الراهبة اغناتيا صفحة ١١١ — ١١٨

المنظر الرابع — يدخل الدكتور . عمود ٢ صفحة ١١٩ الى أول العمود الاول صفحة ١٢٣

المنظر الخامس — تدخل ماري الراهبة . صفحة ١٢٣ الى منتصف صفحة ١٢٤ (آخر الفصل الخامس عشر) .

المنظر السادس — الدكتور يقرأ الرسالة من منتصف صفحة ١٢٤ — ١٢٩

الفصل الرابع

في منزل الامير

المنظر الاول ـ الامير فى حجرته . تدخل عليه ساره ثم الراهبه اغناتيا ١٣٠ الى ١٣٧ المنظر الثاني ـ فى حجرة الامير يدخل الدكتور يوسف المعنى ـ ١٣٨

المنظر الثالث ـ في الحجرة نفسها . يدخلون ماري الراهبة صفحه ١٣٩

المنظر الرابع ـ تدخل زكية صفحة ١٤٠ ماعدا صفحة ١٤١ و ١٤٢ ثم آخر صفحة ١٤٢ وصفحة ١٤٣

المنظر الخامس أو الفصل الخامس ـ الامير في حالة النزع والاحتضار . عمود ٢ صفحة ١٤٤ ـ ١٤٥

ملاحظة

يمكن اختصار كثير من الاحاديث من غير أن يختل المعنى اذا أريد أن تشغل الرواية وقتا أقصر

لحفظ هذه الرواية عن ظهر القلب لاجل التمثيل يمكن استعمال النسخ المطبوعة نفسها

روايات حداد

احدث الحوادث واغربها وأبهجها بينها . بعضها شرقية وبعضها غربية
تبحث المبادئ السامية وتمثل الأخلاق النبيلة وتحرك عوامل النهضة الجديدة

﴿ حركات السيدات في الانتخابات ـ أو أي هو ابني ﴾ — أحدث رواية مصرية وطنية أبطالها سيدات . حوادثها في القاهرة في الزمن الآتي القريب . مباغتات ومصادفات غريبة وأسرار محيرة . حرب انتخابية بين ملائكة النعيم وزبانية الجحيم . تبحث بطلة الرواية عن ابنها الذي نبذته طفلا فيظهر لها اثنان في كل منهما السمة التي وسمت ابنها بها قبل أن تنبذه . فكيف تعلم أيهما الابن الحقيقي والابن المزيف . هنا عقدة القضية . هنا تنتصر الملائكة على الابالسة (ثمنها ثمانية قروش مصرية)

﴿ نبية لبنان ـ أو ملك فينيقيا الجديدة ﴾ ـ هي الرواية الممتازة بكونها بحراً من العواطف . وقد لعب فيها الحب الروحاني الشعري السحري العذري دوراً عجيباً . فأوحى هذا الحب الى العاشقة المعشوقة النبوآت الصادقة وأنطقها بأسرار كأنها ألغاز الآلهة . الحادثة بين فتاة درزية وفتى ماروني في سني الثورات اللبنانية بين سنتي ١٨٤٠ و١٨٦٠ . وقد اتضحت فيها أسباب تلك الثورات وظهرت نتائج التعصبات المذهبية . فكان الحب الروحاني يمحق التقاليد التعصبية الشنيعة . وقد وصف بها الحب وصفاً لم يسبق له مثيل (ثمنها عشرة قروش مصرية)

﴿ ثورة عواطف ﴾ ـ هذه الرواية كلها عواطف واحساسات وذات مغزى أدبي عظيم . تضاهي برقتها رواية « حواء الجديدة » وتفوق عليها بسبك حوادثها ورهبة خواتمها . وقد أضيف لها ملحق لتحويلها الى تمثيلية (وثمنها عشرة قروش مصرية)

سلسلة روايات الاتحاد العربي العام

صدر من هذه السلسلة ٣ روايات ظهرت فيها العوامل والمساعي الاولية لانسلاخ العرب عن الترك وهي :

١ ـ ﴿ فرعونة العرب عند الترك ﴾ ـ في هذه الرواية ظهر الحزب العربي الذي كان يسعى لهذا الانفصال بعد أن يئس العرب من اخلاص الترك لهم وبعد أن ثبت أن الترك يسعون الى اتحاد طوراني . وفي هذه الرواية حوادث غريبة محيطة بفرعونة العرب تدهش القارىء وتأخذ بمجامع قلبه ولبه (ثمنها عشرة قروش مصرية)

٢ ـ ﴿ جمعية اخوان العهد ﴾ ـ في هذه الرواية مؤامرة عربية هائلة اكتشفها جمال باشا . وفيما هو يحاول الانتقام من المتآمرين كان يساومهم على أن يكون زعيم ثورتهم ومؤسس الدولة العربية . ولكنه فشل . وفيها من الحوادث الغريبة بين عشيقة جمال باشا العربية وحركات شخص مجنون بهواها ما يذهل العقل . ومن غرائب الاقدار ما يوهمك أن القدر يفهم الاسرار (ثمنها عشرة قروش مصرية)

٣ ـ ﴿ وداعاً أيها الشرق ﴾ ـ في هذه الرواية يعلن الترك نبذ الخلافة التي تمثل القومية العربية . وفيها من الدسائس البلشفية التي أفسدت ما بين تركيا الجديدة وأمراء آل عثمان ماتختبل به الاذهان (ثمنها عشرة قروش مصرية)

العالم الجديد

هذه الرواية عالم عظيم لكثرة أشخاصها وتفاقم حوادثها . تمثلت فيها المدنية الامريكية بعجائبها وغرائبها وحركاتها السياسية كما اختبرها المؤلف بنفسه أيام كان في أمريكا . فاذا قرأتها فكأنك كنت في أمريكا . فهي مجموعة عجائب وغرائب (ثمنها ١٢ قرشا مصريا)

﴿ فاتنة الامبراطور ﴾ ـ وهي من أطلى الروايات التاريخيه تمثل وقائع غرام الامبراطور فرنسواجوزيف مع عشيقته الممثلة كاترين شراط (ثمنها ٨ قروش مصرية)

﴿ أين الكنز يا شارلوك هولمز ﴾ ـ أبدع روايات شارلوك هولمز ثمنها ٦ قروش

﴿ زغلولات مصر ﴾ ـ معظم أشخاصها سيدات . احساسية وطنية . تمثل لك شيئاً من اشتغال السيدات المصريات في السياسة في الثورة المصرية ـ ثمنها ٣ قروش

﴿ الهائم المعتقلة ﴾ ـ رواية وطنية رهيبة الاول سارة الآخر . ثمنها قرشان

﴿ مجلدات مجلة السيدات والرجال ﴾ ـ ثمن كل من السنة الاولى والسنة الثانية خمسون قرشاً وثمن السنة الثالثة (ماعدا العددين الاولين) ٨٠ قرشاً وثمن كل من السنين الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة كاملة ١٠٠ قرش صاغ خالصة أجرة البريد . ومن يرمها مجلدة يدفع ثمن التجليد عشرة قروش صاغ .

مؤلفات نقولا الحداد الاجتماعية والادبية

﴿علم الاجتماع﴾ مجلدان ضخمان . الاول عن حياة الهيئة الاجتماعية . يصف المجتمع الانساني كما هو . ثم يشرح العقل الاجتماعي في درجاته : المحاكاة والاقتباس والرأي العام . ثم يبسط العوامل الاجتماعية التي أنشأت الاجتماع وكيفيته.

والمجلد الثاني — عن تطور الهيئة الاجتماعية . يعلل التطور بالتفصيل ، ثم يطبقه على تطور المجتمع . ثم يشرح تطورات التمدن منذ نشأ الانسان الى الآن . فالموضوع عظيم والبحث فيه جزل مستفيض هو الوحيد في بابه باللغة العربية (كل مجلد ٣٠ قرشاً مصريا) .

﴿الحب والزواج﴾ هو كتاب فريد في بابه . يفسر فيه الحب تفسيراً علمياً فلسفياً ويعلل فيه الجمال كذلك ثم تشرح فيه علائق الرجل والمرأة في دولة الحب وأخيراً فصل طويل عن الزواج ومايعنى به وأحواله الخ . (ثمنه عشرون قرشاً مصريا)

﴿ذكر وأنثى خلقهم — أو مرشد الشبيبة﴾ وفيه بحث فلسفي عن الذكورة والأنوثة . وبيان أن المرأة والرجل انسان واحد وكل منهما نصف هذا الانسان . وأخيراً فيه بيان ان الزواج الشرعي هو الوسيلة الوحيدة لانضمام النصفين وحصول الانسان الكامل . وهناك مباحث مختلفة فيما يختص بالاستعداد للزواج وعن أحوال الزواج الخ. يجب أن يقرأه كل عازب وعازبة فهو جديد لكل قاريء (ثمنه عشرون قرشاً مصريا)

﴿تاريخ الدستور الانكليزي﴾ وهو تاريخ سياسي لانكلترا جزيل الفائدة (مترجم) (ثمنه اثنا عشر قرشاً مصريا)

﴿علم أدب النفس﴾ هذا كتاب جديد في موضوعه في لغتنا العربية وهو وحيد فيها الى الآن . يدور حول الآداب والاخلاق النفسية . وأهم مباحثه طوائف الاخلاق . والارادة والغاية والسرور . وقوة الحكم على الامر خطاء وصوابا والضمير ومستنداته والحرية . والحقوق والواجبات والفضائل والرذائل . والرقي الأدبي . وهي مبوبة في أربع أبواب و١٦ فصلا . (ثمنه عشرون قرشاً مصريا)

﴿تنبيه مهم﴾ يضاف الى الطلب ١٠ بالماية لاجرة البريد . والدفع سلفاً

الطلب الذي لا يكون مصحوبا بالقيمة يهمل

جميع مؤلفات نقولا الحداد

جميع حقوقها محفوظة له

كتب في مواضيع مختلفة

علم الاجتماع + (الكتاب الاول والثاني)
الحب والزواج + (مناهج الحياة)
الاشتراكية ذكراً وانثى خلقهم +
علم ادب النفس +
أساس الشرائع الانكليزية (ترجمة) +
شعوب أوروبا (ترجمة)

روايات مؤلفة

حواء الجديدة * آدم الجديد *
الصديق المجهول * الحقيبة الزرقاء *
فاتنة الامبراطور + أسرار مصر
عين بعين * كله نصيب
العالم الجديد +
عهد الجاسوسية
حركات السيدات في الانتخابات أو أي هوا بنى
زغلولات مصر + الهانم المعتقلة +
فرعونة العرب عند الترك +
جمعية اخوان العهد +
وداعاً أيها الشرق +
نبية لبنان +
ثورة عواطف +
هوكر المحتال
الخفاش البشري الخاتم الساحر

روايات نشرت في اللطائف المصورة

المنطاد المنقم زغلول مصر
زغاليل مصر فتاة آل عثمان
تحت راية مصطفى كمال
فتاة الاناضول وانهزام اليونانيين
ابن المقادير

الروايات المترجمة

حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة: جزآن (الأصل لديماس)
الزهرة الحمراء (الاصل للبارونة أورزى)
الحرب الجوية (الاصل لانجرصول)
العقرب (مترجمة بتصرف. نشرت في اللطائف)
زوجة بالاسم هذا جناه أبي على
أين الكنز ياشارلوك هولمز +

روايات صغيرة

نحو ٣٠٠ رواية في اللطائف وغيرها
نحو ١٥٠ اللص الشريف

تنبيه أول — ليس في ادارة مجلة السيدات والرجال من هذه الروايات الا ما تجد الى جنبه علامة صليب + ونحن باذلون الجهد في اعادة طبع البقية رويداً ان شاء الله ونشرع أولا بطبع ما تجد الى جنبه نجمه *

تنبيه ثان — جميع مؤلفاتنا ومعرباتنا بلا استثناء حقوق اعادة طبعها محفوظة لنا وليس عند أي طابع أو ناشر صك تنازل منا بهذا الحق له بتاتا . وكل من يتصدى لاعادة طبع أي شيء من غير اتفاق خطي معنا يعرض نفسه للمسئوليات القانونية

THR LADIE'S & MEN S,RFVIWE·
(ARABIC MAGAZINE)
Edited by Rose &Nicola Haddad.
SHOUBRA, CAIRO, EGYPT.

TELEPHONE 32-34 Madina·

مجلة السيدات والرجال

مصورة

علوم وآداب وفنون جميلة وروايات ونكاهات
مناسبة لهما ومحررة لهم السيدتان نيما روز نقولا حداد

محررها المسؤول نقولا أحمد حداد
شبرا — مصر

تليفون نمرة ٣٤ — ٣٢ مدينه

لاتجد مثل هذه المجلة جليساً أنيساً وعشيراً سميراً ونديماً حكيما ورفيقاً صديقاً

﴿مواضعيها﴾ كل مستطرف وجديد وحديث من علم أدب واجتماع وفنون جميلة وتعليمات منزلية متنوعة وروايات كاملة ومسلسلة · وهي عامل من عوامل النهضة الشرقية

﴿مطالعتها﴾ تفكهة للقاريء وتسلية له بعد التعب والعناء وحين الراحة من العمل والعزلة عن الرفقاء والاصدقاء والاقرباء واطلاعه على كل جديد مفيد

﴿لزومها﴾ تلزم أولا للرجال متعلمين أو بسطاء لأن فيها نخبة المعلومات والمعارف العصرية فضلا عن المباحث الاجتماعية التى تمس حياتنا الحاضرة ومستقبلنا الاجتماعي والسياسى

ثانياً للسيدات، لان فيها جميع المعلومات المنزلية والتعليمات الخاصة بالعائلة كتربية الطفل والقواعد الصحية العمومية ومباحث فى « الموضة » وفوائد عن المطبخ والمائدة ومباحث فى التبرج والزينة . وفيها فصل خاص عن السيدات في مجالسهن

ثالثا للشبان والشابات والاحداث لما فيها من الفوائد العمومية والفكاهات المفيدة والروايات الجميلة وفيها فصل خاص بالفنون الجميلة للشعر والرسم والموسيقى وفى كل جزء بعد آخر قطعة موسيقية بالعلامات لكي تعزف على الآلات

﴿الاشتراك﴾ في مصر والسودان وسوريا وفلسطين وسائر البلاد العربية جنيه مصري · وفي البلاد الاخرى ٢٥ شلناً أو ٦ ريالات اميركية أو مايساويها في عملة كل بلاد · يخصم للطلبة ورجال الدين ٢٥ قرشاً

عنوانها — الى ادارة مجلة السيدات والرجال شبرا · مصر

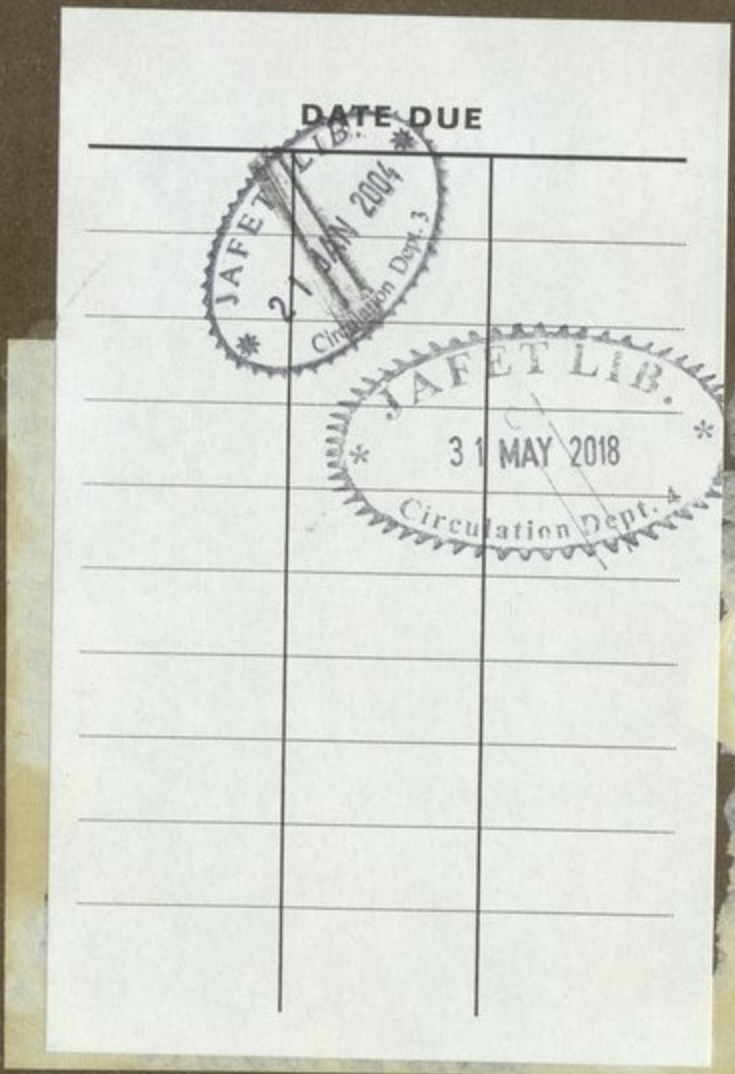
DATE DUE
JAFET LIB.
21 JAN 2004
Circulation Dept. 3
JAFET LIB.
31 MAY 2018
Circulation Dept. 4

الحداد، نقولا
ثورة عواطف...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037770

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY